

ہر جائتہ



فَنَاءُ الْحُلُمِ
وَنَاءُ الْحُلُمِ



ممدوع دبور



اسم الرواية: فتاة الحلاج.

اسم المؤلف: ممدوح دبور.

المدير العام: نهى محمود.

مدير التوزيع: مصطفى عبد القادر.

تصميم وإخراج فني: همت العزب.

تصميم الغلاف: دعاء السيد.

التصحيح اللغوي: «أولي النهى للتصحيح اللغوي»
نهى محمود/هنا عبد الوهاب

الطبعة الأولى: ٢٠٢٠م

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق المصرية: ٢٠٢٠/١٠٧٩٥.

الترقيم الدولي: ٢-٢٦-٦٦١-٩٧٧-٩٧٨.



كل الحقوق
محفوظة

١٧ ش حسن وهبة من شارع الهرم الرئيسي

خلف كاير مول.

موبايل / ٠١٠٣٠٨٥٠٥١٢

البريد الإلكتروني:



للنشر والتوزيع

Nohamahmoud.171186@gmail.com

elshahdpublishing2016@gmail.com

الإلهيَّاء

إلى كل قلب خبأ الحب داخله مثل قطع الزجاج،

فاكتوى وتألَّم، وحين افتقر إلى السعادة

تصفَّح كل سُبُل الثراء والراحة،

وفي النهاية.. اختار العشق!



«فكيف أصنع في حبِّ كلفتُ به؟

مولاي، قد ملَّ من سقمي أطبائي

قالوا: تداو به منه، فقلت لهم: يا قوم،



هل يتداوى الداءُ بالداءِ؟»



جميع اقتباسات الرواية في بداية الفصول

من أقوال الحلاج



الفصل الأول



«تَرَكْتُ لِلنَّاسِ دُنْيَاهُمْ وَدِينَهُمْ سَغْلًا بِحَبِّكَ
يَا دِينِي وَدُنْيَايَ»

وقف الشيخ، ذو اللحية الشعثاء التي تدلّت على صدره،
ولامست سترته البيضاء، مقيّد اليدين أمام محكمة، تشكّلت من
قاضي القضاة المالكي أبي عمر الحمّادي رئيسًا، وأبي جعفر
البهلول وأبي الحسين الشتّاني القاضيين الحنفيين عضوين.
انسكبت عيناه على صدره وكأنّ الدنيا قد ثقلت على جفنيه أو
غلبته الأيام على أمره. راح يحدق البصر في التراب، كمن يبحث
عن قبره في موطئ قدميه.

بدا شيخًا فقيرًا، يتسكّع في طرقات الحياة ويهيم على وجهه
في سراديبها الموحشة، يقتات من خبز الفقر ويشرب من ماء العوز،
يحجب بكفه لهيب الشمس، ويشعل عقله دليلاً في ظلمة الكون.





بادره قاضي القضاة قائلاً:

-يا أبا المغيث، لقد سمعنا بمغالاتك في وصف علاقتك
بالواحد القهَّار، وقولك أَنَّك الله، وأنَّ الله يسكن فيك. ألم تقل:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا

نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتني أبصرته

وإذا أبصرتَه أبصرتنا

رفع الشيخ رأسه وتطلَّع في وجوه القضاة، ثمَّ لاذ بالصمت
لهنيهة ورفع وجهه إلى السماء كمن ينتظر وحياً، ثم قال:
-أسأل الله ألاَّ يرَدِّي إلَيَّ بعد ما اختطفني مني.

قطب قاضي القضاة جبينه في حيرة، واستطرد قائلاً:

-ألم تقل «ما في الجبَّة غير الله»، حين استفسرك أحدهم عمَّا تخفي
في ثوبك؟ ألا تعني بهذا أَنَّك الله، وقد حلَّ في جسدك وارتدي ثوبك؟

افتَرَّ ثغر الشيخ عن ابتسامة رائقة، وصوَّب ناظره إلى وجه
قاضي القضاة، وقال:

-هل تدلَّنِي على مكان لا يحيط الله به، وقلب لا ينشغل به،
وعينين لا تشتاقان لرؤيته، وجسد لا يهفو إلى ملاسته؟



-ماذا تعني، يا ابن منصور؟

-لقد راغت الروح مني، وتاقت إلى الانعتاق، فلا سبيل إلى مغالبتها.

-هل تعني بهذا أنك تعترف بما اقترفت من جريمة العيب في الذات الإلهية؟ ألا تخشى الموت؟

اتسعت ابتسامة الشيخ، ورفع رأسه الواهنة لأعلى، ثم قال:

-إذا نظر العارف إلى نفسه افتقر، وإذا نظر إلى ربه افتخر.

-نعلم أنك قد تتلمذت على يد الشيخ عمرو بن عثمان المكي، ومذ خلع عليك عباءة علمه، وأنت زاهد متصوِّف، ولكن أليس جدك ماجوسياً؟

-نعم. ولكن سبحان من يخرج من جوف النيران نوراً.

دوت غمغمات في القاعة ومطَّ قاضي القضاة شفتيه، ثم راح يتحدث إلى القضاة هامساً: ظلَّ الشيخ ينظر في الأرض، ويتمتم بكلمات غير واضحة، وبعد مداولة طالت لدقائق ذات عدد، عاد قاضي القضاة إلى مخاطبة الشيخ قائلاً:

-يا ابن منصور، ألا تؤمن بالإحلال، كما ورد على لسانك مرَّات كثيرة؟ كيف تدَّعي أنك والله شخصاً واحداً فتقول:





رأيت ربِّي بعين قلبي.

فقلتُ: من أنت؟

قال: أنت!

-هكذا أصلي، وهكذا أحاطب ربي.

حين تتوقّف عن بيع صلواتك للسماء، والإتجار بإيمانك،
يصبح الحب سر نجاتك، وتفنّي بذات الحبيب، بل وتصير أنت
المصلّي وأنت الصلاة، أنا في غربة، يا سيدي، وأتوقّ لاهثاً إلى
العودة إلى مستقري الأول والأخير.

زوى قاضي القضاة ما بين عينيه في استياء، وزعق في وجه
الشيخ قائلاً:

-أنا لا أسألك عمّا تتوق إليه، بل عمّا تبوح به. أجب عن
أسئلتني فحسب.

رمقه الشيخ بنظرة فاترة، وقال في هدوء:

-وهل سألتني ولم أجب؟

تبادل القضاة النظرات الداهشة، وضرب قاضي القضاة كفاً
بكف، ثم أضاف.

-أجنت يا هذا؟ لقد أمطرتك بوابل من الأسئلة، ولم تتفوّه
بجواب واحد بعد، ما ردّك على من يتهمونك بالكفر؟





-إِنَّ بعض الناس يشهدون علىَّ بالكفر، وبعضهم يشهدون لي بالولاية والذين يشهدون علىَّ بالكفر أحبَّ إليَّ وإلى الله من الذين يقرُّون بالولاية، لأنَّ الذين يشهدون لي بالولاية من حسن ظنهم بي والذين يشهدون علىَّ بالكفر يشهدون تعصُّباً لدينهم، ومن تعصَّب لدينه أحبه الله أكثر ممَّن أحسن الظن بأحد.

-إذن فأنت تعترف بذنبك، ألا تخشى سوء العقاب؟

-هو عادل، يا سيدي، فلو قطعني بالبلاء إرباً إرباً، ما ازددتُ إلَّا حبًّا، حبًّا.

-ألا تدري فداحة ذنبك يا أبا المغيث؟

-بلى، فذنبى عظيم، أنا الذي أنكرته كثيرًا، ولم أعمل بما علَّمنى ربي، بل صرت عبدًا لشهوات الدنيا ونزواتها، ولكن الله شاء أن يردَّني إليه ردًّا جميلًا، يا أهل الإسلام، أغثوني! فليس يتركني ونفسي فأنس بها، وليس يأخذني من نفسي فأستريح منها، وهذا دلال لا أطيعه.

-كيف تدَّعي الإيمان وقد تزندق، وادَّعيت ما ليس لك به علم؟

-إِنَّ في قلبي إيمان لو أُلقيَّ منه ذرَّة على جبال الأرض لذابت.





اكفهرَّ وجه قاضي القضاة بغته، وجعل يتمم في امتعاض، ثم
استأنف قائلاً:

-كفاك مراوغة. لقد ألقيت بذور فتنة بين العامة، وتفوَّهت
بأقوال غامضة ملتبسة المعاني، بغية أن يقوم المسلم ضد أخيه
المسلم، أليس كذلك؟

-لا يا سيدي، بل أبغي لو مدَّ المسلم للمسلم كفَّ الرحمة
والود.

-أنت تحض على عصيان الحكَّام.
أحسَّ الشيخ بنيةً مبيَّته لإدانته بما لم يفعل، فاشرب بعنقه،
وقال في زهو:

-بل كنت أحض على طاعة رب الحكَّام. لقد برَّأ الله الدنيا
إحكامًا ونظامًا، فلماذا اضطربت واختلَّ الإحكام؟ لقد خلق الله
الإنسان على صورته في أحسن تقويم، فلماذا ردَّ إلى درك الأنعام؟
انقبضت أسارير قاضي القضاة، وتطاير الشرر من عينيه، فقال
في حنق:

-أتتهمنا بأننا أنعام؟ أظن نفسك العارف المستنير؟
-أنا قنديل، يتدلَّى من ظلمة إلى ظلمة.



-ممممم.. حسناً، ألم ترسل رسائل إلى المعارضين للخليفة،

تدعوهم فيها إلى أن ينتفضوا ويهبطوا ضد الدولة؟

-الدولة؟ أنا لا أشغل بالي بالدولة، بل أشغلها بقلوب

أحبائي. أمّا الرسائل فهي قطع من قلبي أهديها لقلوب أحبائي.

-وماذا تحوي تلك الرسائل؟

-أذكرهم فيها أن الإنسان شقي في مملكة الله، لم يرأنا الباري

ليعدّ بنا ويصغرنا في عينيه، بل ليرانا ننمو وتلامس جبهتنا الشمس،

أو نمرح تحت عباؤها كالحملان المرحّة.

-ومن أوحى لك بهذا التذكير، ومن منحك السلطة لتنصب

نفسك ولياً؟

-أنا لم أنصب نفسي سوى قلباً، عاين الفقر يعربد في روح

الإنسان، فسألت نفسي: ماذا أصنع؟ هل أدعو جميع الفقراء أن

يلقوا سيف النعمة في أفئدة الظلمة؟ ما أتعس أن نلقى بعض الشر

ببعض الشر، ونداوي إثمًا بجريمة. ماذا أصنع؟ هل أدعو الظلمة

أن يضعوا الظلم عن الناس؟ لكن، هل تفتح الكلمة قلباً مغلقاً بتاج

ذهبي؟ ماذا أصنع؟

-إذن، فأنت تبغي أن يرتفع الفقر عن الناس.



- ما الفقر، يا سيدي؟ ليس الفقر الجوع إلى المأكل والعري إلى الكسوة. الفقر هو القهر، واستخدام الفقر لإذلال الروح. الفقر هو استخدام الفقر لقتل الحب وزرع البغضاء.

الله يقول لنا: كونوا أحببًا، والفقر يقول لنا: كونوا بغضاء بغاضين. الفقر يدعونا قائلًا: إكره.. إكره!

انتصب قاضي القضاة واقفًا، ولوّح بيده في وجه الشيخ، ثم صرخ قائلًا:

- كفى! لقد تزندق وكفرت، ونشرت الفتنة بين الناس، ألم يكن أنت من قال مخاطبًا الله:

جُبِلْتُ روحك في روحي كما / يجبل العنبر بالمسك الفتق وألم تقل:

مازجت روحك روحي / في دنو وبعادي
فأنا أنت كما أنك / أنا ومرادي.

رمق الشيخ قاضي القضاة بنظرة استهجان ورفع يده في الهواء ملوّحًا، ثم قال:

- لستم بقضاتي، بل جلّادي. لذا لن أدافع عن نفسي. لقد اصطفاكم الله نفسه، كي تمنحوني ما اشتاقت إليه نفسي كثيرًا.



-إذن، فأنت تقر بذنبك، وتتقبل العقاب. ألن تتوب وتعود إلى رشدك؟

-أعود لو عدتم إلى الحق.

ران صمت لبرهة، ثم اقتعد قاضي القضاة كرسيه، وراح يتحدث مع القضاة، بينما ظلَّ الشيخ يهيمهم قائلاً:

-مثالك في عيني وذكرك في فمي / ومثواك في قلبي، فأين تغيب؟
مرّت دقائق حين صوّب قاضي القضاة بصره إلى الشيخ الذي انحنى جذعه المتعب ونذر لسانه للصمت، ثم قال:

-هبنا أغفلنا حق السلطان، ماذا نصنع في حق الله؟ لقد أنبئنا أنّ الحلاج يروي أنّ الله يحل به أو ما شاء له الشيطان من أوهام وضلالات. إنّ الولي يعفو عمّن يجرم في حقه، ولكن لا يعفو عمّن يجرم في حق الله.

ابتسم الشيخ في تهكّم، وقال مخاطباً القضاة:

- اقتلوني / إنّ في موتي حياتي / وحياتي في مماتي / أنا عند محو ذاتي.

اقتاد الجند الحلاج إلى ساحة عامة، وقام الجلّاد بضربه ألف جلدة. استقبل الحلاج الضربات بنفس راضية كمن يستعذب



الألم، فلم يتأوّه إلاّ لمأماً. قام الجلّاد بعدها بقطع أطرافه من خلاف، فدوت صرخات الشيخ في الساحة، وهو يناجي الله، ويدعو جلاّديه قائلاً:

-سئمت روحي حياتي / في الرسوم الباليات / فاقتلوني واحرقوني / بعظامي الفانيات..

وحين استبدّ الألم بالحلاج، وتعالّت صرخاته، ضرب الجلاّاد عنقه، فساد صمت رهيب، بعد أن لفظ الحلاج أنفاسه الأخيرة، قام الجند بدق المسامير في يديه وقدميه، ورفعوه فوق صليب خشبي. ظلّ جسد الحلاج أيّاماً، تنهش الطيور الجارحة لحمه، حتّى أصابته العفونة....

كان الليل في هزيعه الثالث حين استيقظت نيروز من نومها مذعورة، وراحت تصرخ على زوجها، الذي رقد إلى جوارها دون حراك. انتفض الزوج في مكانه، وقد سرت في جسده رجفة، فراح يستفسرها في هلع عمّا أصابها. تملّكت من جسدها قشعريرة، وظلّت ترتعش وتتمتم بكلمات متكسّرة قائلة.

-الحلم، يا يوسف. إنّهُ نفس الحلم. نفس الشيخ الذي يأتي لزيارتي كل ليلة.

الفصل الثاني



«أرجو لنفسي براءً من محبتكم .. إذا تبرأت من
سمعي ومن بصري»

تمددت نيروز فوق أريكة وثيرة، في عيادة للطب النفسي، والتي
اعتادت أن تتردد عليها كلما داهمها حلم الشيخ، أو تراءى لها رؤى
العين في أحياء كثيرة. لم يفلح زوجها يوسف في احتواء حيرتها،
والتخفيف من وطأة الاضطراب الذي انتابها لفترات طويلة، مما
اضطره إلى اللجوء إلى صديقه سمير شاكر، الطبيب النفسي.

تمددت نيروز فوق أريكة وثيرة بجوار مكتب الطبيب، الذي
راح يستمع إليها باهتمام، ويدون ما تسرده. بادرت قائلة:

- كان لأبي صديق يدعى الشيخ خميس، وهو رجل كفيف
معمم، اعتاد أن يزورنا ليقرأ القرآن بصوته المتحشرج المتكسر
وكأنه في سعال دائم، في منزلنا المسكون بالجن والعفاريت - كما

كان الشيخ يعتقد. كان أبي ينتهري كثيراً حين انفجر في الضحك كلما سقط قدح الشاي الممتلئ بالسكر في القاع من يد الشيخ خميس، أو كلما انكفاً أثناء سيره، أو حين يراوغ الكلمات - لأنه كان ألثغ في الرءاء - فيجعل الحفر «نبشاً» والفراش «مضجعاً» والمطر «غيثاً». وكان أبي يتوعدني بالضرب والحرمان من مصروف يدي إن لم أتوقف عن التهكم والاستهزاء بصديقه الشيخ، وأبلغني أن من يسخر من الشيوخ يذهب للجحيم. أصابني هذا الكشف بالفزع وصارت فرائصي ترتعد كلما جاء الشيخ لزيارتنا. ومع مرور الأعوام لم أعد أستهزئ بالشيخ، ولكنني أصبحت أبغض كل الشيوخ.

كان الشيخ خميس من أهل الخطوة - كما كانوا يطلقون على من يمتلك قدرات خارقة تفوق طاقات البشر، يعرفه القاضي والداني في حي باب الشعرية - أو باب الشعراني - كما أسماه الشيخ - حيث يوجد منزلنا الصغير في بيت «الست إنصاف»، والذي ورثته عن زوجها المعلم قنديل، صاحب إسطنبول السبع، أكبر إسطنبول في المنطقة. أحبَّ الشيخ خميس أخي رضا وأختي الصغيرة نرجس لأنَّهما كانا يجلسان بالساعات يستمعان إليه وهو يقرأ القرآن بلسانه الأثغ، ويفسر لهما ما استعصى عليهما من آيات، بينما كنت أتجاهل تلك الأحاديث، وأفضّل قضاء الوقت في



قراءة القصص والمجالات، بينما يجلس أبي ينصت إلى التلاوة،
وتقضي أمي الوقت في تجهيز ما يطلبه الشيخ من مأكّل ومشرب
دون ضجر.

دفعني الفضول في إحدى زيارات الشيخ خميس أن أسأله
عن سبب تسميته للحي باب الشعراني، وليس باب الشعرية مثلما
كان متعارفًا عليه. ويبدو أن الشيخ أراد أن يتّهز تلك السانحة كي
يمنحني بعضًا من علمه النفيس، فطفق يقول:

-لقد سُمّي هذا الحي باب الشعرية نسبة إلى عبد الوهاب
الشعراني القادم من قرية سيدي أبي شُجرة في المنوفية ويعود نسبه
إلى علي بن أبي طالب.

-ومن هو الشعراني هذا؟ ولماذا سُمّي الحي باسمه؟
-هو أحد شيوخ التصوّف الزاهدين في مصر، وقد أتى إلى
القاهرة ومكث فيها طيلة حياته، ولقد كانت له كرامات.

-ما معنى الكرامات يا شيخ خميس؟
أشاح الشيخ بوجهه ناحيتي، وانفجرت أساريره، وكأنّه قد
حقّق انتصارًا ما يجذب انتباهي إلى كلامه، وراح يحدّق في وجهي
وكانّه يراني، واستأنف.



-صاحب الكرامات هو من يستطيع بإذن من الله أن يصنع المعجزات، فقد كان بيت الشعراني قبلة يؤمّها كل مريض وكل ذي حاجة. كان الشعراني مكشوفاً عنه الحجاب، فكان على دراية بطالع البشر وخاصة الفقراء.

-ولماذا الفقراء؟

-لأنّهم أظهر قلباً وأكثر بؤساً، وأقرب إلى الله من الأغنياء.

-لماذا يا شيخ خميس؟ هل يبغض الله الأغنياء؟

-لا يا ابنتي، ولكن مالهم قد يبعدهم عن الله، وعن الصراط المستقيم.

-إذن يا شيخ خميس لن يرضى الله عن أبي، لأنّه ليس فقيراً.

صمت الشيخ لبرهة ولم ينطق بكلمة، ثمّ استطرد: أبوك رجل صالح يا نيروز.

كنت صغيرة السن ولم أكن أعلم ماذا كان يعني برجل صالح، هل لأنّ أبي كان يصدق عليه بالمال، أم لأنّه كان يؤدي فروض الصلاة كاملة، أم لأنّه كان يصدّق كل ما يقوله الشيخ دون أن يجادله فيه، فعاودت وسألته عن الشيخ الشعراني.

-ولماذا سُمّي الحي بحي باب الشعرية إذن؟



- هذا تحريف لإسم الشعرائي، فقد قام الأهالي ببناء ضريح ومقام للشيخ الشعرائي في المنطقة التي أقام فيها.

- وهل للشيخ أقارب على قيد الحياة حتّى الآن.

- لا أحد يعلم إن كان له ذرية أم لا، رغم زيجاته الأربع من زينب وحليمة وفاطمة وأم الحسن ابنة سيدي مدين. وهناك حكاية عجيبة عن زهده، أنّه لمّا تزوج من فاطمة ظلّت بكرًا خمسة أشهر، إلى أن رأى في منامه السيد البدوي، وقد جاء وأخذهما معه إلى ضريحه في طنطا، وساعد الشيخ الشعرائي على فض بكارتها داخل الضريح وفوق ركن القبّة، وكان ذلك بفضل كرامة السيد البدوي!

ومرّت السنون وكبرت وداهم الشيب الشيخ خميس، وكنت دائماً أشتاط غيظًا حين أرى أبي يقبل يده ويطلب منه البركة لأسرتنا، وفي مقابل تلك البركة كان يغدق عليه بالمال والهدايا من ملابس ومأكّل. كان أبي يولي اهتمامًا كبيرًا بأختي نرجس، لأنّها -كما كان الشيخ خميس يعتقد- «ملبوسة» بعفريت من الجن، وكثيرًا ما استعان أبي بشيوخ الحي وعلى رأسهم الشيخ خميس لطرد تلك الروح الشريرة من جسد أختي الهزيل.

لم يستطع أي شيخ منهم أن يدرك علّة أختي، التي أصابها



الضعف وشحب لونها، وقد كانت مثل زهرة متفتحة قبل ذلك
بعام واحد. كنت دائماً أغضب من الطريقة التي يستخدمها هؤلاء
الشيوخ في علاج أختي، فمنهم من كان يضربها، ومنهم من كان
يصرخ في وجهها بطريقة قد تصيب الحكماء بالجنون، ومنهم من
كنت أراه يتحرّش بجسدها النحيل بأيديهم النهمّة، ولم يُحرّك أبي
ساكناً، كنت أحياناً أسمعها تتحدث إلى نفسها في غرفتها، وتتجاوز
مع الجدران وتلّوح بيديها بشكل تمثيلي كما لو كانت تتحدث إلى
جمع من الناس، وكلّما دلفت إلى غرفتها كانت تلتزم الصمت
وكأنّها قد أمرت بذلك. وفي إحدى المرات استرقت السمع إلى
حوارها العجيب مع الجدران، وكانت تهمس قائلة:

- لا أستطيع أن أفعل هذا، لأنني أحبها جداً، وهي أقرب
إنسانة لقلبي، كما أنّ أبي قد يقتلني إن فعلت..... كيف تريد
منّي أن أسرق هذا الشيء؟..... وإن يكن، هي سرقة على أية حال،
وأنا لا أستطيع أن أفعل هذا..... أرجوك لا تهددني هكذا، أنا
أرتجف كلّما صرخت هكذا في وجهي!

دفعني التوجس والقلق عليها أن أقنم مخدعها، لأرى من
يكون هذا الذي يهددها ويدفعها للسرقة، وسرقة ماذا؟ وحين



رأيتني ابتسمت، ولاذت بالصمت. استوضحتها عمّا كان يدور في
الغرفة، فأنكرت، رجوتها أن تثق بي وأن تخبرني بكل شيء، فقد
كنت الأخت المفضّلة لديها، وكانت هي كاتمة أسرارِي. طفرت
عينها بالدمع وقالت:

-نيروز، أنا متعبة، فهو لا يريد أن يتركني وشأني.

-من هو هذا الشخص يا نرجس؟

-يقول إنّه يدعى ابن المنصور، وهو من بلاد الفرس، وقد
جاء ليتزوجني ويأخذني معه.

ازداد قلقي وغلا مرجل غضبي من ذلك الشيخ الخفي
الغامض، فقلت لها مطمئنة.

-يا نرجس هذه أو هام، لا يوجد شيخ أو يحزنون. إنّها تهيّئات
يا حبيبتِي.

-لا يا نيروز، فأنا أراه رؤى العين، وهو يأتي كل يوم ليراني
ويتحدث معي.

شعرت بعدم جدوى محاولتي لإقناعها بزيّف الأمر الذي
يصوّره لها خيالها الخصب، فأثرتُ أن أجاريها حتّى أعرف حقيقة
الأمر فاستطردتُ قائلة:

-وما هو الشيء الذي يريد هذا الشيخ أن تسرقه؟

صمتت بغتة ورمقتني بنظرة مترددة وعيناها يملؤهما التوجُّس، وحاولت أن تغالب الدمع في عينيها، ثم همست لي وكأنَّها لا تريد أحدًا أن يسمع.

-لسانك يا نيروز!

نزلت كلماتها كالصاعقة عليَّ وكأنني قد ضربت بمطرقة على يافوخي، وشعرت برجفة تملَّكت جسدي، قبل أن أتمالك نفسي. نظرت إليها في حيرة ودهشة قبل أن أنفجر في الضحك حتى ترققت عيناها بالدموع. قطَّبت نرجس حاجبيها وكأنَّها تستنكر سخريتي منها، ثمَّ قالت في غضب:

-علام الضحك؟ هل تسخرين مني أم من الشيخ؟

-من كليكما يا نرجس. هذا جد مضحك.

اندفعت نرجس خارجة من الغرفة بينما تمتمت بكلمات لم أسمع منها سوى «له كل الحق أن يكرهاك».

ازداد وهن جسد نرجس وصارت مثل هيك عظمي، وجمحت عيناها حتَّى بدتا وكأنَّهما يتأهبان للقفز من محجريهما. كان مرض أختي ينهش في قلب والدي نهشًا، وهو مكتوف اليدين،



ولا يملك سوى الاستعانة بين الفينة والفينة بالشيخ خميس ووصفاته المتعددة من الأحجة والخمسة وخميسة والبحور والخرز الأزرق والحدوة التي تتدلى من عنق أختي، والكف الذي اعتادت أمي أن ترسمه بالدم على جبين نرجس، وعروسة الورق التي توخز أمي جسدها بالإبرة وتذكر أسماء كل أفراد الأسرة والجيران والأقارب وتستعيد بالله من عيونهم جميعاً. ولم يطرأ أي تغيير على نرجس رغم كل وصفات الشيخ التي «لا تخرّ المياه!»

لاحظت رغم ذلك تغييراً عجيّباً على نرجس، فلم تكن تطيق أحداً من الشيوخ الآخرين أن يقترب منها، ولا تقبل إلا بالشيخ خميس، وكانت تبكي حين يغيب عن المنزل لأيام، وترجى أبي أن يستدعيه، لأنّها لا تجد راحتها إلا في وجوده. كان لدى أبي قناعة كبيرة أنّ شفاء أختي سوف يكون على يد الشيخ خميس، ولم يرضخ أبداً لتوسلات الأقارب والجيران أن يصحبها إلى طبيب منخ وأعصاب أو طبيب أمراض نفسية، متعللاً بيقينه وإيمانه أنّ الشفاء من عند الله، وسوف يتحقق على يد الشيخ المبروك خميس. ساورتني الشكوك حين رأيت تعلّق نرجس بالشيخ إلى هذا الحد، وتمسّكها بما يأمرها بفعله، وإن بدا غير فعّال، ولم أقنع أبداً بمصداقيته فقرّرت أن أكتشف السر وراء هذا التعلّق وتلك السكينة التي تنزل على أختي نرجس بعد كل زيارة للشيخ.

وجاء الشيخ خميس كعادته مساء إحدى الأيام وهو يحمل لفافة في يده، ولم يرد أن يبلغ أحداً بما تحويه طلب الشيخ مني أن أوقفها حتى يراها، فأذعنت لطلبه ودلفت إلى غرفتها لأخبرها بقدومه. دخل الشيخ مخدع أختي نرجس وطالب الجميع الانتظار خارج الغرفة ريثما ينتهي من جلسته الروحانية مع أختي والجنّي الذي يسكن في جسدها الواهن، أغلق الشيخ باب غرفتها، ثمّ فض اللفافة، وطلب من نرجس أن ترتدي ما أحضره لها من ثياب. مدّت نرجس يدها وتناولت الرداء من يد الشيخ الكفيف، الذي وسّد يدها الصغيرة بكفيه، ثمّ قبلها. كان الرداء أحمر اللون، فضفاضاً وشفافاً، فقد كان قميص نوم اشتراه الشيخ خصيصاً لترتيديه نرجس وهي في صحبتته وحدهما في الغرفة. فغرت نرجس فاهاً ولم تنبس ببنت شفة. خلعت ثوبها وارتدت القميص، بينما ابتسم الشيخ ملء شديقه وكأنّه يبصرها، ثم طلب منها أن تقترب حتى يتلمس جسدها تحت القميص الناعم. وبين إقدام وإحجام اقتربت نرجس من الشيخ، وقد تجهم وجهها وشحب لونها. راح الشيخ يتلمّس جسدها، فتحسّس كتفيها وحاول أن يلمس نهديهما فأزاحت يده بعيداً. ابتسم الشيخ وقال بنبرة لوم:



-ماذا دهالكِ يا نرجس. لقد جئت حسب الموعد، وأنا أشتاق إليك كما تشاقين إليّ، أليس كذلك؟

لم تجبه نرجس، وارتفع صوت أنفاسها اللاهثة، فراح الشيخ يربّت على يدها التي لثمها بكفيه، ثم استطرد:

-ألا تشعرين معي بالمتعة؟ أليس هذا ما تخبريني به دائماً، أنني ملاكك الحارس، ولولا ما نفعله سوياً لاستحوذ الجني على جسدك، وطالما استمرّ الأمر هذا بيننا فلن يجد الجني سبيلاً إلى جسدك، ولن يستطيع أن يفض عذريتك. ما نفعله سوياً سوف يجعلك من نساء الجنة، لأنك قد أصبحت حوريتي التي انتقيتها من الدنيا.

زوى الطبيب حاجبيه في دهشة، وهو ينصت إلى نيروز، ولم يعقب. هاجم نيروز البكاء، فأجهشت به، ولاذت بالصمت لدقائق، حين استبطأها الطبيب، وقال:

-وماذا حدث بعد ذلك يا نيروز؟



الفصل الثالث



«مزجت روعك في روعي كما.. تمزج الخمرة
بالماء الزلال!، فإذا مسك شيء، مسني.. فإذا أنت أنا
في كلِّ حال»

حاولت نيروز أن تغالب الدموع في عينيها، واستأنفت بصوت
متحشرج قائلة:

- خرجت من فم نرجس صرخة مكتومة، وقد لثمت فمها
بكفها المرتعشة، ابتسم الشيخ ثانية واستأنف قائلاً:

- تعالي يا صغيرتي ولا تخافي. امنحيني قدرًا من جمالك،
واجعليني أصل إلى ذروة النشوة دون أن أصيبك بأذى. مدِّي يدًا
وعابثيني كما اعتدت، واطرکيني أداعب أنا أيضًا جسدك الجميل.

اقتربت نرجس هذه المرة بخطوات حثيثة واثقة وأمسكت
بيد الشيخ ووضعتها على خصرها فانفجرت أساريه وأرسل



بصره الذي تخلى عن عينيه إلى حيث وضعت نرجس يده، وراح يتلمسها في نهم، ثم تحرك بيده إلى أسفل خصرها وحاوط بيديه فتذيتها فسال لعبه مثل كلب يتضور جوعاً وقد أبصر شريحة لحم طازجة. مدّ يد واحدة فيما بين الفخذين وهو يتشدّق بابتسامة بلهاء. بغتة، انتفض الشيخ وأطلق صرخة مدوية، وفغر فاه وجحظت عيناه، وهبّ واقفاً وكأنّ الجني الساكن في جسد نرجس قفز من جسدها واستوطن أطراف الشيخ. راحت عيناه الكيفيتان تدوران مثل البندول في محجريهما، ولاذ بصمت مطبق لبعض الوقت، ثم اعتدل في وقفته وغطّى عورته بجلبابه الذي كان قد لملمه من أطرافه إلى فمه استعداداً لغزوته على جسد أختي المسكينة، واتجه ناحية باب الغرفة حين استوقفته قائلة:

- إلى أين يا شيخ خميس؟

تسمّرت أقدام الشيخ في مكانها، واستدار ناحيتي واقترّب قليلاً، ثم صرخ في وجهي.

- نيروز؟! أيتها الملعونة، ماذا تفعلين هنا؟ أين نرجس؟

- نرجس لا زالت تغطّ في نوم عميق فوق الفراش، ولكنك أعمى لا ترى سوى شهوتك الدنسة.



جحظت عينا الطبيب، وقال مستفسراً:

-أتعنين أنَّكِ تقمصتِ دور أختك نرجس لتفضحي الشيخ؟
-نعم. كنت أعلم أنَّ نرجس لن تقوى على مواجهته، والبوح
بما كان يحدث بينهما.

-وما الذي جعل الشيخ يتنفض ويصرخ؟
-لقد وخزته بسكين كنت أحمله في يدي.
أطلق الطبيب ضحكة تلو الأخرى، ثمَّ قال مُعقِّباً:
-يالكَ من مأكرة! وماذا حدث بعد ذلك؟
-كشَّر الشيخ عن أنيابه واندفعت الكلمات من فمه كأنَّها
لكمات، واستطرد.

-ماذا تقصدين أيتها الملعونة؟ لقد كانت نرجس على حق
حين قالت أنَّكِ شريرة. هل تتهميني بارتكاب المعصية يا شيطانة؟
أنا أعالج أختكِ المريضة، فهل هذا جزاء الإحسان؟
-أتعالجها بممارسة الرذيلة معها يا إبليس؟ سوف أفضحك
عند أبي وأخبره بكل شيء.

تعرَّق جبين الشيخ وبدأ يتلعثم في كلامه، وقد ارتعدت فرائصه
وكاد يتهاوى إلى الأرض وكأنَّه سفينة تصارع الأمواج المتلاطمة،
ولم يبرح مكانه كأنَّه مصفداً بالأغلال.



كنت في طريقي إلى أبي حين استوقفتني ذراع نرجس التي
تشبّث بي، فقد استيقظت واستمعت إلى حوارنا. كانت عيناها
مملوءتين بالدموع وهي تنظر في عينيّ وتستحلفني ألا أفتضح
أمرها عند أبي. رمقتها بنظرة غاضبة وسألتها إن كانت راضية عن
فعل هذا الشيخ الخسيس الساقط، فقالت وهي تتحب وتحاول أن
تستجمع قواها الخائرة:

-إن افتضحت أمرى فسوف يغضب أبي ويشور وربما ينتقم
لنفسه من الشيخ فيقتله، أو يفتضح أمره علانية، فتعيرين أنت بي
يا أختي.

شردت ذهني لبرهة وأنا أفكر فيما قد يفعله أبي بالفعل،
وما قد يؤول إليه أمرنا جميعاً من جراء الفضيحة. رمقتها بنظرة
ازدراء وما زالت يد نرجس متشبثة بيدي، وعيناها مثبتتان بوجهي،
وانتهرت الشيخ الذي كاد يسقط مغشياً عليه من الفزع وبدا كبناء
قديم هش يتداعى، وأمرته أن يرحل دون عودة، فأوماً برأسه وترك
الغرفة والمنزل دون رجعة.

تكبّدت الأمر وحدي لأيام ذات عدد، ونرجس تزداد وهناً
وهزلاً، وأبي يشتاظ غيظاً من صديقه الشيخ الذي قرّر أن يتخلى



عنه في محنته ويسافر إلى بلده. لم يعالج أختي المسكينة دواء ولا
وصفة من وصفات الشيوخ والقساوسة الذين لجأ إليهم أبي.

قرّر أبي بعد طول صبر أن يذهب بنفسه ويحضر الشيخ
خميس من بلده، وحاولت أن أثنيه عن ذلك بكافة السبل، ولكنه
لم يذعن لرجائي وتوسلاتي، واتهمني بعدم الاكتراث بما آلت إليه
أختي. وبالفعل سافر أبي مع أخي رضا إلى بلد الشيخ راسبوتين،
كما أصبحت ألقبه - نسبة إلى القسيس الروسي الماجن - وفي نية
أبي ألا يعود حاملاً خفي حنين.

قرّرت أن أنتهز فرصة غياب أبي عن المنزل لأتحدث إلى
نرجس عمّا يفعله الشيخ بها مستعيناً بهالة القدسية التي تحاوطه،
ومستغلاً ضعفها واضطراباتهما. في البدء لم تشأ نرجس أن تتحدث
عن ذلك لشعورها بالخجل من نفسها تارة، ولشعورها بعدم
القدرة على التخلص من سيطرة الشيخ عليها تارة أخرى، فلم تكن
على استعداد لوضع حد لتصرفاته أو البوح بها إلى أبي. عاتبتهما
على استهانتها بجريمته التي قد تسومها الخسف والنبد من الجميع
وأنا أولهم، فقرّرت أخيراً أن تفصح لي عن خبيئة نفسها، فقالت
والدموع تتثال فوق وجنتيها:



-لقد أقنعني أَنَّهُ الوحيد القادر على التصدّي للجني الذي
يلاحقني في صحوتي وفي منامي، فقد أخبرني أَنني قد أصبحت
زوجته أمام الله، وطالما ظللت هكذا فلن يقربني الجني خشية أن
تصيبه لعنة الشيخ المقرب إلى الله.

-وهل تصديق هذا الهراء؟

-كنت أضعف من أن أكذبه، فقد كنت كالغريقة التي تشتهي
الهواء.

شعرت برغبة ملحة أن أسألها عن شيء ما يعتصر صدري،
وحاولت أن أفاتحها في الأمر وكأَنَّني أخطو فوق جمرات نار
ملتهبة عارية القدمين. استجمعت قواي وقلت:

-نرجس، صادقيني القول، هل فعل بك ما قد يشينك؟

صمتت لبرهة وكأنها لم تع مغزى السؤال، ولمعت عيناها
بغثة وحدقت في عينيّ ثم استطردت:

-اطمئني يا نيروز، فلم يفعل أكثر ممّا حاول أن يفعله معك،
فلا أعتقد أَنَّهُ قادر على أكثر من ذلك وقد كنت في أوقات كثيرة
رهن إشارته.

ثابت إلى نفسي الطمأنينة، ولكنني لم أشعر بالارتياح رغم



ذلك، فمجرد تحرشه بها قد يصيبها بما هو أسوأ. حاولت أن أمارس دور الأخت الكبرى فقرررت أن أقدم لها النصيحة، وقلت. -صدقيني يا نرجس، إنهم جميعاً دجالون، فلا توليهم ثقتك أبداً، ولا تدعيه يمسك ثانية مهما حدث.

-ولكنني خائفة يا نيروز.

-من الآن فصاعداً لا أريدك أن تخافي، فسأظل بجوارك دائماً. لا ترضخي لشعوذة هؤلاء وهؤلاء، فلا ينجو أحد من نوازع النفس الشريرة ولا يوجد أنبياء في زماننا، فالصالحون يا نرجس لا يتواجدون إلا في اليوتوبيا، واليوتوبيا كلمة يونانية معناها «اللامكان»، أي لا وجود لهم في واقعنا.

عاد أبي ومعه الشيخ المارق، وأحضره إلى المنزل وهو يحاوله بإمارات التبجيل والتكريم، ويرجوه أن يعاود زيارته التي أنزلت على نرجس السكينة والراحة كثيراً. حين التقينا في المنزل، كان الشيخ متجهماً، عبوساً، ولم يبد رغبة في الدخول إلى مخدع نرجس كعادته من قبل، وطلب من أبي أن يحضرها إليه «ليرقيها» قبل أن ينصرف. خرجت نرجس من غرفتها وتقابلت أعيننا، وتبادلنا نظرات القلق في حذر واكتتام.

اقتربت نرجس من الشيخ الذي وضع كفه على جبينها وراح يتمتم بتعويذاته. لم أعرف إن كان يعلم بوجودي أم لا، فلم أتحدث إليه، ولكنّه بدا متوجّساً وكأنّه يدرك قربي منه ويشتم رائحة غضبي دون أن يراني. وبعد أن انتهى الشيخ من وصلته المعتادة، استأذن أبي في الانصراف وغادر المنزل دون أن يُلقي كعاداته التحية على جميع أفراد الأسرة.

لاحظت مع مرور الوقت أنّ نرجس لم تعد تتحدث إلى نفسها كما كانت تفعل، ولكنّها أصبحت تعاني ممّا هو أسوأ من ذلك، فقد بدأت تعاني من نوبات صرع قصيرة، ولكنّها كانت كفيلة أن تنهش في قلوبنا نهشاً. قام أبي بعرضها على الأطباء الذين قاموا بوصف العديد والعديد من الأدوية والجلسات النفسية، والتي لم تفلح جميعها في وضع نهاية لنوبات أختي المسكينة. بدأت أتشكك في كل شيء، وراحت الظنون تعصف بي، فهل حقاً هناك جني يعبث بمصير نرجس؟ كيف يمكن أن أصدق هذا وأنا الفتاة المثقفة، المتفتحة التي لا تؤمن إلّا بما يمليه عليها عقلها؟ هل حقاً أن نرجس «ملبوسة» كما يدّعون؟

حاولت أن أطلّع على خبايا الأمراض النفسية وأسباب نوبات



الصرع، والتي يمكن أن تكون نتيجة خلل في وظائف المخ، أو لأسباب نفسية في بعض الأحيان. كنت أتمزق حزناً عليها كلما جاء أحد الدجالين برتبة «شيخ أو قسيس» ليحاول أن يُخرج الجنّي من جسدها الذي شفّه الذبول وصار مسرّحاً لتجارهم ومحاولاتهم الفاشلة رغم إصرار أبي على الاستمرار.

ران الصمت لبرهة، فأرسل الطبيب ناظره إلى وجه نيروز الممتعض، وقال.

-ماذا بك، يا نيروز؟

-لا شيء.

-إذن، أخبريني بما حدث بعد ذلك.

أمسكت نيروز جبهتها بأصابعها كمن تعاني من صداع قميء، ثم استأنفت قائلة:

-في مساء يوم عاصف من أيام الشتاء الموحشة دلفت إلى غرفة نرجس لأطمئن عليها فوجدتها تقتعد كرسيًا بجوار فراشها وتبكي بكاءً مرّاً. حاوطتها بذراعيّ فوجدتها ترتجف بعنف. استفسرتها عن سبب بكائها فنظرت في عينيّ والدموع تنهمر من عينيها كالشلالات، وطرقت واجمة كأنّها يتبلج في خاطرها، ثمّ



قالت بصوت يملؤه نشيجها الساخن:

-لقد ضاجعني يا نيروز!

-ماذا تقولين يا نرجس؟ من هذا الذي ارتكب هذا الجرم؟

-الجني، لقد ضاجعني.

قالت هذا وانفجرت في البكاء ثانيةً وأشاحت بوجهها بعيداً
وكأنّها تخجل من النظر في عينيّ. لم أستطع أن أهدي من روعها،
فقد كنت في أوج حيرتي، ولم أجد الكلمات التي يمكن أن تعبر عمّا
يجيش في نفسي حينئذ. لقد صدأت الكلمات في حلقي بغتة، وأنا
بين مطرقة تصديق ما قالته وسندان عقلي الذي يسخر ممّا تقول،
ويأبى إلا أن يأتמר بأمر المنطق والعلم. إذن ماذا حدث لأختي، هل
جنّت؟ هل حقاً صارت أسيرة أوهاهما؟

وبينما شررد ذهني في خيالاتي، رفعت رأسها التي أخفتها في
صدرتي ورمقتني بنظرة مستجدية وقالت:

-أرجوك يا نيروز، آتني به.

-من؟

-الشيخ.



- أنتِ واهمة، لن أفعل مهما حدث. لن أسمح له أن يلمسكِ
ثانيةً أبداً، محال.

- أتوسل إليك يا نيروز، إنني أتعدّب وهذا الشيطان يطأني كل
ليلة.

- ما الفارق بين شيطان وإبليس؟

لاذت نرجس بالصمت والسكون الرزين، وطفقت تنتحب،
وأخفت رأسها بين فخذيها وراحت تخبط يديها برفق على رأسها
وكأنّها تعقد مناعة. شعرت بالضعف كما لم أشعر من قبل، وأنا
أقف أمامها مصفدة اليدين، عاجزة عن مساعدتها. رحت أربت
على رأسها وهي تهتز ذات اليمين وذات الشمال مثل درويش
اكتنفته نشوة الإنشاد. رحت أنظر إليها في حسرة، وقد احتدّ الصراع
داخلي وكلّما طال النزاع خارت قواي، وشعرت رويداً رويداً برغبة
في الاستسلام لهزيمة وشيكة. غادرت غرفتها، ونظرت في ساعة
الحائط التي دقّت الواحدة بعد منتصف الليل. لم أكد أدلف إلى
غرفتي حين سمعت صرخة نرجس التي لا طمت جدران المنزل.



الفصل الرابع



«ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له: إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ
تَبْتَلَ بِالماء.»

في اهتمام مفاجئ، راح الطبيب يراقب وجه نيروز، الذي
فاض بالأسى، وقد ترقرقت الدموع في عينيها، فبادرها قائلاً:

-ماذا حدث، يا نيروز؟

-هرعت إلى غرفتها مذعورة، ثم تسمّرت قدماي حين دلفت
إلى غرفتها.

-لماذا؟ ماذا حدث؟

-رأيتهما!

استبدَّ الفضول بالطبيب، فصاح قائلاً:

-ماذا رأيت، يا نيروز؟

-(بعد تردد) لقد رأيته رؤى العين؟



- من؟

- الشيخ!

- ماذا؟ أي شيخ؟

- الشيخ العاشق.

- (في دهشة) ومن يكون هذا الشيخ العاشق؟

- هو الشيخ الذي طارح نرجس الغرام. جاءها محملاً بباقة من الزهور، ومرتدياً من الثياب أحلاها، وقلبه يخفق في شجو، واشتياق، كما وصفته. اقترب منها، فتسمّرت في مكانها لبرهة، حين تناهى إليها صوت خطوات قدميه الحثيثة. تبسّم، وقد تأنق في زينته بإفراط. تفرّست فيه ملياً، احتضنها، ولثمّ وجهها بالقبلات، وراح يعابثها كأنّه يعرفها منذ سنوات، رغم أنّها لم تره من قبل. لم تستطع أن تتفوّه بكلمة أو تطلق صرخة، كما لو تجمّد صوتها في حلقها بغتة. أمسك بيدها المرتجفة، وجذبها إلى مخدعها، كما لو أنّها كانت تنتظر مجيئه دون سابق موعد. كان فيه شيء مغاير، شيء لم تألفه فيه، وهي تراه لأول مرة في حياتها، ولكنّها كثيراً ما رآته في منامها. كان الليل يرخي سدوله، وقد أظلمت الغرفة إلّا من مصباح أوقدته بجوار فراشها. وقف يحدق في وجهها في ولع متوهّج،



وهو يمسك بأناملها، كأنه يخشى أن تفر هاربة. نظر إلى صدرها المتوثب العاري حتى أعلى ثدييها، فرددت ناظريها بين عينيه النهمتين، وثدييها في اضطراب. كشف عن فخذيها خلف ثوبها الفضفاض، فاشتعل مرجل شهوته، وطوّقها بذراعيه القويتين، حتى كاد أن يعتصرها عصرًا.

تملّصت من يديه بغتة، كالعصفورة الروّاعة، ثم أذعنت له في استكانة لاهثة. تراجع وارتمت فوق الفراش في خضوع تام، فوثب فوقها، وقد ملأ عطرها الشذي خياشيمه، مثل طائر جارح يحط على ميدان معركة انتهت لتوّها. حاول جهده أن يجمع من الغنائم من جسدها المباح ما استطاع إليه سبيلاً، وهي مستسلمة تمامًا، كمن أرادت أن تفتح له مغاليق مفاتها، ولم تبغ منه الفكاك. تطلّع في وجهها بهيام، وقال: «لا تخافي.»

قالت وهي تموء كالقطط من فرط الذعر: «من أنت؟» استوى ناهضًا، وجلس فوق الفراش. بينما ظلّت عيناه تتشبّان بعينيها، ثم طفق يقول بهدوء رزين.

-أنا الحلّاج! يا فتاتي.

انتبه الطبيب بغتة، وقال في تساؤل:



-ولكن هذا الأمر جد عجيب.

-ماذا تعني؟

-هذا الشيخ قد مات منذ أكثر من عشرة قرون.

-أعلم هذا، ولكن هذا ما حدث.

-هل تستطيعين وصفه؟

-كان شيخاً تجاوز الستين من عمره، يرتدي ثوباً مهترئاً، مثل الزاهدين والنسك.

- (في فضول) حسناً، أكملني.

-قال لمرجس في تشوف: «لقد جئت كي أصطحبك إلى بستان النور. أو من أن لا مثيل لك، وأنتى لا محالة ذائق الموت في تفاصيل حسنك، ومواطن فتتك. أحمل في قصة عشقنا قلبي كتاباً للموتى، وأهبط به إلى العالم الآخر في قارب عينيك. أحنط من أجلك أحلامي، وأترك ما تبقى من جسدي لطيور الوحدة الجارحة. لا أبتغي من هذا الجسد سوى قلبي الذي يحج إلى طيفك كل أمسية، ويعلم أنك تنتظرينه في آخر المنام، وبين يديك مفاتيح فردوس جديد. بسماتك هي صكوك الغفران، أقتنيها كي أعبر في متاهات القبر المحفوفة بالمخاطر، إلى الفردوس الأعلى.»



داهم البكاء عينيَّ نرجس، وهي تنصت إلى كلمات العشق
من شيخ قد وافته المنيّة، وقد مرقت كلماته كالسهم فأصابتها
في مقتل، فمن ذا الذي يطارحها الهوى بشغف، وتيم هكذا؟
استسلمت لجماح ولهه الذي فاق قدرتها على القتال، فاستزادته،
وهي في عجب من نفسها، فاستطرد بصوته الذي اخترق هدأة الليل
قائلاً: «هذا قلبي، رفقاً به!»

أصاب الطيب حيرة أسرة، فاستوقفها مستوضحاً وقال:
- نيروز، كيف حدث كل هذا بينهما، دون أن تحركي ساكناً؟
- لم أستطع أن أفعل شيئاً، كأنني تحوّلت بغتة إلى تمثال من
الشمع. لقد تحجّرت الكلمات في حلقي، وكأنني ابتلعت جبلاً.
- حسناً، وماذا حدث بعد ذلك؟

- أمسك بيدها، وقال هامساً: «مكبلاً بأغلالك أخطو إليك،
وأسعى إلى مرحلة الفناء، والتماهي، فإننا روحان حللنا بدنًا.
يوشمون اسمي على جسدك الملائكي، ويكتبون اسمك في
بطاقة هويتي. أسير إليك الهويني، فأنا أعلم أن أسرع الطرق إلى
قلبك أبطأها. أعلم أن مصيري مرصود في لوح محفوظ، وأن الغد
والأمس محض سراب حين يصبح الحاضر بين كفيك. يتوسل



الجمال إلى عينيك أن يمكث فيهما للأبد كي يظل جميلاً، عيناكِ
المحلّاة بابتساماتكِ، وقطع السكر من نظراتكِ الرائقة. ستظل
نظراتكِ حبات مسبحتي، أرّددُ بهن اسمكِ، وأستدعي بهن أسلحتي
الواهنة، علّها تستطيع أن تتصدّي لأسلحة أنوثتكِ المشرّعة للفتك
بي. يكفيني أريج عطركِ، ينتشلني من زيف الحقيقة إلى صدق
الوهم الذي أحياه منتشياً بالهزيمة على يديكِ».

زفر الطبيب في تحيرٍ، وقال معلقاً:

- يبدو أن نرجس كانت جميلة جداً.

- هذا صحيح، فقد تفوّقت في جمالها على كل فتيات العائلة.

- استمري، يا عزيزتي.

- قطبت نرجس حاجبيها في حيرة، وقد أضنى قلبها صوته
الذي عرج إلى صدرها، وفيض كلماته التي كادت من فرط
حلاوتها أن تفقد معها الوعي. بادرت ودموعها تنهمر على وجنتيها:
من أنت، أيّها العاشق؟ أستحلفك أن تخبرني؟

ضمّ جناحيه خلف ظهره، وأبرقت عيناه مثل حَبّتي كهربان،
وصدح بحديثه العذب، قائلاً:

- خليك بمثلي أن يغنم بحياة أخرى بعد الحبّ، فقد نفضت



يدى من الولاء للخوار والفراغ، فمن الخطل أن نعتبر الحياة مبعثاً
للسرور دون حب. وهأنذا أعلن الحرب على كل جدار يعزلني
عن تكوينات غوايتك. أجمع عواطفى المهتاجة في حقبة سفر،
وأوصد الأبواب خلفي، وألقي بالمفاتيح إلى غياهب الزمن، وأفرّ
إليك، دون إياب.

نظرت نرجس إلى الواقف قبالتها، يرمقها بنظرات هائمة
غير هيّابة، ويمسك بيديها. زايلتها جرأتها، فلم تستطع أن تعنو
لمشاعرها المشبوبة، وآثرت التحفظ والحذر. راح يتنقل ببصره
بين يديها، وبين عينيها الفارتين من نظراته المقدمة.

«من أنتِ أيتها الحسنة؟ من أي كوكب أتيتِ؟» قال في صمت
مطبق.

«ليتني أستطيع أن أبوح بلهفتى إليك.» أضاف في رفق ملؤه
الزهو.

«ليتني أستطيع مغالبة دورة الأفلاك، والتأثير على نجمي، كي
أحظى بك.» قال وهو يلاطف أهداب عينيها.

«أي التعاويذ يمكن أن تأتي بك إلى صدري التوّاق إلى
حضنك؟» قال حين أشاحت بوجهها بعيداً في دل ناعس فتّان.



أرسل نظرة مأخوذة تحمل رسالة إلى عينيها قائلاً: «أنظري إلى.»

مطّت جسدها في ليونة، وشخصت إليه باسمه، وقالت:
«أنا أطوع ما أكون الآن، فانتهاز السانحة، فلن أستطيع مقاومتك.
أرجوك تحنن على قلبي الصغير.»

راح يرقب يديها اللتين اعتصرتهما، ووجتيها اللتين احمرّتا،
وهي تكافح أن تبدو قويّة. أمسك بأطراف أصابع يديها دون أن
يلمسها، وانحنى على ركبتيه، وقبلهما، فمالت وداعبت شعره
الأسود المنسدل على جبينه. أبرقت أساريه، وهو يرنو إلى
جمالها الأسر. قال: «لي حبيب حبّه وسط الحشا / لو يشا يمشي
على قلبي مشا / روحه روحي، وروحي روحه / إن يشا شئت،
وإن شئت يشا.»

أينعت نرجس كالزهور مبتسمة، بأذان مشرّعة لما قد يقول،
ولم يقل بعد، كأنّه يخطو نحوها فوق مسامير، رغم صبابته،
وأحاسيسه التي بدت كالخيول الصاهلة، تعدو نحوها في إقدام
دون أن يحرك ساكناً. شبّت بين أضلعها جمرات بات عليه أن
يطفئها، لم يعد للاكتتام مكان، وقد استبطأت منه البادرة.



«تكلّم، فأنا كلّی آذان صاغية». قالت دون مداراة.

«أنتِ آية في الحسن، حوراء العين، فتّانة المحاسن. قد أتملق الملائكة إذا ما قارنت بينها وبينك». «قال في صوت ظافر أسر لا ينفذ إلى أذنيها.

«قل ما شئت، فكل ما تقول يوقظ كوامني ويشجيني». قالت في سكوت.

أمسكت نرجس بأهدابه في توسل، وقالت: أريد أن أعرف مَنْ أنت؟، قبل أن يطيش عقلي. لن أتركك قبل أن تخبرني. ابتسم في وجهها، ثمّ قال: «أنا شيخ اغتاله العشق...» ثمّ.....

انتظر الطبيب أن تكمل نيروز عبارتها، ولكنها أسلمت شفيتها للصمت، فبادرها قائلاً:

-ثمّ ماذا؟

-ثمّ رفرف بجناحيه، وانطلق صوب السماء التي تلالأت بنجوم خجلى، تتوارى خلف نطف السحاب الذي تراءى لناظريها من النافذة الزجاجية.



الفصل الخامس



«إذا هجرت فمن لي؟ ومن يُجملّ كلي؟ ومن
لروحي ورامي يا أكثري وأقلي؟ أهبك البعض مني
وقد ذهب بكلي يا كل كلي فكن لي.»

راقدة ما زالت فوق الأريكة، جعلت نيروز تجتر ما حدث في
تلك الليلة، حين شاهدت بعينيها حضور ذلك الشيخ إلى غرفة
أختها الصغرى نرجس. بغتة فقدت شهية الكلام، كمن سقطت في
غيبوبة حزن، فاستفسرها الطبيب قائلاً:

- نيروز، أمتأكدة أنت أن ما رأيته كان حقيقة، أم خيّل لك؟

عبست نيروز في ضيق، وقالت في غضب:

- أتعني أنني أهذي؟

ثم نهضت مكفهرّة من رقدتها، كمن تتأهب للرحيل، فبادرها
الطبيب قائلاً:



-معدرة، فما تقولينه غير منطقي. أرجوك، لا تغضبي،
وأكملي حديثك.

وبين إقدام وإحجام عادت نيروز إلى الأريكة، وهي تزفر
في ضجر، ثم لا ذات بصمت قصير، حطَّمه صوت الموسيقى
المنخفض، فاستطردت قائلة:

-أمام المرأة، حيث تداعب النساء نرجسيتين بكل حميمية
واهتمام، كانت نرجس تقف مذعورة، وكأنَّها ترى وجه لا تعرفه،
فقد اختفت معالمه، ولم يبق سوى آثار الزينة، وهاليتين سوداوين
حول عينيها المؤرَّقتين. تتفرَّس هنيهة في بؤبؤيهما، فتبصر لونهما
المائل للخضرة وقد استحال سوادًا كالحا.

-كم كان عمرها وقتذاك؟

-هي تصغرنى بعامين، وقد خطَّت وقتذاك عامها السابع عشر.

-إذن فقد كانت صغيرة جدًا.

-أجل، ومع ذلك فقد ذبلت نضارتها وانصهرت ملامحها،
رغم أنَّها كانت ما تزال تحتفظ بجسد ميَّاد رشيق، كأنَّه تمثال
أفروديت وقد دبَّت فيه الحياة في متحف اللوفر، وهي تقف نهبا
لنظرات نهمه، حتَّى كواكب السينما قد يعقدن المقارنات بين



مقاييس جسمها وأجسامهن، فيصبن بخيبة الأمل.

-وما الذي أفقدها نضارتها، يا نيروز؟

-لقد صار جسدها نهبا لشبح الشيخ، وصارت في علاقتها به لا تملك حق الانسحاب، ولا تملك أن تبوح بسرّها لأحد خوفاً من السخرية. ورويدا بدأت تشعر بالرغبة في تكرار اللقاء الذي يجمعهما، فقد كان الوحيد الذي يرى في جسدها شيئا قيما يستحق المغامرة ولو من شبح هائم على وجهه، وكانت كلمات الغزل في جسدها إنجيل بشارتها للخلاص من خطية الجسد التي لطالما حاولت أن تنال عنها الغفران. لم يستطع أحد قبله أن يجعلها تفخر بأنوثتها، بل وتستبطئ الوقت الذي تكتمل فيه تلك الأنوثة. رغم ذلك، كانت تشعر أنّها تعيش كغانية، مع شيطان يتقمّص روح شيخ! أسلمت نيروز لسانها للصمت لبرهة، فامتألت الغرفة بصوت الموسيقى المنخفض، ولاطمت أنفاس نيروز الساخنة الجدران، حين نزع الطبيب نظارته، بعدما قام بتدوين بعض الملاحظات، وتطلّع في وجه نيروز، ثم قال:

-وماذا عن ذلك الشيخ الذي يُدعى خميس؟

-النذل، الخسيس.. لقد جعلها تشعر أنّ جسدها هو كنزها،



وهو مهرجان المتعة الذي يتقاسمان الاحتفال به كلما أتحت
لهما الفرصة، وفي كل مرة كانت كلمات الوجد والشوق تفور في
فؤاده، ثم تبحث عن منفذ عند شفثيه، راح يروي لها عن غراميات
عمر الخيام، والذي كان يعشق شعره، ويقرأ لها من قصص الغرام
العالمية ليدغدغ بها مشاعرهما المتفتحة كالأزهار. وحين فرع طول
نرجس وامتشق قوامها، وصارت ترى في جسدها شيئاً ذا قيمة،
ولو لشخص واحد، عشقت الوقوف أمام المرأة، وهي تميل
يميناً ويساراً، وتتفرّس في الألق الخمري، والكتفين المستديرين،
والنهدين اللذين رأتهما في كامل استدارتهما، والردين الممتلئين،
في جسد يستفيض في تناسق وبشرة خمرية شفاقة تجذب الأبصار.
ولكن الأمر لم يدم كثيراً، فبعد ذلك...

-ماذا حدث بعد ذلك؟

-تخلّى عنها بعد أن جعلها تتذوّق طعم أنوثتها، وتركها
تتعاطى الحياة كمن يتناول الخبز البائت. تحوّلت جذوة شوقها
إليه مع البعاد والجفاء إلى كراهية وازدراء، ليس له فقط، ولكن
أيضاً لجسدها الذي سامها سوء العذاب، وجعلها تبغض جمالها
الأسر، والذي بدا وكأنه قد صيغ على يد جواهرجي ماهر، لم تعد
تطرب لملاطفات الآخرين، وتراهم جميعاً أئمين.



هل تعلم، لقد حاولت الانتحار أكثر من مرة، وفي كل مرة
تفشل المحاولة يزداد تعلّقها بالحياة لبرهة، ثم يعاودها الخزي
والحزن، فتكرّر المحاولة.

- يا إلهي! أحقًا حاولت نرجس الانتحار؟ ولماذا فعلت هذا؟
- منذ داهمها ذلك الوحش الكاسر، وأشعل في جسدها نيران
الرغبة، راحت تبحث عمّن يطفئها، وتذيقه تكوينات غوايتها، ثم
تتلذذ بمشاهدته يكتوي بنفورها، وإحجامها، وتشهر في وجه كل
الشباب أسلحتها الفتّاكة، وتنصب لهم الشراك، فلا يفلت من براثن
أنوثتها أحد، فقد آلت على نفسها أن تنقطع للغواية، ثم الانتقام.

انتبه الطبيب إلى ما قالته نيروز، فجحظت عيناه، وتساءل في
دهشة:

- أتقصدين أنّها أقامت علاقات مع آخرين؟

لاذت نيروز بالصمت، ولم تجب، فأعاد الطبيب سؤاله،
وانتظر في حيرة لهنيهة، حين استأنفت نيروز قائلة:

- لا، فقد كان الأمر مجرد خيالات داهمتها بين الفينة والفينة،
فكانت تختلق حكايات الغرام، وتسردها على مسمعي، ثم تنكرها
في اليوم التالي.

-ولماذا لم تحاول أن تجد الحب الحقيقي؟

-لقد أرادت أن تنتقم من نفسها، ولنفسها، فأبغضت الحب، وناصبت جسدها العدا، حتّى جاء هذا الشيخ الصوفي، لم تستطع أن تقاوم شهوتها لرؤيته، فقد اعتادت أن تنتظره كل أمسية، وكلّها شغف ورغبة في مؤانسته، وفي إحدى الأمسيات، رأيته تذرّع الغرفة ذهاباً وإياباً، وهي ترتجف خيفة، وينتفض جسدها من منبته، حين يثب إلى خيالها المهيف الجناح ما قد يحدث.

بغته شعرتُ بمزلاج الباب، ووقع خطواته، وهو يدلف إلى الغرفة على رؤوس أصابع قدميه، فانتابتني رجفة باردة، وتسمّرتُ في مكاني، ولم أفق من صدمتي إلّا حين اقترب من نرجس، وهمس في أذنها بكلمات الغزل، ومدّ يده ليعبث بكل جزء من جسدها الذي أصابته حمى مفاجئة رغم برودة الغرفة، جعل يلثم كل جزء من جسدها، من رأسها حتى أخمص قدميها بأنفاسه الساخنة، وقد تسمّرت قدماي في الأرض وعقد الفرع لساني.

-ولماذا لم تمدي لها يد العون، وتقاومي ما يفعله الشيخ؟

لم تجب نيروز، واستكملت، كما لو أنّها لم تستمع لسؤاله،

قائلة:



- ظننت بعدها أنه سيضاجعها كما أخبرتني من قبل، ولكن...

-(في حيرة) ماذا حدث؟

- أجلسها فوق فخذي، فبدت كأنها تجلس فوق الهواء، فقد كنت أرى كل شيء عبر جسده الشفاف، ثم راح يداعب وجنتيها، ويعبث بأصابعه في شعرها الأسود، ثم قال في حنو:

- افتقدتك كثيرًا، يا صغيرتي، لقد جئتُك وكلِّي شوق، لأحدثك عن لهيب العشق الذي اكتوى به الفؤاد.
- «أحقًا تعشقني؟» قالت نرجس في تشوّف.

- ما حيلة العبد والأقدار جارية عليه في كل حال، ألقيني في اليم مكتوفًا، وقالت لي: إياك إياك، أن تبتل بالماء!

فجأة انفتحت دلفتي نافذة الغرفة، كأن يدًا خفية قد دفعتهما دفعًا من الخارج، فانتفض الطيب، وظلّ محدّدًا في توجُّس في النافذة التي لاطمت الجدار، لم تحرّك نيروز ساكنًا رغم ذلك، وكأنها لم تسمع ذلك الصخب، ثم استأنفت قائلة:

- كانت نرجس تقول لي دائمًا أنها لم تعلم بأنوثتها إلا حين جاءها ذلك الشيخ، كالمرید إلى مولاه.

- ولكنك تقولين أنها كانت تستمتع برؤية جسدها في المرأة، وتتفنّن في غواية الآخرين.



-لأنَّها أرادت أن تثبت لنفسها أنَّ لجسدها قيمة، فكثيرًا ما كانت تخجل منه.

-نيروز، أرى أنَّك لا تصفين مشاعر أختكِ بدقة كافية.

-لقد شعرت نرجس دائمًا بالخجل من كونها أنثى، ويكفي أنَّ أبي قد أصرَّ على إجراء جراحة لها وحدها، واجتثاث التواء الذي سبَّب إزعاجًا شديدًا له، فشَبَّت وهي تؤمن أنَّ ثمة خطأ ما في كونها أنثى، وأنَّ عليها أن تخفي عن الأعين هذا الجسد الذي وشمها بالعار إلى الأبد. وكم من مرة عاقبها أبي حين رآها تلعب مع الفتیان في الشارع، أو تتحدث إلى أحدهم من الشرفة، دون إبداء سبب واضح.

-وماذا عنك أنت، يا نيروز؟ ألم يفعل أبوك بكِ هذا أيضًا؟

-بلى، فقد كان دائمًا يحذرنا قائلاً: «من العيب أن نتحدثا إلى الفتیان. أنتما بنتان، ألا تدركان ذلك؟»، لم تدرك نرجس ذلك في حينه. وبَختها أمي ذات مرة، حين كشفت بعفوية عن جزء من جسدها الفائر، فقالت متوعِّدة: «الويل لكِ لو رأيتهُ تكشفين بقصد أو بدون قصد عن جزء من جسدكِ على الملأ هكذا». اعتقدتُ نرجس في سن مبكرة أنَّ أنوثتها شيء يدعو للخزي، فكانت تحقد



على الفتیان، وتبتغي لو عادت إلى بطن أمي، ثم جاءت إلى الدنيا
ذكرًا، كانت ترى جسدها جرحًا مغلقًا على صديد، حتَّى أنَّها
تشبَّهت بالفتیان كثيرًا في ملبسهم، وحاولت جهدها وهي طفلة أن
تبدو مثلهم!

توقَّفت نيروز عن الكلام، وأغمضت عينيها وكأنَّها قد
سقطت في غفوة مفاجئة، بغتة، هبَّت من غفوتها، واستوت جالسة
فوق الأريكة، وراحت تنظر بعينين جاحظتين ذات اليمين وذات
الشمال، ثم قالت في ذعر:

- هل هناك أحد غيرنا في الغرفة؟

أصابته الدهشة الطيب، فراح رُغمًا عنه يرسل ناظره في
أركان الغرفة، كمن يبحث عن أحد، ثم قال:

- لا، يا نيروز، لا أحد. لماذا تقولين هذا؟

- لقد سمعت صوت نشيج، كما لطفل يبكي.

- ماذا؟ طفل يبكي!

- نعم، وصوت تواشيح أو ابتهالات تأتي من بعيد.

ظَلَّ الطيب يحدِّق بصره في الغرفة، ثم راح يدوِّن بعصبية
بعض الملاحظات، ثم قال:



-أنا لا أسمع شيئاً، على آية حال، استمري، وأخبريني بما حدث بينهما بعد ذلك.

-أجلس الشيخ نرجس فوق الفراش، ثمّ قام بتلاوة الآية السابعة عشر من سورة الشورى، وأعطى نرجس لفافة، وقال لها وقد استبدّ به حزنٍ عجيب.

-أريدك أن تحتفظي بتلك اللفافة لثلاثة أيّام، في اليوم الأول تمتنعين عن الطعام والشراب، وفي اليوم الثاني تمتنعين عن الكلام، وفي اليوم الثالث تمتنعين عن النوم حتّى آتي إليك.

-وهل فعلت نرجس هذا؟ وهل جاء ذلك الشيخ بعد ثلاثة أيام حقاً؟

لم تجب نيروز، وراحت تتقلّب فوق الأريكة وتئن كالمحتضر، فاستوقفها الطبيب، وقال:

-حسنًا، يا نيروز، لقد اكتفيت بما أخبرتني به اليوم، لنا الأسبوع القادم لقاء آخر.

الفصل السادس



«أدعوك بل أنت ندعوني إليك فهل .. ناديت
إياك أم ناديت إيمائي؟، يا عين عين وجودي يا مدى
هممي .. يا منطقي وعباراتي وإيمائي»

حين عادت إلى العيادة، كانت نيروز ترتدي ثوباً فضفاضاً
شفيفاً يكشف عن مواطن الأنوثة في جسدها الممشوق، وبين
أهدابها تلمع عيناها كأنهما زمردتان شدتا إلى حلية من ذهب،
وساقاها اللتان تكشفتا أسفل ثوبها القصير بدتا كامرأتين لعوبتين.
كانت تبدو كوليمة جنسية، تنتظر من يهيم بتناولها. لم تجلس فوق
الأريكة كما اعتادت، ولم تقتعد كرسيًا، بل جلست فوق حافة
مكتب الطبيب، وراحت تنزلق رويدًا رويدًا حتى كادت تقتعد
فخذه. راحت تحملق في وجهه لبرهة، وهو ينظر إليها بعينين
واجمتين، ولا يحرك ساكنًا. بغتة تمددت فوق المكتب وكشفت



عن أعلى ثدييها النافرين، وأرسلت ناظريها إلى سقف الغرفة، ثم
بادرته قائلة:

«لقد كانت أختي نرجس عاهرة؟»

مبهوتاً مذهولاً، حاول الطبيب أن يتفادى نظرات عينيها
الجريئتين، واللتين انقلبتا من قطعتي فحم سوداوين باردتين
إلى جمرتين حمرأوين ملتهبتين، ثم تراجع في مقعده كي يتفادى
ملامسة نهديها، وقال مستفسراً:

-حقاً! لماذا تعتقدين ذلك، يا نيروز؟

راحت نيروز تتمطى في دلال وميوعة فوق المكتب، فقفز
الطبيب من مقعده، وحاول أن يقنعها بالجلوس فوق الأريكة،
ولكنها أبت إلا أن تحاوط مقعده بجسدها المثير، ثم أضافت:

-لأنها كانت تتلذذ بما يفعله بها.

-أتقصدين الشيخ خميس؟

-لا، بل زائر الليل، شيخها الذي يأتيها من العالم الآخر.

-وماذا كانت تفعل حتى تظنين هذا بها؟

-كانت تتزيّن وتتجمل للقائه كل ليلة، وتستبطئ قدومه،
وتستعذب كلامه وأفعاله بها.



غمرت الطيب الدهشة ولفته الحيرة، فقال مستوضحًا.

- ألم تخبريني أنها كانت تصاب بالذعر مع كل زيارة؟

- بلى، ولكن مع الوقت ترنّحت من عشقه أعطاها، وبادلته حبًا بحبّ، وكانت تستقبل كل ما يمنحها بسعادة، دون مواراة أو اكتنام، كالطفل الذي يختبر كل الأشياء بمذاقها في فمه.

بغته انطفأت جذوة نيروز، وخبا لهيب حديثها، وتراجعت نشوة الكلام في حلقتها، كالموجة المتقهقرة عن الشاطئ، فتمدّدت فوق الأريكة، واستغرقت في البكاء.

اقترب الطيب منها، وربّت على كتفها، ثم جلس في مقعد إلى جوارها، وقال مواسيًا.

- أخبريني بما حدث لرجس بعد لقائها الأخير بالشيخ.

- في اليوم الأول امتنعت نرجس عن الطعام كما أخبرها الشيخ، وجلست وحدها في غرفتها في انتظار مجيئه، كانت واهنة يؤرقها السهر والجوع حين جاء بعد منتصف تلك الليلة.

اعتدل الطيب في جلسته، وأمسك بقلمه وراح يدوّن الملاحظات في دفتره، حين استطردت نيروز قائلة:

- كان الليل بهيمًا، وكانت نرجس تجلس في غرفتها المظلمة



في صمت مطبق، لم تدر وقتئذ أنني كنت أراقبها من خلف نافذة الشرفة، وهي تتمم بكلمات مبهمه، وترفع يديها في الهواء، كمن يجأ بالدعاء، وتبكي كالطفل. تملكّت جسدها رجفة، فراحت ترتعش وقد تهدّج صوتها حتّى ظننتُ أنّها قد فقدت النطق أو كادت. لم تمض ثوان حين بزغ نور خافت في الغرفة، فهبّت نرجس منتصبه، وراحت تدور بجسدها في الغرفة، كأنّها كال دراويش، ترقص رقصة سماع، ثمّ توقفت، واحتضنت الهواء بذراعيها، وهي تهمس قائلة.

«اشتقت إليك كثيراً. لماذا تأخرت هكذا؟»

رحت أنظر يمينه ويسرة بحثاً عن الشيخ الذي تحدّثه، فلم أر أحداً. ظننت لو هلة أنّها قد فقدت صوابها بالفعل، ولكنّ فرائصي ارتعدت حين طرق أذني صوت الشيخ دون أن أراه، كان يقول بصوت يتردّد كالصدى:

«جئتُك محمّلاً بأزهار الشوق المتقد مثل نيران الزرادشت، وأحجّ إليك يا كعبي المصغرة».

تراءى الشيخ رويداً رويداً لعينيّ، مثل صورة أثناء تحميضها، ودنا من نرجس وحاوط خصرها بيديه، ثمّ قبّل جبينها في حنو،



فابتسمت وقالت:

«أخبرني أكثر عن نفسك، يا شيخي»

«ماذا يمكن أن أخبرك عن نفسي سوى أنني المتيّم الذي قاتله

العشق، وضمّرت له الأيام الشر، وبيّنت له الأقدار أسوأ النوايا؟

لقد كان القلب نسرًا حين كانت الحياة شجرة مورقة، منطلقًا،

ثاقب البصر، مرتفع الأمنيات، ممتد الجناحين، لا يغالبه في السماء

رعدًا أو برقًا أو مطر، كانت الأيام أبراج حمام، أضحت أنقاضًا

تسكنها الوطاويط والبوم، كنت دائمًا أغنيّ للغد القادم وأنتظر

شمسه البرتقالية مثل الطفل الأول لأب طاعن في السن. صرت

أنظر للحياة نظرة المحتضر وهو يحاول أن ينطق الشهادة قبل أن

يلفظ أنفاسه الأخيرة، وربّما يموت دونها».

تعلّقت نرجس برقبته بذراعيها في دلال، وقالت:

«لا تتركني هنا وحدي، أريد أن أذهب معك حيثما تكون.»

«ليس للأحياء مرقد حيث أبيت، ولا لجميلة كأحلام الفنان

وأوهام الشعراء مثلك مكان هناك».

أطلقت نرجس لفورها سراح عنقه، وتراجعت في قلق، وهي

تحدّق في وجهه اللامع المضيء، وقالت:



«هل تعني أنك لن تصحبني معك، لقد وعدتني، ألم تخبرني
أن أمتنع عن الطعام والكلام والنوم كي تأخذني معك؟»
«ولكنّ الأيام الثلاثة لم تنته بعد؟»

«وماذا في اللفافة التي أعطيتني إيّاها؟»
مدّت نرجس يدها إلى اللفافة، وكادت أن تفضّها حين
استوقفها الشيخ في اضطراب قائلاً:
«لا، ليس الآن!»

«لماذا؟»
«لأنني أريد أن أبقى إلى جوارك».
لم تع نرجس مغزى القول، ولم أستطع أن أستوعب كلماته،
فوقفتُ واجمة أراقبهما. اقتربت نرجس من الشيخ، وقالت في رقة
واستعطاف:

«أحبك، وأريد أن أذهب معك إلى عالمك».
«لم يحن الوقت بعد، يا صغيرتي».
«لا تتركني لأحزاني وحدي، ولا تدعني لأشباح الأسي
تجوس في نفسي».



«الحياة لا تحزن على من يفارقها، يا عزيزتي. هل تكابد السماء الشقاء من فقدان قلب ينبض؟ قاتلو جسدي كانوا مجاهدين وكنت أنا الشهيد، ولكن، حتى الشهداء يُنسَوْنَ، ولا يبقى من ذكراهم سوى اسم شارع أو زقاق أو ميدان في عنوان فوق رسالة، وإن كان الشهيد من أصحاب البطش صار تمثالاً يزيّن ساحة أو نافورة مياه وسط ميدان شاسع! يبدو أن أحداً لم يحزن على موته ولن يحزن أحد، فالجميع أسرى خوفهم، والموت نفسه أعزل، يهاب المواجهة. وما أقطع من الموت سوى مصادرة الأحرار، وفرض حظر التجوال على أرواح من ماتوا!!».

قالت نيروز هذا ثم انتصبت واقفة، واقتربت من الطبيب، ثم مالت نحوه بجذعها، وراحت تغمره بنظرات ولهة غير هيّابة، وعطرها المثير يملأ خياشيمه. جعلت تطوف حوله، وتداعب جسده بأطراف أصابعها، وهو يجلس دون حراك. لم يعتد من مرضاه من النساء على مثل تلك المشاعر المتوثبة المؤقتة، والتي تنتهي بمجرد أن تنال المريضة الشفاء، كما في حالة «أنا، مريضة فرويد الشهيرة». حاول أن يعيدها إلى صوابها، فطلب منها أن ترقد فوق الأريكة لتستكمل حكايتها، فباغتته ووثبت فوقه، وطوّقت عنقه بذراعيها، ولثّمت فمه بقبلاها الحارة، وهو يحاول أن يكبح



جماحها دون جدوى، تركته فوق مقعده الذي سقط على الأرض من قوة وثبتها، وتوجَّهت إلى الأريكة، لدهشة الطبيب، جعلت نيروز تخلع ثيابها قطعة قطعة وهي ترمقه بعينين تبرقان شقاوة.

شعر الطبيب بهسيس الغليان يسري في دمه، حتَّى جف اللعاب في حلقة، وكاد أن يتلع لسانه، وهو يحاول أن يعي ما تفعله نيروز. هرع إليها ومنعها من خلع ثيابها، فجلست القرفصاء، ثم ركعت على ركبتيهما وزحفت نحوه في ليونة وثيدة مغرية، وقد ارتعدت فرائصه، وكاد أن يطلق صرخة في وجهها. انحنت على يده الممسكة بالقلم، وقبَّلتها كأنه البابا الذي يمنح الغفران، ثم نظرت في عينيه نظرات مرقدة مذيبة كالخمر، تغوص إلى آماذ سحيقة. كانت تعابثه بيديها وهو يبدي مقاومة واهنة، وكأنَّه لا يمتلك رفاهية الرفض. ازدادت نهماً وانفتحت شهيتها أكثر كلما أبدى مقاومة لها، فمرَّرت يدها فوق صدره، وحاولت أن تفكَّ أزرار قميصه، وهي تلعق بلسانها أطراف شفيتها. شدَّ الطبيب جسده كالسيف بغتة، ودفعها، فسقطت على الأرض. حدجته بنظرة معاتبة يشوبها دلع مثير، ومطَّت شفيتها، وقطبت حاجبيها في دلال. حاولت أن تعيد المحاولة، فجاءت نحوه تخطو على أربع، وقد كشفت عن أشرس مواطن الفتنة في جسدها. استوقفها الطبيب، وقال في غضب:



-كفى، يا نيروز. لم أعد أستطيع أن أتحمّل ترهاتك
واندفاعك.

راحت نيروز تموء كالقطط، وهي تزحف نحوه على أربع، ثم
طفقت تقول:

-ألا تريد أن تعرف ما فعله الشيخ بأختي؟

-بلى، ولكن قولاً، لا فعلاً.

-حسنًا. سوف أخبرك.

استوت نيروز جالسة على أرض العيادة، وتطلّعت بناظرها
إلى الطبيب الذى استبد به الحنق والاضطراب، واستأنفت:
-لقد ضاجعها أمام ناظريّ.

لم ينبس الطبيب بكلمة، فأضافت نيروز، وهي ترمقه بنظرات
جريئة نافذة:

-خلع عن جسدها الثياب قطعة قطعة، ثم حملها كما تحمل
القطّة صغارها، وألقى بها فوق الفراش.

ازدادت حدة الاضطراب على وجه الطبيب، حين ظنّ أن
نيروز تتلاعب به، فاستوقفها في غضب وقال:

-كفى هراء، يا نيروز.



امتعض وجه نيروز، وهي تنظر في وجه الطبيب المتجهم، ثم
ترامقاً لهنيهة، قبل أن تبادره في هدوء قائلة:

- هذا ما حدث.

لاذ الطبيب بالصمت ملياً، قبل أن يطلب منها أن تستكمل
حكايتها.

استوت على ساقها لفورها، وهي تبدي حشمة مصطنعة،
وكأنها تشعر بالخزي من رفضه لها، فراحت تحدّق في وجهه في
غضب، وقد أشاح به بعيداً عنها. كانت مثل إبريق ينز أزيماً ويرسل
من جوفه سحباً وذوائب من بخار ساخن. عدّلت من ثيابها،
وجلست فوق الأريكة في صمت مطبق، شعر الطبيب بالاستياء
بعدما تكشّفت له حالة نيروز المضطربة، مثل خصل سحب يتبدّد
رويداً رويداً. لقد شقّت أختها نرجس لغريزتها طريقاً غير الذي كان
حرى بها أن تسير فيه، وفي ثورة من الغضب لما شعرت نيروز به من
إحباط صاحت قائلة:

- لا أحد يصدقني، لا أحد.

ثم أجهشت بالبكاء.

اقترب الطبيب منها، وانحنى بجذعه، وربت على يدها، وقال



مواسياً:

-معدرة، يا نيروز أعتقد أنني أسأت الظن قليلاً، أنا أصدقك
بالطبع أرجوك أن تكملني حديثك.

وبعد تردد، جففت نيروز دموعها، وقالت بصوت ملؤه
النشيج.

-قلت لك أنه ضاجعها لساعات، حتى كدت أن أصرخ في
وجهه ليركها، ولكن الكلمات تجمدت في حنجرتي.
-حسناً، وماذا حدث بعد هذا؟

-جلس الاثنان يتبادلان أطراف الحوار في الفراش، كان
الشيخ يقول لها:

«قد يرى كلُّ منّا الأيام ملساءً مستقيمة مثل شريط قطار،
ولكن حذار، فلا أمان للقدر، والموت قد يأتي في هذه اللحظة.
وإن كنت مثل الأطفال، لديك ولع الاستخفاء، فلن يضل الموت
طريقه إليك، وسوف يجدك لا محالة، الحياة نفسها شجرة شائخة،
يا صغيرتي، وأنت مجرد فرع أصفر فيها، مآلك للسقوط، فلا بد أن
تجترئي على القدر، ولا تنتظري حتى ينفرط عقد الأيام فتجدين
نفسك وجهًا لوجه أمام الموت.



عالم الواقع قاسٍ مرير تتقَصَّف سهامنا أمامه، وقائمة الأحران التي يعدّها لكل واحد منّا لا تنتهي، لا يستطيع أحد أن يمدّ أنظاره إلى أبعد من أنفه، فلا تدعي الحياة تهزم فيك الإرادة، فتخرجين منها خالية الوفاض، كل من يسمع هذه الكلمات ولا يبادر بقتال إله الشر فسوف تخمد هذه الكلمات أنفاسه حتّى تفيض روحه، وتصبح حياته صفحات بين طيّات كتاب قديم. سوف تفتّ السطور في عضده كالجراثيم، وتُلقي به على قارعة الطريق مشخّناً بجراحه. لا تخشى الهزيمة في هذه المعركة، فهي انتصار على النفس. هي نواميس سرمدية، ولا يمكن أن تراوغيها، وسوف تترك معركتك معها جراحًا لا تندمل. وعليك أن تفعل كما أمرك، وتتبع خطواتي، لا تدعي كلمة أقولها لك دون أن تعي مغزاها، وإن لم تفعل هذا فسوف تصابين بأرق قميء، وكوابيس كسلاسل من حديد لا تستطيعين الفكّك منها، وبعدها يأتيك موت أسود يقنص روحك، وتهيمن في الدنيا مثلي، كالأشباح.

ران الصمت لبرهة، حين توقفت نيروز عن الكلام، وراحت تنظر بعينين جاحظتين نحو الشرفة، ثم انتصبت واقفة، ولوّحت بيدها في الهواء، كمن يزيح ستارًا يحجب الرؤية، ثم ابتسمت وقالت:

-مرحبًا، أيها الشيخ!

الفصل السابع



«ولا ذكرتكَ محزونًا ولا فرحًا.. إلَّا وأنتِ بقلبي
بين وسواسي، ولا هممت بشرب الماء من عطشي.. إلَّا
رأيتُ خيالًا منك في الكأس.»

ظلَّ الطبيب في حيرة ينقل ناظريه بين وجه نيروز المنفرجة
أساريه، وبين الفراغ الذي تحديق فيه في وله وتشوَّف، اقترب في
حذر منها، وساءلها بصوت خفيض، كأنَّه يخشى أن يثير حفيظة
الشيء أو الكائن الذي تتحدَّث إليه، وقال مستفسرًا:

-نيروز، إلى من تتحدثين؟

لم تجب نيروز لوهلة، وظلَّت تحمق في الفراغ في سرور
مشرق، ثم تحرَّكت دون أن تنبس نحو الشرفة، كأنَّما قد سحبتها
أذرع موج هادر، مقيِّدة بوثق لم يكن في طاقتها أن تتحرَّر منه.
استوقفها الطبيب بيده في رفق، وأعاد استفسارها:



-نيروز، ماذا بك؟ إلى من تتطلّعين؟

رمقته نيروز بنظرة جانبية خاطفة، ثمّ عادت لتتفرّس في الفراغ أمامها، وهي تتمتم:

-إنّه هو.

-من؟

-إنّه مولاي.

شعرت نيروز بنسمات الهواء تداعب شعرها الذي تهدّل على كتفيها، فتماوجت خصلاته مليّاً، ثم رفعت نيروز يدها وأمسكت بشيء بدا كاليد الممدودة لعينيها، وهي تقترب رويداً من وجهها، فاحتضنتها نيروز بوجنتها وأغمضت عينيها لتبدو كمن تنام ملء جفونها، وقالت في استحسان باذخ:

-كم هي حانية يداك، يا مولاي.

أدرك الطبيب أنّ نوبة من الهذيان قد داهمت نيروز، ورغم ما رابه من أمرها، لم يحاول أن ينتهرها راح يدوّن بعض الملاحظات، ثمّ دنا منها وقال كمن يريد أن يشاطرها لحظاتها السعيدة تلك، قائلاً:

-هل يمكنني أن أراه مثلك؟

-لا أظن ذلك بين العاشق ومعشوقته دنيا لا يطالعهما سواهما



يا طيب، مولاي لا يراه إلا من يهوى، ولا يتحدث إلا إلى من كان
في صدره قلب.

-هل قال لك هذا للتو؟

-نعم.

راح الطيب يدوّن ما تقوله نيروز في فضول مشبوب، وهو
على يقين أنّها هلاوس سمعية وبصرية، ثم استأنف قائلاً:

-حسنًا، وماذا قال أيضًا؟

لاذت نيروز بصمت مؤقت، كمن تتلقى الكلمات، وتعيد
تكرارها، ثم استطردت، متسعة الشدقين من فرط السعادة.

-يقول أنّه قد جاب البلاد وخاض صراعات وعبر البحار كي
يراني أنا.

-يرالك أنت؟

-نعم.

-وكيف هذا؟ أليس الشيخ عاشق أختك نرجس؟

لم تنبس نيروز بكلمة، وظلّت منفرجة الأسارير تعلّق ناظرها
في الفراغ أمامها، فأضاف الطيب.



-نيروز، ألم تخبريني أنه يعيش نرجس، فكيف يخونها ويقع في غرامك أنت؟

-مولاي لا يعرف الخيانة، ولكنَّ لقلبه فروعًا كالشجر، وثمارًا لا يتذوقها سوى من يملك روحًا نقيّة. العشق مذهبه، وكلماته الصلوات وصمته شعائر.

ابتسم الطبيب في تهكُّم، وقال وهو يحاول أن يغالب الضحكة التي كادت أن تنفلت من بين شفتيه:

-إذن، هل يمكنني أن أتحدّث إليه عن طريقك؟

ران صمت لبرهة، ونيروز ما تزال تنصت إلى صوت غير مسموع، وتحلّق في وجه غير مرئي.

-يقول مولاي أنه لا يبتغي التحدّث إلى بشر، فلا بد لظمئه من ماء قراح، لم تذقه شفاه قط، هو لم يعد يكثر لعالم يصفق قومه للدماء المراقبة، ويهلّلون للكراهية والحقّد. مولاي لم يعد من هذا العالم، ولم يكن قط. كان ينشد في عالمنا الارتواء، فلم يجد إلّا الظمأ، ويشتهي العشق، فلم يجد سوى البغضاء.

بغته توقّفت نيروز عن الكلام، ومدّت يدها كأنّها تتناول شيئًا ما، ثمّ قالت، مخاطبة الهواء:



- ما هذا، يا مولاي؟

ضَيَّقَ الطبيب ما بين حاجبيه، وأمعن النظر في يد نيروز، كمن ينظر من خلف زجاج مغبَّش، لا يسمح سوى بنصف رؤية، ثمَّ استوضحها في حيرة رغم نبرة السخرية في صوته، قائلاً:

- ماذا أعطاكِ، يا نيروز؟

التفتت نيروز نحو الطبيب وزوت ما بين عينيها في ضيق، كأنَّما قد استفسر عن أمر واضح جلي، وقالت:

- ألا ترى، يا طبيب؟ إِنَّه كتاب.

ثمَّ عادت، وصَوَّبَت بصرها نحو الوجه اللامرئي، وقالت في وداعة وانضاع:

- مولاي، ما هذا الكتاب؟

ساد الصمت لهنيهة، كأنَّها تتلقى الجواب، ثمَّ استأنفت:

- ولكنتني أخاف، يا مولاي، من الحروف، وأخشى الورق، وأرتجف لرؤية السطور، وإن تكن بيضاء ترتعد فرائصي كلَّما رأيت كتابًا، وأفرَّ دائمًا من أمام أرفف الكتب.

ران صمت جديد، ثمَّ قالت:

- المعرفة؟ لقد كانت المعرفة فيما مضى طعامًا يلهث في



سبيلها عقلي، ولكنها قد صارت شبحاً يراود أحلامي ويقض مضجعي، أصبحت القراءة لعنة تطاردني، فلا أستطيع أن أتصل منها، ولا أن أغمض عيني عن حروف وكلمات تستقر فيهما مثل خناجر، فتصيب نفسي بطعنات نافذة.

ساد الصمت.... ثم استأنفت.

-ليتني أستطيع، يا مولاي، أن ألوذ بالفرار من عالم الأذهان الذي يسومني سوء العذاب إلى عالم الأعيان، ولكن كيف أستطيع أن أتبرأ من ذاتي، وأغالب نوازع نفسي؟ كما أن أحداً لا يستطيع أن يصبح قديساً بعيداً عن الله، كذلك لا يقدر أحد أن يتنصر على جسده وهو يخشى الروح الساكنة فيه، يا مولاي.

ران صمت طويل، بينما وقف الطبيب يتابع ما يدور من حوار كأنه مونولوج بين نيروز والكائن الخفي الذي يقف قبالتها. قرّر أخيراً أن يقاطع ذلك الحوار الانفرادي، وقال في استياء:

-يكفي هذا، يا نيروز عودي إلى الأريكة الآن حتى نتابع....

لم يكد يكمل عبارته حين شعر بتيار هواء شديد، يلاطم باب الشرفة، ويناطح جدران الغرفة، جحظت عينا الطبيب في دعر، وراح يقلّب ناظريه في أركان الغرفة بحثاً عن مصدر التيار، حين



ترامى إلى مسمعه صوت غليظ، يتردد في الغرفة كأصداء صرخات بعيدة، والتفت ليجد نيروز تحديق في وجهه بعينين متسعيتين مخيفتين، وقد سرت في وجهها حمرة خافتة، ثم جعلت تدور وترقص كأنها مشعل يدور حول نفسه، مذعورًا، تسمّر الطبيب في مكانه، غير مصدق لما يحدث.

توقفت نيروز عن الرقص، واقتربت من الطبيب، ثم فتحت فاهها، وتفوّهت بكلمات عجيبة، وقد تغيرت نبرة صوتها واكتست بغلاظة وقوة، شأن صوت رجل طاعن في البلادة، مفوّه، وقالت.

-ماذا تريد أن تعرف، أيها الطبيب؟

تقبّضت من فرط الذعر غضون الطبيب، ولم ينبس ببنت شفة، فأضاف الصوت الغليظ من فم نيروز، التي تضرّج وجهها غضبًا، وأخذ نهداها يترجرجان مع تهدّج صدرها.

-هل تدري أنّ النبي داوود، في حماسه وشغفه الديني، كان يرقص أمام تابوت الرب في الهيكل؟ هكذا يفعل كل عاشق وامق، يا طبيب.

تراجع الطبيب من أمامها رويدًا، فتعثّر في الأريكة وتهالك فوقها، وقد ارتعدت فرائضه استطردت نيروز بصوتها العجيب،



وهي تكشف عن عري صدرها، وترمقه بعينين ساكنتين سكون المرأة.

- أنا شمعة تشتعل ولا تذوب. لقد ظنُّوا أنَّهم قاتلوا رُوحِي، ولكنَّهم لم يستطيعوا سوى أن ينالوا من الجسد، الروح لا تعرف الموت، يا صديق، ولكنَّها تنهدم من تلقائها حين يموت القلب. مرتجفًا، وقد تجمَّدت أعضاؤه أو كادت، حاول الطبيب أن يستدعي مخزون شجاعته، ثمَّ قال بصوت مرتعش.

- ماذا بك، يا نيروز؟ ما هذا الصوت؟ ماذا تريد من كل هذا؟

- أَلَمْ تدرك بعد؟ أنا لست نيروز، يا طبيب.

جاحظ العينين، رمق الطبيب نيروز بنظرة مدهوشة، وحاول أن يدفعها بعيدًا عنه، فأحسَّ بقبضة من حديد تمسك بيده، وتدفعها بقوة، حتَّى كاد يصرخ من الألم، شحب وجهه من فرط الرعب، فصار مثل رغيف لم يخبز بعد، التزم الصمت برغمه، وهو يكاد أن يفقد الوعي، حين استطردت نيروز بوجهها الغائم قائلة:

- لقد شغفتُ بها أيما شغف، فلا تحاول أن تردَّها عني.

كمن لم تبق في فمه شفتان، تمتم الطبيب في هلع:



-عَمَّنْ تَتَحَدَّثْ؟

-نيروز.

-أنا لا أفهم شيئاً، يا نيروز.

-قلت لك أنني لست نيروز.

تملّكت الطبيب الدهشة، فصوّب لوجهها نظرة استفهامية،
وتفوّه بكلمات متردّدة، كمن يخشى الجواب، قائلاً:

-إذن، من أنت؟

-أنا لوحة لفقرءاء، مصلوبة فوق جدار في قصر الخليفة، أنا
دمعة انسكبت برغمها لحظة الفرح، أنا من حاول عبثاً أن ينشر دين
العشق، في بلاد تحترف الكفر، أنا من أخبرتك حبيبي أنني هو.

-أتقصد أنّك الحلّاج؟

لم تتفوّه نيروز بكلمة، وأطلقت سراح جسد الطبيب من
تحتها، ثم انتصبت واقفة، واتجهت صوب الشرفة، فتنفس الطبيب
الصعداء، وهبَّ واقفاً، ذهب في أثرها، وخاطبها في اضطراب
وتردّد وهو يراقبها بنظرة فاترة مكدودة، وإن لم تخل من الرثاء
والعطف، قائلاً:

-إلى أين؟



أشارت نيروز إلى السماء، ثم استدارت ورشقتها بنظرة صامتة كأنها قد فقدت بصرها للتو، عادت إليها بغتة نبرتها الأنثوية الرقيقة، ولانت ملامحها، ثم همست في غبطة:

- لقد منحني مولاي الكتاب.

- أيّ كتاب؟

- يخبرني مولاي أنه كتاب لرجل هندي اسمه «هاريداسا ثاكور»، وهو «جورو»، من رجال الدين في الهندوسية، ومعناها في السنسكريتية الذي يطرد الظلام ويقود إلى النور، وقد أمهره بتوقيعه باللغة الأوردية، وهو عن سيرة حياته، وقد كتبها بعد موته. استرعى انتباه الطبيب الهدف الغامض للكتاب، وتعجب كيف يكتب أحدهم سيرته بعد الموت؟ كانت معلوماته عن الجورو في نصوص الفيدا الهندوسية تتلخص في أنه رجل دين ورع وزاهد في الحياة، وأتباعه دائماً يتخذونه رمزاً للآله «براهما». ظنّ الطبيب أنّ حالة من الهذيان قد أصابت نيروز مرة أخرى، ولكنها قالت في هدوء راسخ ولوعة خفيفة مكبوتة:

- إنّه كتاب للعشق، يتحدث عن شعائر وتعاليم روحية. يقول مولاي أنّه مقسم لأيام وشهور مثل روزنامة، في مقدمة الكتاب



سؤال: «لماذا الصراع على من يكون الأسوأ في هذا العالم؟ في

جحيم الحياة الأخرى متسع للجميع.»

-ولماذا أعطاك الشيخ هذا الكتاب؟

-يريدني أن أقرأه.

ثابت أخيراً إلى الطبيب الطمأنينة، واستردَّ رباطة جأشه،

وارتسمت على وجهه علامات الراحة والسكينة، فعاد يستفسر

نيروز في هدوء قائلاً:

-وما فحوى هذا الكتاب يا نيروز؟

- يقول مولاي أن الكتاب عبارة عن يوميات الجورو نفسه

وآخرين معه، وفيها يحكي ما سوف يحدث له ولأناس يعرفهم

بعد موتهم، حين يحلُّوا جميعاً في أجساد أخرى جزاءً لما فعلوه في

حياتهم الأولى، وكأنَّه يرسل برقيات من العالم الآخر إلى هؤلاء،

ويتنقل في كل يوم من اليوميات بين شخصيات مختلفة، وحيوات

متعددة، منها حياته هو نفسه بعد أن يحلَّ في جسد آخر.

-ومن هؤلاء الناس الذين يخاطبهم هذا الجورو؟

-يقول مولاي أن منهم رجلاً من طبقة السودرا، وهي أدنى

طبقة في الهندوسية، ويدعى «باسافا» والذي تناسخت روحه في



جسد قد بعد موته، وراح يعيث في الأرض فسادًا كما كان يفعل حين كان إنسانًا ولم يلتزم بتعاليم «الكارما». وهذا رجل من طبقة «الكشاتريا» يدعى «باهيناباي»، ويعمل في الشرطة، وقد تجسّدت روحه في ثعبان راح يروّع القرويين، ويقتل بسمه الزعاف الأطفال والنساء حتّى قام رجال القرية بمطاردته وقطع رأسه، فاندسّت روحه في جسد صرصور وحين تحدث الجورو عن حياته الأخرى بعد موته راح يسرد النعيم الذي يلقاه بعد أن عاش ناسكًا ومكرّسًا كل وقته لتنوير الآخرين ومساعدة الفقراء والمرضى، ويرى في ذلك مكان من سعادة البشر وفي النهاية استطاع أن يفلت من «السمسارا» وهي دائرة الموت والبعث، وتوحدت روحه مع البراهما الإله أخيرًا في عالم الأرواح:

-وما علاقة هذا بالعشق؟

-كل عشق عبادة، وكل عبادة عشق، يا سيدي.

زفر الطبيب في حيرة، واقترب من نيروز، التي وقفت في مكانها في الشرفة دون حراك، ثم ربت على يدها، وقال:

-نيروز، يا عزيزتي، أنت في حاجة للراحة الآن.

لم تحرك نيروز ساكنًا، ولم تنتبه لكلمات الطبيب، كأنّ طنينًا



قد ملأ أذنيها، وقد كسا ظلام تام كل شيء حولها، تحرّكت بعدها
في بطاء، كمن تخطو وسط رمال متحرّكة، ثمّ توقفت بغتة، ورمقت
الطبيب بنظرة مدعورة، ثمّ قالت:

-يقول مولاي أنّ حياتي بعد قراءة الكتاب لن تكون مثل
حياتي قبل ذلك، فهو مثل أجراس الكنائس، تصدح معلنة بإيقاعها
الحزين بدء أسبوع الآلام.



الفصل الثامن



«أصلبوني سأموت شهيداً وتعيشون مجاهدين»

دلف يوسف، زوج نيروز، ذو القامة الفارعة مثل وثن قديم، وبصحبه صديقه الطبيب النفسي سمير إلى المطعم الفاخر، ثم جلسا إلى طاولة منعزلة، أشعل يوسف سيجارة، وراح يزفر الدخان في أسي، حتى ظنَّ الطبيب أنه على وشك الصراخ، فبادره قائلاً:
- لا تفزع، يا يوسف، فما تعاني منه زوجتك ليس سوى أوهام وهلاوس سمعية وبصرية.

- ولكنني أخشى أن تفعل بنفسها ما فعلته أختها نرجس.

قطَّب الطبيب جبينه في حيرة، واستطرد مستفسراً:

- وماذا فعلت أختها بنفسها؟

انتبه يوسف إلى زلَّة لسانه، فاستدرك في اضطراب وقال:

- لا شيء، فقط لا أريدها أن تسقط فريسة لأوهامها، يا سمير.



لاذ الطبيب بالصمت ملياً، ثم ابتسم ذوب ابتسامة، واستأنف قائلاً:

- يوسف، أتريد حقاً أن تشفى زوجتك؟
- (في دهشة) أتمزح، يا سمير؟ بالطبع أريد ذلك.
- إذن، لا تخفي عني أي شيء، يا يوسف، مهما كان، وإلا فلا سبيل إلى علاجها.

ران الصمت لبرهة، وهما يترامقان، وقد كست وجه يوسف سحابة من التوتر، وبين إقدام وإحجام، زفر يوسف دخان سيجارته، حتى صار مثل غيمة تحاوط رأسيهما، ثم قال في أسى:
- حسناً، يا سمير رغم أنني قد أبرمت عهداً مع أخيها ألا أبوح بذلك السر لأحد، سوف أخبرك بالأمر، فلا يعنيني الآن سوى شفاء نيروز.

أوماً الطبيب برأسه في استحسان وحماس، حين أردف يوسف قائلاً:

- لقد قتلت نرجس أباه، ثم انتحرت.
فغر الطبيب فاه كمن صدمته فاجعة، ولم ينبس ببنت شفة، وظلّ يحدق في وجه يوسف، الذي أطرق برأسه ولم يتفوّه بكلمة.



ساد المكان سكون متحفّز، وانتظر الطبيب ملياً حتى يستأنف يوسف، ولكنه لم يفعل، فاستبطأه قائلاً:

- وكيف حدث ذلك، يا يوسف؟

- حدث ذلك قبل أن أتزوَّج نيروز بسنوات كنت حينئذ جاراً للأسرة، أقطن في منزل مقابل لمنزلهم في باب الشعرية، ولم يحدث أن تحدّثت إلى أحد منهم، لم أكن كدأب الآخرين مولعاً بالاختلاط بالجيران، ولم أعرف من الأسرة سوى رضا، أخو نيروز كنت دائماً أستمع إلى روايات متعدّدة عن نرجس، الفتاة المريضة نفسياً، ولكنني لم أعرف نوع المرض، فلم يبح رضا لي بشيء قط، ولم أحاول أن أستفسره. كنت أعلم أنّ له أختين، الصغيرة نرجس والكبيرة نيروز. تعرفت بعد ذلك على نيروز، ورغم توجّسي من الروايات التي سمعتها عن أختها المريضة، لم أستطع أن أغالب الحب الذي داهمني برغمي، فتوطّدت علاقتي بنيروز لم تبح نيروز بشيء عن أختها لي، سوى أنّها تعاني من حالة نفسية مؤقّنة، وقد صدقتها من فرط ثقتي بها وحبّي لها. تستطيع أن تقول إنني أردت أن أصدّقها.

أحسّ يوسف بحرارة عقب السيجارة بين إصبعيه، فقد كادت



أن تلفظ أنفاسها الأخيرة لم ينتظر طويلاً، وأخرج من علبة التبغ سيجارة أخرى، ثم أشعلها من عقب السيجارة المشتعل، وراح باضطراب وعنف يضغط على عقب السيجارة المحتضرة في المطفأة، كمن يحاول أن يكتم أنفاسها بيده، ثم استأنف قائلاً:

-وفي إحدى الأيام ترامى إلى مسامع الجيران جميعاً صرخات نرجس تدوي في المنزل، ثم انطلقت ضحكات مفزعة، رنّت في ذيلها نبرات بكاء مر حاول الكثيرون استفسار الأسرة عما كان يحدث، فلم يسمح الأب بذلك، وانتصب واقفاً في شرفة المنزل والدموع تترقرق في عينيه، وراح يطمئن الجميع قائلاً: معذرة، فابنتي نرجس تعاني من الصرع.

ولم تمض دقائق حين انطلقت صرخات نيروز، وهي تنادي على أبيها، وضحكات نرجس الهستيرية تلاطم جدران المنزل. أسلم يوسف لسانه لصمت مباغت، وظلّ يسكب ناظره على الأرض، شأن من يتأهب لاعتراف مشين، ثم استطرد قائلاً:

-قتلت نرجس أباهما بيدها.

امتعض وجه الطبيب، ولم يشح بوجهه بعيداً، حتّى تطلّع يوسف في وجهه، وقد أغرورقت عيناه بالدمع، ثم قال:



- ذبحت كالشاه.

- (في دهشة) ماذا؟

- أجل، نحرته بخنجر قديم، كانت تحتفظ به في لفافة.

لمعت عينا الطبيب بغتة كمن تذكر شيئاً ما، وقال:

- لفافة؟ أتقول لفافة؟

- نعم. لقد وجد رجال الشرطة لفافة من قماش، بدت عتيقة

جداً، وقد احتفظت نرجس بذلك الخنجر في تلك اللفافة.

- ومن أتى لها بتلك اللفافة وذلك الخنجر؟

- لا أحد يعرف ذلك.

- وماذا فعلوا بنرجس؟

- أودعوها مصحة نفسية، وظللت بعدها أتردد بصحبة نيروز

على المصحة حتى حدثت الفاجعة.

- ماذا حدث؟

- حين قمت بزيارتي الأخيرة لها بصحبة نيروز، راعني ما

رأيت كانت نرجس في حالة مزرية، فقد نحل جسدها وترهل فغدا

طيّات خاوية من الجلد، وشاب شعرها بغتة، وانفصل صوتها عن



جسدها الهزيل، فبدا غليظاً مخيفاً كانت عيناها غائرتين، كالدمية
المصنوعة من الشمع، وتلوّنت شفتاها وجسدها باللون الأزرق،
كغريقة طفت لتوّها من أعماق البحر أتدري، يا سمير؟ لم أستطع
حينئذ أن أغالب الدموع التي انسكبت برغمي، فقد ألفتها من قبل
ذلك فتاة بارعة الحسن، حافلة بالفتنة والبهجة.

- (في رثاء) ياللمسكينة!

- كانت نيروز وقتئذ تقف على الحد الفاصل بين العقل
والجنون، فلم تعد الفتاة المرحّة، ذات الوجه الصادح بالبشاشة.
رغم ذلك، لم تعن نيروز لحزنها، وظلّت تستجمع قواها لمساعدة
أختها، بعدما لفظها أخوها غضباً وخوفاً منها كانت نرجس
كالبركان الذي يبدو خامداً، ولكنّه يحتفظ في أعماقه بحجارة لم
يقذفها بعد. أحسست حينها أنّ السماء قد أغلقت قلبها في وجه
نرجس، ولم يعد هناك أمل في شفائها.

- وماذا عن أمها؟

رمق يوسف الطبيب بنظرة حسيرة، وأضاف في أسى:

- هذا ما أدركته فيما بعد.

- ماذا أدركت؟



- كانت الأم تعاني من مرض نفسي أيضًا.

- (في دهشة) حقًا؟

- نعم، وقد ماتت في المصحة النفسية.

- إذن فمرض نرجس وراثي؟

- (في حزن) نعم، وهذا ما أدركته بعد زواجي من نيروز.

- أنادم أنت، يا يوسف؟

- بالطبع لا، فأنا أحب نيروز، ولكنني لم أدرك أنّ حياتنا سويًا
ستصبح نموذجًا مصغّرًا للجحيم.

كمن فقد بغتة شهية الكلام وأصابته نوبة صمت، أطرق
يوسف برأسه، ولم ينبس ربت الطبيب على يده، حين أتى النادل،
يحمل قدحين من القهوة، ووضعهما على الطاولة، ثم انصرف
وهو يرمق يوسف بنظرة حائرة زفر يوسف في حزن، ثم استكمل
حديثه قائلاً:

- أثناء زيارتي الأخيرة لنرجس أدركت أنّ نهايتها وشيكة، وأنّ
مصير زوجتي نيروز إلى العذاب، فقد أحبّت أختها حبًّا جمًّا، ولم
يخطر ببالها أنّ نهايتها ستكون بتلك الفظاعة ما أصعب أن يربط
إنسان أفراحه وأتراحه بآخر، فيصبح فراقه حالة من فقدان شهية



الحياة لقد كان مرض نرجس نقطة ضعف نيروز.

ناول الطبيب يوسف قده القهوة، ثم ارتشف بعضاً من قدحه،
وقال مستوضحاً:

- أخبرني بما حدث لنرجس، يا يوسف.

- حين ذهبنا لرؤيتها في غرفتها بالمصححة كانت تقتعد كرسياً
وتحدق في السماء من نافذة صغيرة تسدها أسياخ حديدية، وكانت
تتمتم بكلمات مبهمه، وتئن كالطفل المذعور كانت تخاطب شيئاً
ما أمام ناظرها، فلم تنتبه لوجودنا، حتى دنت نيروز منها وقالت في
رفق: نرجس، حبيبي، أنا نيروز. لقد جئت لرؤيتك والتحدث معك.
التفتت نرجس إلينا، ورشقنا بعينين جاحظتين مخيفتين،
ثم ابتسمت في تهكم وقالت: لقد توضحأت نرجس وضوء الأنبياء،
وارتدت جسدي، ثم غادرت لتوها.

فغرت نيروز فاهها، واقتربت في حذر من نرجس، وهمست
قائلة: نرجس، حبيبي، لا تشقيني بكلماتك، فقد سأمني مرضك
سوء العذاب، ولم أعد أستطيع تحمّل رؤيتك هكذا.

هبت نرجس واقفة، فارتدت نيروز في ذعر للوراء، ثم أطلقت
نرجس ضحكة ساخرة، وقالت: لقد كانت نرجس كالعطر النائم



في جوف زهرته، وقد انسكبت أخيراً لقد صارت كاليمام، لا ينسى
تسايبحه أبداً، فدعوها وشأنها. لقد أنصت الإله لأناتها، ورأف
بحالها، فاصطفاه كالعذراء للرحيل والانعقاد.

صوّبت نيروز ناظريها إلى وجهي المحتقن في حيرة، كأنها
تستنجد بي من دهشتها، وزوت ما بين عينيها، ثم التفتت إلى
نرجس وقالت مواسية: لا عليك، يا حبيبي، فلن يصيبك أحد
بأذى بعد الآن سوف أظل إلى جوارك، ولن أبرح هذا المكان.

استدارت نرجس، ورفعت رأسها للسماء، ثم غمغت: قد
تهجر البلاد أراضيتها، ولكنّ العاشق مثل طير البحار، لا مهبط له
ولا ملجأ سوى المياه.

بغته صوّبت نرجس نظرة حادة كالسهم إلى عينيّ، كمن
أدركت من فورها وجودي في الغرفة، فنكصت عائدة إلى مقعدها،
كمن تتسلّح بالخوف في مواجهة شبح مرعب، وراحت تشيح
بوجهها يمنة ويسرة، وتلوّح بيدها في وجهي في نفور وفزع. وحين
استفسرت نيروز عن سبب ذعرها، هزّت منكبيها في حيرة.

فجأة ثابت إلى نرجس الطمأنينة، وعادت لهدوئها وأطلقت
ضحكة ساخرة مكتومة، وأشارت بيدها إلى وجهي، ثم انفجرت



في الضحك، وقالت: الحب كالخطيئة تمامًا، له وقار ورونق، يبدأ ثرثارًا، ثم يصاب بالخرس لا تحاول أن تخدعني بمعسول الكلمات، فلم يعد من العشق سوى فتات من مائدة العاشقين القدامى الحب كالخمر، صار معتقًا في قلب مولاي وحده، ولن يبرح هذا الصدر. لا تحاول أن تمدّ أصابعك في شروخ نفسي، فالحب هو سري القديم، وموتي هو البوح الأخير.

تملّكت الطيب رجفة، فاهتزّ القدح في يده، وكاد أن يسقط. اعتذر عن اضطرابه، وقال في حيرة.

-وماذا تظن كانت تقصد بكلماتها تلك، يا يوسف؟

-لا أدري، ولكنها بدت كفرس طال محبسه، وكاد أن يموت كمدًا. كانت كلماتها كاللّهات، حتّى كدت أجزم أنّها تحتضر. ما هالني هو ذلك الصوت الغليظ الذي لفظته حنجرتها. لقد بدت نرجس كالنخيل الذي شاخ، دون أن يعرف طعم البلح.

-يا إلهي! وماذا حدث بعد ذلك؟

-بغته تهالكت على الأرض كمن سقط في بئر وظلّ يتخبّط في جدرانهِ أسرعَ نيروز وأمسكت بها، فسقطتا معًا، ثمّ افترشتا الأرض لبرهة حاولت نيروز مواساتها، فجعلت تداعب شعرها



الذي تجعّد من شيب مبكّر، وتمسح عن جبهتها العرق، حين انتفضت نرجس، ولوّحت بيدها في الهواء كمن يودّع مسافرًا، ثم انتصبت واقفة، تحملها ذراعا نيروز. أبرقت فوق شفتيها ابتسامة رائقة وقالت هامسة: لقد أغمضت على وجهك عيني، فلن أرى أحدًا سواك، فالظلمة في حضرة عينيك نور باهر.

-إلى من كانت تتحدّث؟

-لا أحد! ظللنا أنا ونيروز نرمقها بنظرة داهشة، فأضافت: مؤرقة بالرجاء ومثقلة بالحنين، فمن يستطيع أن يعيش في هذا الزمان ولا يتحجّر قلبه؟ لا تتركني لقسوة الزمان، يا مولاي. دعني أستمع إليك وأنت تواصل تدوين كلماتك في صدري حرفًا حرفًا، وهي تدوي في نفسي كلذيق الطعام، تترك فوق المناضد أشهى الروائح. أرجوك، يا مولاي، يا من تربكني بغيابك، وتبهرنني بحضورك، دعني أرافقك، ولا تتخلي عن مجد شهادتي.

ظلت تتحدّث إلى الفراغ طيلة الزيارة، ولكننا لم نكثرث لذلك، رغم التوجس والقلق اللذين استبدا بنيروز. غادرناها وكلنا أسي كمن يخطوان على أطراف جرح لا يندمل، فلم تستطع نيروز مدارة توترها، رغم محاولاتي المضنية كي أخفّف من وطأة الأمر عليها.



وبينما كان الليل يتأرجح بين الظلمة والفجر، جاء نيروز
اتصال من المصححة، وأبلغوها أنّ نرجس قد انتحرت في ساعة
متأخرة من الليل.

- (في رثاء وإشفاق) ياللمسكينة البائسة! كيف حدث ذلك؟

- حين ذهبنا لرؤيتها، كانت نرجس ترقد جثة مسجاة فوق
فراشها، كالطفل الغارق في نوم كالخدر. أبرقت فوق وجهها
إشراقتها الباسمة، ورونقها القديم، وعادت إليها سيماء البراءة
والسكينة، حتّى كدت أن أكذب عينيّ. اقتربت نيروز منها، والدموع
تنهمر من عينيها مدرارًا، وانكبّت تدفن وجهها في صدرها، ثمّ
أجهشت بالبكاء، بينما انهمرت في نفسي أمطار الأسى. بدت
نرجس في صمتها وسكيتها كمن قرّرت الولاء للألم، ورفعت
الكلفة بينها وبين الموت أخيرًا.

استفسرت الأطباء عن طريقة انتحارها، فأخبرني أحدهم أنّهم
سمعوا حين أسدل الليل ستائره على المصححة صيحات نرجس،
وضحكاتهما تصدح في الغرفة، كما ترامى إلى مسامعهم صوت
نشيج حارق، وبكاء وأنين كما لطفل جائع. كانت الأصوات لأكثر
من شخص، فظنّ البعض أنّ هناك أحدًا ما في غرفتها، فهرعوا



إليها. وحين وصلوا إلى غرفتها وجدوها ترقد فوق أرضية الغرفة في وضع المصلوب فوق خشبة، وقد نزت كفأها كأنما قد دقت فيهما المسامير.

جحظت عينا الطبيب لتوّه، وامتعض وجهه كمن غرزت الخيالات المريعة أسنانها في لحمه، واستأنف يوسف قائلاً:

- حاول الأطباء إسعافها جهدهم، ولكنها كانت قد فارت الحياة بالفعل. وحين حاولوا معرفة سبب الوفاة أصابتهم الدهشة والحيرة، فقد اكتشفوا أن جسدها كان يحمل أعراض الموت منذ أكثر من ثلاثة أيام!



الفصل التاسع



«سُغِلَتْ جِوارِحِي عَنْ كُلِّ سُغْلٍ .. فَكَلِّىْ فَيْكَ
سُغُولٌ بِكَلِّىْ»

وضع الطيب المصباح ذا الشمعة المرتعشة فوق صخرة مرتفعة، ووقف يرّدّ ناظريه في العتمة الباذخة، كان الظلام حالكا إلا من دائرة النور حول الشمعة التي ظَلَّتْ شعلتها تراقص بفعل النسيم الخجول في المكان، كان القمر مكتملاً على غير عادته، وكأنّه يريد أن يأنس بالطيب في تلك اللحظة الرهيبة، وبدت شواهد القبور بلونها الأخضر والأزرق الشاحب مثل أشخاص يراقبونه عن بعد دون أن يحركوا ساكناً، انتظر أن يسمع عواء ذئب، أو يرى جثّة تنسلّ خارجة من قبر ما، وتكشف عن أنيابها الدراكولية الملوّثة بدماء ضحاياها، كما في الأفلام الغوطية، فلم يسمع سوى نباح الكلاب التي تجمّعت على مقربة منه، كأنّها تنذّر من وجود



بشر في مملكة الليل الخاصة بها وفي تلك الساعة المتأخرة، حين
تنشط الأرواح وتهم على وجهها.

جعل يرسل ناظريه في المكان ذات اليمين وذات الشمال،
فلم يستطع أن يغالب خياله الجامح، يصوّر له جدران الأحواش
وهي تكاد تطبق عليه، وظلال المقابر الباهتة في ضوء القمر، وهي
تتأهب للانقضاض على ظلّه المعوج، والذي التصق به ذعرًا لم
يعر لخيالاته اهتمامًا، وراح يستجمع ما تبقى من شجاعة لديه،
ويستعين بالفضول المتأجّج داخله، وقد حاوطه الضوء في دائرة
باتساع جسده، كانت الشمعة على وشك الانصهار، وضوء القمر
بالكاد يكشف المكان، رغم اكتماله، كأنّ الليل قد هبط اليوم
وخلفه كل قوى الظلام في موكب جنائزي مهيب حزنًا على من
ترقد في القبر قبالته جثا الطبيب على ركبتيه، وتطلّع في الاسم
المحفور على صدر القبر: (نرجس عبد الفتاح الشبلي، مايو
١٩٨٨ / نوفمبر ٢٠٠٧). زمّ الطبيب شفتيه في رثاء، وقال: تذبل
الزهور دائمًا، وتبقى الأشواك رغم ذلك لا تعرف طعم الذبول.

مرّت لحظات ثقال وهو يقف حداثًا أمام قبرها، ولم يلحظ ما
يدور حوله، كان القمر يتمطّى ويتثاءب فوق الشجر بعد أن أطلقت



سحابة وجلة سراحه، فانتشر الضوء رويداً رويداً كان الضوء بارداً، أزرق كلون الجثث التي أوشكت على التعفن. ازداد نباح الكلاب، وتحول إلى زمجرة، كأنهم يتأهبون للقنص، أشاح الطبيب بوجهه عن قبر الفتاة، وأرسل بصره بعيداً، فرأى طيفاً يقف على مقربة منه، ويحدق في وجهه بعينين لامعتين للوهلة الأولى ظنَّ الطبيب أنَّه شاهد قبر، ولكن حين تحرَّك الطيف بغتة في اتجاهه، سرت رعشة باردة من رأسه حتَّى أخمص قدمه. عقد الخوف لسانه، وأصابته رؤية الطيف بالفرع حتَّى أحسَّ أنَّ شعر جسده قد انتصب واقفاً، ألقى نفسه يتنفّض دون أن يحرك ساكناً، وزايلته شجاعته، وفرت من صدره الأنفاس كالفران المدعورة. لم يستطع أن يتملَّص من جسده الذي أصبح مثل جزع شجرة ضربت جذورها في أعماق الأرض.

راح الطيف غير واضح المعالم والملامح يمشي الهويني في اتجاهه، وكأنَّه ينتظر سقوطه فاقد الوعي حتَّى ينقض عليه وينشب مخالبه في لحمه، ساد المقابر سكون متوتّر كالذي يلي الكوارث الكبرى، ويسبقها في تحفُّز. حتَّى نباح الكلاب ذاب في صمت المكان المطبق. اقترب الطيف الذي تحول تدريجياً إلى شبح هلامي الملامح، حتى كاد أن يجزم أنه كان يرى من خلاله، ثمَّ تحول ببطء إلى كائن غير بشري بغتة بدأ يجدد في السير، حتَّى



ظنَّ الطبيب أنَّه من الحكمة أن يطلق ساقه للريح. وقبل أن يندفع
مهرولاً، سمعه يزق حين دنا منه، ويطلبه بالتوقُّف، بصوت
متهدِّج بدا كما لو كان مواء قطة تسمّر الطبيب في مكانه من الفزع،
وكاد أن يفقد الوعي وهو يسمع خطوات الطيف تهرول نحوه.
وحين اقترب الطيف منه، شخّص إلى وجه الطبيب بتوجُّس
وارتياب وقال:

-مَنْ أنت؟

أدرك الطبيب أنَّ من يحادثه رجل من لحم ودم، فاسترد
سكينته، وابتلع ريقه الذي كاد أن يجف، ثمَّ قال:
-أنا أحد أقرباء الفقيدة.

تنفَّس الرجل الصعداء، وقال وهو يلتقط أنفاسه اللاهثة:
-لقد أفرعتني يا هذا، فقد ظننت أنَّ الموت قد ترك لفرط
تخمته بعض الجثث تنجو من بين أنيابه، وماذا أتى بك إلى هنا في
هذه الساعة المتأخرة؟

-أردت أن أقرأ لها الفاتحة، فلم أنظر لحظتئذ في ساعتي.
راح الرجل يتفرَّس في الطبيب من رأسه إلى أخمص قدميه،
ثمَّ أضاف في تعجُّب.



- ألم تستطع أن تقرأها من مكان أكثر أمناً؟ (في ريبة) يبدو
أنك طيب؟

اضطرب الطيب، ولم ينبس، فاستأنف الرجل قائلاً:
- يبدو أنني على حق، أنت طيب وقد جئت لتسرق إحدى
الجثث، أليس كذلك؟

ازداد اضطراب الطيب، واختلج وجهه في نوبة شعور بالندم
لمجيئه، فبادر الرجل قائلاً:

- لا، ليس صحيحاً، ومن أنت حتى تستجوبني هكذا؟
- أنا اللحد يا هذا، وأنا أعيش هنا لأحرس المقابر.
ابتسم الطيب في ارتياح، وقال:
- حسناً، أيها اللحد الثرثار، صاحبة هذا القبر كانت إحدى
مريضاتي.

- إذن فأنت طيب بالفعل.
- نعم، ولكنني لست طبيباً بشرياً، بل نفسياً.
رمى اللحد الطيب بنظرة مرتابة، وراح يرسم بأصابع يده
دائرة حول جبهته اليمنى، ويستفسره قائلاً:



-طبيب مجانيين.

- (في حق) قلت لك أنا طبيب نفسي، أعالج المصابين مثلك
باضطرابات نفسية.

- إذن لماذا يحتاج الطبيب النفسي إلى الجثث؟

زفر الطبيب في استياء، ونظر يمينه ويسرة، ثم قال في غضب:

- (في همس) يالك من غبي! (مخاطبًا اللحد) ألا تفهم؟ قلت
لك أن الفقيده كانت إحدى مريضاتي، وأنا لم آت إلى هنا لسرقة
الجثث.

- (في تهكم) حسنًا، حسنًا. ولكن أخبرني، هل جئت إلى هنا
لتستكمل علاجها في قبرها؟

ضاق الطبيب ذرعًا باللحد، وأحس أنه لا جدوى من الحوار
معه، فقال بجدّة:

- إذن دعني وشأني.

- (في امتعاض) كيف أدعك وشأنك؟ هذه وظيفتي، أن
أحرس المقابر.

- (في يأس) حسنًا، سوف أمضي أنا.



تأهَّب الطبيب للمغادرة حين استوقفه أمر ما في عقله، فاستدار
وعاد إلى اللحد، الذي كان يلاحقه بعينين مرتابتين، وقال:

-اسمع، أيُّها اللحد، أريد أن استفسرك عن بعض الأمور،
فهل تفيدني؟

رشقه اللحد بنظرة شك وتوجُّس، وقال في حيرة:

-ماذا تريد؟

-أريدك أن تخبرني بمن جاء لزيارة هذه المقبرة منذ قمت
بدفن الفقيدة.

- (في سخرية) الآن أدرك سبب اهتمامك إذن كل عاشق
مشروع مجنون.

-كفاك هراء، وأخبرني بما تعرفه عن زوّار هذه المقبرة.

بين إقدام وإحجام اقترب اللحد من القبر، ثمّ جلس القرفصاء
قبالته، وجعل يقرأ ما كُتِب عليه بلغة ركيكة تشي بحالة مستعصية
من الأمّية. بغتة، انتصب اللحد واقفاً كمن لدغته حيّة رقطاع،
وارتد إلى الوراء في ذعر. ضيق الطبيب ما بين حاجبيه في دهشة،
واستوضحه قائلاً:

-ماذا بك؟



- (فاغراً فاه) هل تعرف من ترقد في هذا القبر؟

- بالطبع أعرفها. ماذا هنالك؟

ارتبك اللحد، وظل يحرك جسده المرتجف يمنة ويسرة،
كمن يبحث عن طريق للفرار، حاول الطيب أن يهدئ من روعه،
ويستوضح سبب الفزع في عينيه، فحدجه اللحد بنظرة فاترة لا
تعلن عن شيء، وكأنه روح اختطفها الحياة من فك الموت في
اللحظة الأخيرة، أمسك الطيب بكتفه وزغر له زاعقاً:

- ماذا بك؟ أخبرني بما تخفيه.

أزاح اللحد يد الطيب بعنف، وحاول أن يمضي في طريقه،
فاستوقفه الطيب، وقال متوسلاً:

- أرجوك، لا تمضي أخبرني بما تعرف.

- (هامساً) من ترقد في هذه المقبرة.... ما زالت على قيد

الحياة!

وكان قبضة هلع سرية قد بدأت تتحرّش بجسد الطيب، ففغر
فاه، وظلّ يحملق في وجه اللحد ملياً، ثم قال بصوت متكسر:

- أتهذي، يا رجل؟ كيف يمكن أن ترقد الفقيدة في القبر وهي

على قيد الحياة؟



- (مغالبا زحف الذعر في نبرته) هذه هي الحقيقة، أيها الطبيب.
بنظرات ساهمة ظلّ الطبيب يتفرّس في القبر دون أن ينبس.
دنا اللحد منه، وحدجه بنظرة متجهّمة من عينيه الكليلتين، ثمّ قال
بنبرة مكدودة:

- إنني أسمع أصواتا تأتي من القبر كل ليلة.

- (في دهشة) ماذا؟ أصوات من؟

- لا أدري، ولكنّها تبدو لرجل وامرأة.. و غلام.

- (جاظ العينين) هذا مستحيل.

ألجمت كلمات اللحد الطيب، فوقف بلا حراك، شأن
من يشعر بثقل جبل راسخ جاثما على صدره، بينما جعل اللحد
يتجول ببصره في المكان كمن يخشى هجوماً مباغتاً، ثمّ استطرد
قائلاً:

- لقد حاولت كثيراً أن أقنع أخاها بالمجيء لاستكشاف
الأمر، ولكنه كان يسخر مني وينتهرني دائماً.

- وماذا عن أختها؟

- أختها؟ أنا لا أدري أنّ لها أختاً.

- بلى، نيروز أختها الكبرى. هل تعرفها؟



قطب اللِّحَاد جبينه في حيرة، وقال في تساؤل:

-كيف يكون لها أخت، ولم أرها في جنازة الأبوين، أو جنازة
الفقيدة نفسها؟

استبدَّت الحيرة بالطبيب، فلم يحر جوابًا، وأردف قائلاً:

-على آية حال، أريدك أن تحدِّثني عن تلك الأصوات.

تردَّد اللِّحَاد وظلَّ يُحرِّك جسده في ارتباك، كمن ترتعد فرائضه
من هول الرواية، ثمَّ استطرد:

-في إحدى المرَّات كنت أقوم بدفن جثمان امرأة في ريعان
الشباب، وافتها المنيَّة في مساء يوم قارس البرودة، وقرَّر أهلها دفنها
بعد صلاة العشاء، وحين فض المأتم، وانصرف المعزُّون، عدت
إلى المقبرة ثانية.

لاذ اللِّحَاد بالصمت بغتة، ولم يستأنف، فقال الطبيب في
اهتمام غير منقوص:

-أكمل.. أعلم أنَّك عدت إلى المقبرة لسرقة جثة المرأة، وهذا
لا يعنيني، أريدك أن تخبرني بما حدث حين عدت إلى المقبرة.

- (في تردُّد وشعور بالخزي) حين عدت وقمت بفتح تلك
المقبرة (مشيرًا إلى المقبرة المجاورة لمقبرة نرجس)، ونزلت إلى



القبر، هالني ما سمعت من مقبرة الفتاة، طرقت مسمعي أصوات
غامضة، بدت معذبة، لأنّها كانت تصرخ وتصيح وتبكي وتئن.
ملت بجسدي إلى جدار القبر، واسترقت السمع، فسمعت..

-ماذا سمعت؟

-ظننت للوهلة الأولى أنني أسمع صوت الملاكين وهما
يقومان بحساب الفقيده، وأدركت من صرخاتها أنّها تلقى عذاب
القبر، فجذعت وارتعدت فرائصي، وهممت بمغادرة القبر، حين
ترامى إلى مسمعي صوت الفتاة تقول مستجدية: امنحني ما أنعمت
به على البيغاء.

- (في دهشة) بيغاء؟ أي بيغاء؟

- لا أدري لم أكد استمع إلى تلك الكلمات حتّى دوت في
جدران المقبرة أصدااء بكاء مر، ثمّ صكّ مسمعي صوت رجل.

- رجل؟ هل أنت متيقّن ممّا تقوله؟

- نعم، أيها الطبيب.

- وماذا كان يقول؟

- كان يخاطبها بلغة تشبه لغة العشّاق، ولكنّني لا أتذكّر
الكلمات جيّدًا.



-وماذا حدث بعد ذلك؟

-سمعت صوت غلام يغني.

-غلام؟ وما أدراك أنه غلام؟

-أدركت ذلك من صوته، فلم يكن الصوت لرجل أو امرأة.

-وماذا كان يقول؟

-بدا غناؤه كالتواشيح والابتهالات، فقد كان يذكر الله كثيراً.

كما سمعت وقع خطوات في المقبرة كأنَّ أحدهم يقوم بآداء رقصة ما ظلت أنصت مرتعداً، حتَّى تفرقت الدموع في عينيّ.

رغم ارتياب الطبيب من رواية اللحد، لم يستطع أن يتنكر له. راح يفكّر ملياً، ثم قال بعينين لامعتين وهو يدسّ يده في جيبه ويخرج مبلغاً من المال.

-اصغ إليّ. سوف أمنحك هذا المبلغ الكبير من المال نظير خدمة.

قلّب اللحد ناظريه بين يد الطبيب الممدودة بالمال، وبين وجهه العابس، وزوى ما بين عينيه في حيرة، ثمّ ابتسم في بلاهة، وأوماً برأسه.

الفصل العاشر



«ما لامني فيك أهابي وأعدائي .. إلا لغفلتهم
عن عظم بلوائي، أشعلت في كبدي نارين واحدة ..
بين الضلوع وأخرى بين أمشائي»

جاءها ذات مساء محملاً بباقة من الزهور، ومرتدياً من الثياب
أجملها، وقلبه يخفق في شجو، وتشوّف اقترّب منها، فتناهى إليه
صوت خطوات قدميها الحثيثة، تبسّمت، وقد تأنّقت في زينتها من
غير إسراف ولا تبرُّج. تفرّست فيه ملياً، احتضنته، ولثّمت وجهه
بالقبلات دون خجل، وراحت تعابته كأنّها تعرفه منذ سنوات، رغم
أنّها لم تره من قبل أمسكت بيده المرتجفة وقبّلتها، ثم قالت.

-مولاي، كم اشتقت إلى رؤيتك!

جذّبه إلى مخدعها الذي قد أعدّته لتلك اللحظة منذ سنوات،
وهي تنتظر مجيئه دون سابق موعد كان فيها شيء مغاير، شيء لم

يألفه فيها، رغم أنه يراها لأول مرة في حياته، كان الليل يرخي سدوله، وقد أظلمت الغرفة إلا من شمعة أوقدتها بجوار فراشها الوثير، وقفت تحديق في وجهه في ولع متوهج، وهي تمسك بأنامله، كأنها تخشى أن يفرَّ هاربًا، نظر إلى صدرها المتوثب العاري حتى أعلى ثدييها، فرددت ناظريها بين عينيه النهمتين، وثدييها في تدلل وشقاوة، واشربأت كي يرى ما هو أكثر تعرّت ذراعها، وكشفت عن فخذها خلف ثوبها الفضفاض، فاشتعل مرجل شهوته، وطوّقها بذراعيه القويتين، حتى كاد أن يعتصرها عصرًا.

تملّصت من يديه بغتة، كالفراشة الروّاعة، ثم أذعنت له في استكانة، تراجع وارتمت فوق الفراش في خضوع تام، فوثب فوقها، وقد ملأ عطرها الشذى خياشيمه، مثل طائر جراح يحط على ميدان معركة انتهت لتوّها حاول جهده أن يجمع من الغنائم من جسدها المباح ما استطاع إليه سبيلًا، وهي تفتح له مغاليق مفاتها، ولا تبغي منه الفكاك.

تطلّعت في وجهه بهيام، وقالت وهي تموء كالقطط من فرط النشوة.

-دعني أمرّ وجهي في عري صدرك، يا مولاي، فالحب الذي يستوطن قلبي لا يعرف المواراة والزهد.



كشف عن صدره الذي تلاً لأبضياء مدهش، فأخفت فمها
براحتها ضاحكة، وأرخت جفניה خجلاً. فضّ قفصه الصدري و
كشف عن رسالة كتبت بحروف من نار، عرتها دهشة، بينما ظلت
عيناه تتشبّان بعينيها، ثم طفق يقرأ الرسالة بهدوء رزين.

-أنا المتيّم في دنياءك، حسبي من الحب أنّي لما أحبتني
عرفت لذة الشقاء ووقار العذاب عشقاً. أنا من الموحدين، أو من
أن لا مثيل لك، وأنّني لا محالة ذائق الموت في تفاصيل حسنك،
ومواطن فتنتك، أحمل في قصة عشقنا قلبي كتاباً للموتى، وأهبط
به إلى العالم الآخر في قارب عينيك. أحنّط من أجلك أحلامي،
وأترك ما تبقى من جسدي لطيور الوحدة الجارحة، لا أبتغي من
هذا الجسد سوى قلبي الذي يحجّ إلى طيفك كل أمسية، ويعلم
أنّك تنتظرينه في آخر المنام، وبين يديك مفاتيح فردوس جديد.
بسماتك هي صكوك الغفران، أقتنيها كي أعبر في متاهات القبر
المحفوفة بالمخاطر، إلى حقل القصب، يفتح أنوبس فمي وعيني
وآذاني كي أشارك في طقوس التقديمات تبقي أنفاسك تعاويذي،
احتمي بها من الخنفساء «أشارو» الملعونة، أعبر البوابات الاثنين
والأربعين، وأصرّح اثنين وأربعين مرة أنّني لم أعشق سواك، أقابل
حورس الإله ابن الإله، يقتادني إلى آخر امتحان في ساحة القضاء



الأبدي يزن قلبي، يجده أخف من ريشة الحق، أنجو من العذاب
المقيم، لأجدك في آخر المطاف تنتظريني، وتحملين لى قُبلة
مغلّفة بعقد من الفل.

قرّح البكاء عينيها، وهي تنصت إلى كلمات العشق من ولي
العشق لفانية مثلها، وقد مرقت كالسهم فأصابتها في مقتل، فمن
ذا الذي يطارحها الهوى بشغف، وتيم هكذا؟ استسلمت لجماح
ولها الذي فاق قدرتها على القتال، فاستزادته، وهي في عجب من
نفسها، فاستطرد بصوته الذي اخترق هدأة الليل.

-مكبّلاً بأغلالك أخطو إليك.. أنا الزاهد في الكون، أسعى
إلى مرحلة الفناء، والتماهي، فإننا روحان حللنا بدنًا. يوشمون
اسمي على جسدك الملائكي، ويكتبون اسمك في بطاقة هويتي.
أسير إليك الهويني، فأنا أعلم أنّ أسرع الطرق إلى قلبك أبطأها.
أعلم أنّ مصيري مرصود في لوح محفوظ، وأنّ الغد والأمس
محض سراب حين يصبح الحاضر بين كفّيك يتوسل الجمال إلى
عينيك أن يمكث فيهما للأبد كي يظل حاملاً للقلب تغتالني عيناك
المحلّاة بابتساماتك، وقطع السكر من نظراتك الرائقة، ستظل
نظراتك حبات مسبحتي، أردّد بها أسماءك الكثيرة، وأستدعي



بها أسلحتي الواهنة، علّها تستطيع أن تتصدّي لأسلحة أنوثتك
المشرّعة للفتك بي يكفيني أريج عطرك، يتشلني من زيف الحقيقة
إلى صدق الوهم الذي أحياء منتشياً بالهزيمة على يديك.

قطّبت حاجبيها في حيرة، وقد أضنى قلبها صوته الذي عرج
إلى صدرها، وفيض كلماته التي كادت من فرط حلاوتها أن تفقد
معها الوعي بادرته ودموعها تنهمر على وجنتيها.

-مولاي العاشق، أستحلفك ألا تغادرنِي.

ضمّ جناحيه خلف ظهره، وأبرقت عيناه مثل حبّتي كهربان،
وصدح بحديثه العذب، قائلاً:

-خليق بمثلي أن يغنم بحياة أخرى بعد الحبّ.. فقد نفضت
يدى من الولاء للخوار والفراغ، فمن الخطل أن نعتبر الحياة مبعثاً
للسرور دون حب، وهأنذا أعلن الحرب على كل جدار يعزلني
عن تكوينات غوايتك أجمع عواطفني المهتاجة في حقبة سفر،
وأوصد الأبواب خلفي، وألقي بالمفاتيح إلى غياهب الزمن، وأفرّ
إليك، دون إياب.

أمسكت بأهدابه في توسل، وقالت:

-أريد أن أرى النور في عينيك أرني إيّاه قبل أن يطيش عقلي.
لن أتركك قبل أن ترينيه.



-ها هو ذا أمامك.

قالها، ثم رفرف بجناحيه، وانطلق صوب السماء التي تلالأت
بنجوم خجلى، تتوارى خلف نطف السحاب الذي تراءى لناظرها
من كوة زجاجية.

نظرت إلى الواقف قبالتها، يرمقها بنظرات هائمة غير هيّابة،
ويمسك في يده دفترًا صغيرًا زایلتها جرأتها، فلم تستطع أن تعنو
لمشاعرها المشبوبة، وآثرت التحفظ والحذر، راح يتنقل ببصره
بين دفتره الذي لم يقلبه البتّة، وبين عينيها الفارتين من نظراته
المقدمة، قال في وله وشغف وهو يداعب أهداب عينيها.

-من أنت أيتها الحسناء؟ من أي كوكب أتيت؟ ليتني أستطيع
أن أبوح بلهفتي إليك. ليتني أستطيع مغالبة دورة الأفلاك، والتأثير
على نجمي، كي أحظى بك. أيّ التعاويذ يمكن أن تأتي بك إلى
صدري التوّاق إلى حضنك؟

قالت وقد أشاحت بوجهها بعيدًا في دل ناعس فتان:

-أنا نرجس، أيّها الطيب أنا من كنت تحلم بلقائي، وها أنذا
قد جئت لمسامرتك.

أرسل نظرة مأخوذة تحمل رسالة إلى عينيها، بينما مطّت



جسدها في ليونة مغرية، وشخصت إليه باسمه، وقالت:

-أنا أطوع ما أكون الآن، فانتهاز السانحة، فلن أستطيع
مقاومتك أرجوك تحنّ على قلبي الصغير.

قلّب صفحات دفتره، دون أن ينظر فيه، ثم قلبها مرة أخرى
في شرود، وهو يرقب يديها اللتين اعتصرتهما، ووجنتيها اللتين
احمرّتا، وهي تكافح أن تبدو غير مكترثة لاهتمامه، أمسك بأطراف
أصابع يديها دون أن يلمسها، وانحنى على ركبتيه، وقبل كفّيها،
فمالت وداعبت شعره الأسود المنسدل على جبينه أبرقت أساريه،
وهو يرنو إلى جمالها الأسر، ثمّ قال والدموع تترقرق في عينيه.

لى حبيب حبه وسط الحشا لو يشا يمشي على قلبي مشا
روحه روعي، وروحي روحه إن يشا شئت، وإن شئت يشا

أينعت كالزهور مبتسمة، بأذان مشرّعة لِمَا قد يقول، ولم يقل
بعد، كأنّه يخطو نحوها فوق مسامير، رغم صبابته، وأحاسيسه
التي بدت كالخيول الصاهلة، تعدو نحوها في إقدام دون أن يحرك
ساكنًا، شبّت بين أضلعها جمرات بات عليه أن يطفئها، فلم يعد
للاكتتام مكان، وقد استبطأت منه البادرة وقالت في توسّل.

-تكلم، فأنا كلي آذان صاغية.



- أنتِ آية في الحسن، حوراء العين، فتانة المحاسن. قد أتملق
الملائكة إذا ما قارنت بينها وبينك.

- قل ما شئت، فكل ما تقول يوقظ كوامني ويشجيني.

- أحبك، يا نرجس!

استيقظ الطبيب مفزوعاً، حين لطم صوت سيارة مندفعة
في الشارع جدران غرفته، فاستوى فوق الفراش، وظلَّ يحدق في
ظلام الغرفة لبرهة، قبل أن يدرك أنَّه كان أسير حلم بعمق المحيط،
لاكتة الحيرة بين شذقيها، فلم يخطر له ببال أن يعاين نرجس في
حلمه، رغم أنَّه لم يرها قط. تساءل في نفسه: ما سر اهتمامه بها
لهذا الحد، وهي لم تكن مريضته كما أخبر اللحد؟ من يكون هذا
العاشق الذي رآه في الحلم، وما سر ارتباطه بنرجس؟ وبعد تفكير،
عزى ما رآه في الحلم إلى ما حدث في الليلة السابقة في المقابر،
بعد ما قرَّر لسبب غير معلوم أن يزور قبر نرجس، ما ذلك الشيء
الأسر الساهر كالتعويذة الذي دفعه دفعاً إلى زيارة قبرها، كمن
يريد التبرُّك بمقامها؟

راح يجترُّ ما حدث تلك الليلة حين طلب من اللحد أن
يفتح قبرها، ليضع نهاية لهواجس استبدت به، بعدما أخبره اللحد



بما كان يدور داخل القبر، استوطنت جسده رعدة حين تذكر ما حدث، فقد قام اللحد بفتح باب القبر بعد إصرار منه، ثمَّ أثر أن يغادر المكان، تاركًا الطبيب بمفرده.

مرتاعًا، انسرق الطبيب إلى الداخل، وقسمات وجهه تصرخ في زعر، حتَّى كادت أن تلفظ عينيه خارج محجريهما، مرَّت به لحظات ظلَّ يرتجف ويدفع قدميه دفعًا للداخل لدهشته، كان الهواء البارد ينبعث من داخل القبر، ويدفعه للعودة للوراء. بدا القبر مرتعًا بحميمية، وقد شذا داخله عقب المسك، كأنَّ دود القبور قد تعفَّف عن وجبهته المعتادة من أجلها وحدها.

تردَّد الطبيب مليًّا، وكاد أن ينكص عائداً في هلع، حين استدعى مخزون جسارته ويقينه، وخطا في تَوْدَة للأسفل. وفي ظلمة القبر كانت أجفانه تنفرج وتنقبض، وهو يبحث بعينين مذعورتين عن مكان الجثمان داخل القبر. ظلَّت نظراته عالقة بالظلمة المفرطة حتَّى تراءى لعينيه الكفن الأبيض على مقربة من قدميه المرتجفتين. بغتة ازدادت حرارة الجو القائظ داخل القبر، وصار الهواء ساكنًا ثقیلاً، ناءت الظنون بكل ثقلها عليه، وهو يخطو نحو الكفن الملقى جوار جدار، فتسمَّر في مكانه لبرهة. تملَّكته قشعريرة،



وتفصّد منه العرق، فخطا بقدمين من عجين لصق الجدار المقابل للكفن، وهو يحدّق فيه في ذعر، كمن يخشى أن تفيق الفتاة من غفلتها بغتة وتنقضّ عليه.

لم تحرّك الفتاة ساكنًا، وذابت الظلمة رويدًا في أشعة ضوء خافت مرقت من باب القبر إلى الداخل، جلس الطبيب القرفصاء أمام الكفن، وراح يتفرّس فيه بعينين ذاهلتين في صمت محفوف بالتوجُّس. غشيه اكتئاب، وتولّته حالة من الرثاء والإشفاق على فتاة غادرت الدنيا قبل أن تقطف من ثمارها القليل، ثم استكانت لموت آثم. ورغم أنّه لم يعرف من قبل تباريح الفراق، هبط داخل صدره شعور أليم بالحزن عليها، حاول أن يكظم أساه، واقترب من الكفن، وهو يكاد يبكي في صمت، بسط يده في اضطراب، ولا مس أهداب الكفن، وهو يرهف السمع لسكينة مريبة تحاوطه، بغتة، تبدّت عليه جهامة، وارتدّ للوراء في ذعر. حائل اللون، جاحظ العينين، ظلّ يحدج الكفن بنظرة مذعورة دون وعي راح يردّد في ذهنه:

-كيف حدث هذا؟ كيف حدث هذا؟

ثم اندفع خارجًا، قاصدًا بيت اللحد.

وقف أمام منزل اللحد بوجه باهت مكفهر، وزعق عليه،



فاندفع اللّحَاد خارجًا، وهو يغالب فلول النعاس، ويفرك عينيه
براحتيه، ويللملم أهداب جلابه في وجل، ويقول:

-خيرًا، أيها الطبيب.

دنا الطبيب منه في تؤدة، وانفرط عقد الصبر، فانقَضَّ عليه
وقبض على رقبته بيديه مقطَّب الجبين، مكفهر السحنة، راح
اللّحَاد يستفسره في خوف:

-ماذا حدث؟

-سوف أقطع لحملك نتفًا صغيرة، إن لم تبلغني بما فعلت
بالجثة.

-لا أعرف ماذا تقصد.

-لا تكذب، أيها المأفون.

-أقسم لك أنني لا أعرف ما تقصد.

-لقد قمت بسرقة الجثة، أيها اللص اللعين.

-(في دهشة) أقسم بالله أنني لم أفعل.

رغم الارتباب في قسم اللّحَاد، شعر الطبيب أنَّ شيئًا غير
طبيعي يحدث، فقد بدا على اللّحَاد الصدق فيما يقول، وهو يرمق
الطبيب بنظرة فاترة، دون أن يرفَّ له جفن، أطلق الطبيب سراح



عنقه، وقال في غضب وحيرة:

-إذن، ماذا حدث للجثة؟

-أتقصد أنك لم تجدها في القبر؟

-لا.

- (في زعر) ألم أقل لك أن هناك أمرًا ما غير بشري يحدث في هذا القبر؟ إنها لعنة، لا شك. ربّما دُفِنَت حيّة، كما أبلغتك، وجاء أحدهم وأخرجها من هناك.

لم يعر الطبيب انتباهًا للكلمات اللحّاد، وغادر المقابر والحيرة تكاد تفتك به.

جلس في فراشه يتطلّع لسقف الغرفة في شروء، وهو يحاول أن يربط بين ما حدث في المقابر تلك الليلة وما تراءى له في الحلم، ويؤرجح ذاكرته إلى الخلف ويعيد إلى ذهنه ما روته نيروز عن أختها نرجس.

غادر الفراش حين جفاه النوم، ودلف إلى الشرفة راح يطالع النجوم الخرساء في صفحة السماء، والليل يوغل في العتمة من حوله تذكر طلاوة حديث العاشق في حلمه، فابتسم، وتساءل: أئني له بتلك الكلمات النافذة عن العشق والتي تفوّه بها ذلك الولي،



وهو الطبيب الذي لم يقرأ شعراً، أو رواية عشق من قبل. تسلّطت على عقله حلاوة الكلمات، واختلج قلبه، وازداد هيامه بفتاة الحلم، حتّى كادت الغيرة أن تتقدّ في صدره، فتبسم في حيرة وقال في نفسه:

-أفقي يا سمير، فما أعجب ولعك بفتاة لم ترها قط!

ترامى إلى مسمعه من العيادة في الغرفة المجاورة صوت ارتطام جسد بالأرض، فهرع إلى مصدر الصوت. وحين دخل الغرفة، بُهت، ولم يحرك ساكناً. انقبضت نفسه وتردّدت فوق شفّتيه شهقة حين رأى فتاة ممدّدة على الأرض، ومن رأسها تسيل الدماء!



الفصل الحادي عشر



«إِنْ كُنْتُ بِالْغَيْبِ عَنْ عَيْنِي مُحْتَجِبًا.. فَالْقَلْبُ
يُرْعَاكَ فِي الْأَبْعَادِ وَالنَّائِي»

أوشك الفجر أن ينبلع، وقد زحفت العتمة من منزل إلى آخر حتى تلوّنت الطرقات باللون الرمادي الداكن، كانت القطط تموء مواء كالصياح، وهي تقفز فوق سلال القمامة خلف فأرٍ سيء الحظ، دفعته نوائب الأيام في طريقها. كان أحد الشحّاذين يعبر بين السلال ويفرّغ أكياس القمامة بحثًا عن كسرة خبز لم تتعفن بعد، أو ثمرة فاكهة لم يصبها العطن، أمسك بما تبقى من تفّاحة بين الفضلات وتناولها دون تأفّف أو ضجر، وعيناه ترقبان الطريق وكأنّه ينتهك ستر المحرّمات كل الحوانيت مغلقة إلّا مقهى صغير ينشر ظلال المقاعد، وقد تراصت قوارير النارجيلة فوق الطوار في الداخل نور شاحب لمصباح تكسوه الأتربة وصوت مذياع



منخفض، يصدح في الشارع من فرط السكون، وينبعث منه صوت ابتهالات الفجر للمبتهل الشيخ نصر الدين طوبار.

توقفت سيارة إسعاف، جاءت تتهادى مثل نائم يستيقظ متثائبًا، وينفض النعاس عن جفنيه، وترجل منها المسعفون في أناة وعدم مبالاة، ثم دلفوا إلى عيادة الطبيب، عادوا بعد قليل يحملون الفتاة فوق طاولة الإسعاف، وبصحبتهم الطبيب سمير، الذي بدا مذعورًا، لا يدري ما يحدث، وقد أبت عليه حيرته الكلام، استقلَّ الطبيب سيارة الإسعاف، والتي انطلقت تشق صمت الشارع، لم يكن هناك أحد سوى الشحاذ، الذي ألقى ببقايا التفاحة من يده، ووقف يراقب ما يحدث في وجل.

وفي المستشفى وقف الطبيب خارج غرفة الطوارئ، في انتظار ما قد يؤول إليه أمر الفتاة التي جاءت إلى عيادته، حاملة معها لغز مغلق لم يعرف من جاء بها، ولم يدر لماذا اختارت عيادته هو مأوى لها، وهو الذي عاش حياته في إهاب الهدوء والسلام؟ تساءل ما الذي أصاب رأسها بتلك الجروح الغائرة، كمن تلقت ضربات متعددة من آلة حادة. ورغم خوفه من اتهامه بما حدث لها في عيادته لم يتوان لحظة عن الاتصال بالإسعاف لإنقاذ حياتها.



وقف خارج غرفة الطوارئ يفرك يديه في توتر واضطراب،
يكدر صفوه شعور دفين بالقلق والحيرة، هي فتاة لم يرها من قبل،
ولم يجد معها ما قد يكشف عن هويتها، ممّا زاد الأمر تعقيداً
عليه، لقد خال لوهلة أنّه بصدد نوبة هذيان، نتيجة للحلم الذي
داهم منامه وأقصّ مضجعه، ولم تواته الشجاعة لمواجهة حقيقة
الأمر إلّا حين اقتحم رجال الإسعاف عيادته، كانت الأفكار السيئة
تتخيل لعقله، وداخله شعور غامض بوجود أمر لا يمكن تفسيره
بالمنطق والعقل كما اعتاد دائماً.

خرج الطبيب المعالج من غرفة الطوارئ، وتوجّه نحو مكتب
الاستقبال، ثمّ أبلغ الموظف المسؤول بالاتصال بالشرطة. دنا بعد
ذلك من الطبيب سمير وقال وهو يرشقه بنظرة مرتابة.

-ماذا حدث للفتاة يا دكتور سمير؟

-أنا لا أدري شيئاً، لقد وجدتها هكذا في عيادتي.

رمقه الطبيب بنظرة جانبية وافتّر ثغره عن ابتسامة ساخرة ثمّ
أضاف:

-أتعني أنّك غير مسئول عمّا حدث لها؟

-بالطبع لا. أنا لا أعرفها من الأساس.



ظَلَّ الطَّيِّبُ يَحْدَقُ فِي وَجْهِ سَمِيرٍ دُونَ أَنْ يَنْبَسَ بِنْتَ شَفَةِ،
كَمَنْ يَنْتَظِرُ مِنْهُ اعْتِرَافًا، فَأَحَسَّ سَمِيرٌ بِالْحَقِّ، وَقَالَ فِي غَضَبٍ:

-لِمَاذَا تَنْظُرُ لِي هَكَذَا، كَأَنِّي قَدْ أَتَيْتُ فَعَلًّا نَكْرًا؟ أَنَا لَا أَعْرِفُ
الْفَتَاةَ، وَلَمْ أَمْسَسْهَا رُبَّمَا يَكُونُ أَحَدُهُمْ قَدْ قَامَ بِضَرْبِهَا، ثُمَّ جَاءَ بِهَا
إِلَى عِيَادَتِي لِلتَّهَرُّبِ مِنْ فَعْلَتِهِ، أَوْ رُبَّمَا بَغَرَضٍ تَوْرِيطِي فِي هَذَا الْأَمْرِ.
هَزَّ الطَّيِّبُ مِنْكِبِيهِ وَأَوْمَأَ بِرَأْسِهِ، بَيْنَمَا لَمْ تَزِيلْهُ ابْتِسَامَتُهُ
السَّاخِرَةَ، ثُمَّ أَرْدَفَ قَائِلًا:

-ضَرْبُهَا فَقَطْ؟

-مَاذَا تَعْنِي؟

-الْفَتَاةُ فِي عَامِهَا السَّابِعِ عَشَرَ تَقْرِيبًا، وَلَكِنَّهَا حَامِلٌ.

كَأَنَّ أَحَدَهُمْ قَدْ أَلْقَى بِحَجَرٍ فِي مَاءِ آسَنِ، فَانْدَاحَ فِي دَوَائِرٍ
تَتَسَعَّرُ رَوِيدًا، صَوَّبَ سَمِيرٌ نَاضِرِيهِ إِلَى الطَّيِّبِ وَقَدْ اتَّسَعَتْ عَيْنَاهُ
فِي دَهْشَةٍ، لَوْ هَلَا أَصَابَهُ خَرَسٌ، فَلَمْ يَفْهَمْ بِكَلِمَةٍ، ثُمَّ رَاحَ يَنْقُلُ نَاضِرِيهِ
فِي الْمَكَانِ، كَمَنْ يَرِيدُ أَنْ يَتَأَكَّدَ مِنْ وَاقِعِيَةٍ مَا يَحْدُثُ مِنْ حَوْلِهِ نَظَرَ
لِلطَّيِّبِ بَعَيْنَيْنِ ذَاهِلَتَيْنِ لِبَرَهَةٍ، ثُمَّ قَالَ فِي تَأَفُّفٍ وَازْدِرَاءٍ:

-مَاذَا تَقْصِدُ، أَيُّهَا الطَّيِّبُ؟

بِابْتِسَامَتِهِ الْمَتَهَكِّمَةِ، وَالتِّي اسْتَحَالَتْ إِلَى ابْتِسَامَةٍ بِلَهَاءٍ،



حدجه الطبيب بنظرة مأكرة وقال:

-ألست ناضجًا، يا دكتور سمير، على أن تأتي فعلاً كهذا؟

كبر على سمير أن يرضى بإهانة كهذه، فلم يستطع أن يخمد غضبه الذي اشتعل في رجله، فانقضَّ على الطبيب، وانهاه عليه ضرباً وركلاً حتى خلَّص بينهما رجال الأمن، بعدما قاموا بشلَّ حركة سمير، ثم أودعوه إحدى الغرف، ولكنه لم يردع ولم يثن عن الصياح. جاء رجال الشرطة وقاموا باقتياد سمير إلى القسم، وفي حوزتهم تقرير الطبيب الذي يتهم فيه سمير بالاعتداء عليه وعلى الفتاة بالضرب المبرح، فضلاً عن شكوك بأن يكون سمير مسئولاً عن حمل الفتاة.

ألَمَّت بحواس سمير حالة من الذهول، فلم يدرك ما يدور من حوله، كمريض نفسى يقف على حافة الجنون. وقف وعيه حيال ما يحدث في دهشة موجعة، ولم يستطع الدفاع عن نفسه. قضى الليل يجترَّ خيالات وأحداث، وينبش فيها عن جواب لحيرته، وسبب لفجيعته تساءل من تكون تلك الفتاة، وكيف تمَّ الزجَّ به في قصتها التي لم يعرفها بعد؟

تمَّ إيداع سمير زنزانة القسم بصحبة اثنين من المساجين،



يفترشان الأرض وقبالتهما ورقة جريدة بها بعض الطعام، فكانا
ياكلان مريئاً، ويشربان هنيئاً، وكأنَّهما يجلسان إلى مائدة ملاءىٍ بما
لذَّ وطاب، أدركت سمير لوعة من أمره، فلم ينتبه لهما ظلٌّ جالساً
القرفصاء، يحدق في الأرض كمن يشق بعينه طريقاً للخارج ناءت
الأحزان به، فتمدَّد على الأرض، وصوَّب عينيه نحو سقف الزنانة
اقترب أحدهما منه وحملق في وجهه بطرف ناعس وجفنين ثقلين،
وقال بصوت متكسّر:

- ما حال الدنيا في الخارج يا هذا؟

طالعه سمير بنظرة ترفُّع وازدراء، ولم يجب، زحف الآخر
نحوهما، وقال في زجر:

- لماذا لا تجيبه؟ لماذا تنظر إلينا بازدراء وخيلاء، وكأنَّك ابن
تسعة ونحن ابنا سبعة؟

آثر سمير السكينة وهو يراقب حركاتهما وسكناتهما، فابتسم
في وجهيهما، وقال:

- سامحاني، فقد تمَّ الزَّجُّ بي في تهمة لا تمت لي بصله.

- سحقاً لكم، يا معشر المثقَّفين! وكأنَّما لا يرتكب الجرائم
سوى الفقراء والجهلاء أمثالنا جرائمنا دائماً دنسة، بينما ما



ترتكبونه من حماقات وجرائم مجرد خطأ أو ذلة.

لم يعقّب سمير، واكتفى بابتسامة فاترة أصابت السجينين
بالتفور، فغادراه وانتبذا مكانًا قصيًّا، قرّر سمير تفادي نظراتهما
اللاذعة، وتمتاتهما الساخرة، فاستلقى فوق الأرض، واصطنع النوم.
لم تمض دقائق حين دلف إلى الزنزانة رجل فارح الطول
كنخلة وارقة، وأشار بإصبعه إلى سمير ليقف بين الإغفاءة واليقظة
رمقه سمير بنظرة حائرة، فصاح الرجل:

-استيقظ أيها الطبيب يجب أن ترحل عن هنا على الفور.

راح سمير يفرك عينيه ليتعرّف على الرجل الذي ارتدى جلبابًا
وقفطانًا، وعلى رأسه طربوش داكن اللون، فبدا مثل شيخ أزهري
لم يستطع أن يدرك هويته، فقال مستفسرًا:

-من أنت، يا سيدي؟

-ألم تعرفني بعد، يا طبيب؟ أنا الفرحة المذابة في أكواب
العاشقين لقد أتيت من تلقاء قلبي لأخرجك من هنا.

-ولكنني لا أعرفك.

-لا عليك، فقد جئتك بناءً على رغبتها.

- (في حيرة) رغبة من؟



-سوف تدرك ذلك من تلقائك تعال.

أمسك الرجل بيد سمير وخرج به من الزنانة وسط دھول
السجينين اللذين فغرا فاهيهما، ولم ينبسا بنت شفة.

اصطحب الرجل الطبيب سمير إلى زورق في النيل، وعلى متنه
فتاة ذات حسن عجيب وجهها سبيكة وضيئة، وعيناها شهلاوان،
وجسمها ملفوف، وعلى رأسها تتكسّر موجة من ذهب، تهادى
بهما الزورق وشمس الأصيل تصبغ الأفق بشفق أرجواني زاهر،
بينما فوقهما رفرت الستائر الموشاة خلفهما انطلقت الحمام
خافقة، كأنّ السماء تتوج رأسيهما بالنور، حطّت بعض الحمام
فوق الزورق فاستحال أيكّة ناضرة بين الأفنان.

تبادلا كلمات العشق العذبة كماء النهر الذي تفرق كاللآلئ،
بينما داعبت أناملهما صفحته البلّورية. كان ينظر في عينيها
الشهلاوين بين الفينة والفينة، ثمّ يتلو أبيات الشعر الغزلي العفيف،
بينما تفرقت عيناها بابتسامات ساطعة، راحا يقلبان النظر فيما
حولهما من أشجار يانعة مثمرة ونخيل تمدّد على ضفاف النهر،
كأنّهُ قطع غزلان بريّة تنحني لترتوي من عذب الماء، أرهفا
سمعهما إلى أصوات جوقة من الطير مغردةً، وكروان يرجّع شدوه



بين طيَّات النخيل، نظر إليها في هدوء حالم، وقد نفث شعاعها
المومض عقدًا من السحر عليه وطفق يقول بابتهاال:

-لم أتوقَّع أبدًا أن أهيم بك عشقًا بين ضحوة وعشية لقد
أسرّتني بجمالكَ الأخاذ وأصبحت دنياي التي أصحو بين جنباتها
وأنام حالمًا بمرآها، التيه في الطرقات علاجه السؤال سيدتي، فما
علاج التيه في عينيك؟!

أصابتها رجفة راعشة واحمرَّت وجنتاها، فاقترب منها وراح
يهمس في أذنيها بما لذَّ وطاب من كلام العشق، فكاد أن يغشى
عليها تنهَّدت فاخرقته نسمات الهواء الدافئة من بين شفثيها،
فأردف يقول:

-لقد صار حبك همِّي المقيم وشغلي الشاغل، فلم أعد
أجد ما يستطاب من العيش غير لقياك، ولم يعد لي ما أنعم به غير
محيّاك، أنا المستهام الذي طاف به طائف العشق فأقض مضجعه،
فارحمي روحًا تخلّت عن جسدها لتهميم حولك كالحمام، وكوني
لها الأفنان.

كادت كلماته المعسولة أن توقف نبض قلبها، فتصاعدت
زفراتها بعد غيبة ذاهلة، واستغرقت في خدر مُسكر، بينما كان



الطيب العاشق يتفرّس في وجهها وهو مبهور حائر، حاوط
يديها بكفيّه، فمالت بصدرها الذي انتفض إليه اقتربا والتصقا حتّى
كادت تختلط أنفاسهما فلا يعرفان من أي شفاه خرجت، انتصبا
واقفين وتعانقا، نظر إلى شفّتيها اللتين ازدادتا احمرارًا، واقترب
وقد عبقت منها رائحة الزهور العطرة، ممّنّيًا النفس بقبلة حرّية بأن
تمنحه اللذة والسعادة، فراغت في دلال من بين ذراعيه.

ترامى إلى مسمعه ضحكات الرجل الذي اختفى عن
الأنظار، ثمّ ظهر بغتة مشعث الهيئة، عاريًا إلّا من أسمال بالية.
كانت ضحكاته مخيفة، أصابت سمير بالذعر، فلاذ بحضن الفتاة،
وأرهف السمع لصوت الرجل الذى صاح قائلاً:

-لن تبوح لك بمكنون قلبها يا أبله، فهي خرساء.. خرساء!
بغتة سقط سمير في مياه النهر.

سقط كالجلمود من قمة شاهقة فاستيقظ مذعورًا ليجد نفسه
فوق البساط الخشن في الزنزانة المعتمة تمامًا راح يجول بنظره،
ويحاول أن يستشفّ ما قد داهمه في منامه وأخذ بخناقه حاول جهده
أن يقف، ولم يستطع، فقد خارت ساقاه أطلق تنهيدة حسيرة، وهو
يحرق في السجينين اللذين تمدّدا أمامه على الأرض، مثل جثتين
أدركهما العفن.



وفي الصباح جلس سمير أمام وكيل النيابة، الذي راح يستجوبه في امتعاض، والشرر يتطاير من عينيه، كأنَّ ثأراً قديماً يشتعل بينهما.
-أتستطيع أن تخبرنا بسبب تواجد الفتاة في عيادتك، يا دكتور سمير؟

-يا سيدي، أرجوك أن تصدّقني، أنا لا أعرفها، ولم أقابلها من قبل.

-أتعني أنّها جاءت من تلقاء نفسها؟ إذن كيف فعلت هذا، وهي مصابة بجروح أفقدتها الوعي، كما أنّها تنوء بحملها؟
-لا أعرف.

-ألم تكن إحدى مريضاتك؟

-أنا لا يمكن أن أنسى مرضاي، فأنا أتعامل مع مرضى نفسيين، يحتاجون إلى علاج قد يدوم لسنوات، وليس كبقية الأطباء والمرضى، يتقابلون مرة أو بضع مرات في العمر.
-إذن أنت تعترف أنّك تعرفها منذ سنوات.

-(في استهجان) ماذا؟ أنا لم أقل هذا؟

-أقصد على فرض أنّك تعرفها، فمعرفتك بها طالت لسنوات



على آية حال، أريد أن أخبرك بأمر ما جاءني من طبيب المستشفى الفتاة مريضة نفسياً بالفعل، كما أنها خرساء.

- (في ذهول وفزع) ماذا؟

- نعم، فقد أدرك الطبيب هذا الأمر بعدما استفاقت. لم تستطع أن تبلغهم بأي شيء، دكتور سمير دعنا لا نشق على أنفسنا، وأبلغني بالحقيقة، وأعدك أنني سوف ألتمس لك الأعذار، وأقف إلى جوارك، فكثير من الأطباء يسقطون في مثل تلك الأمور، وخاصة الأطباء النفسيين.

تطلع سمير في وجه وكيل النيابة بتذمر مكتوم، ورغبة في الصراخ، ثم أطرق برأسه في استياء، وقال:
- ليس لدي ما أخبرك به سوى ما قلته.

لاذ الوكيل بالصمت ملياً، ثم أشار إلى الكاتب، وقال بصوت حاد يشي بصرامة القرار قائلاً:

- يتم حبس المتهم أربعة أيام على ذمة التحقيق، ويراعى التجديد في الموعد.

الفصل الثاني عشر



«لَمَّا اجْتَبَانِي وَأَدْنَانِي وَسَرَّفَنِي.. وَالْكُلُّ بِالْكُلِّ
أَوْصَانِي وَعَرَّفَنِي، لَمْ يَبْقَ فِي الْقَلْبِ وَالْأَهْشَاءِ
جَارِحَةٌ.. إِلَّا وَأَعْرِفُهُ فِيهَا وَيَعْرِفَنِي.»

بكفالة وبعدما قضى بضعة أيام في محبسه، ورغم فشل
المحققين في استجواب الفتاة، تمَّ الإفراج عن الطبيب سمير.
بنفس تَوَاقُعٍ إلى معرفة الحقيقة، قرَّر سمير أن يقصد بيت صديقه
يوسف، زوج نيروز، في وقت لاحق، علَّه يجد لديهما تفسيرًا لما
يحدث، فما زالت قصة الشيخ العاشق تؤرق منامه ورغم اليأس
الذي نازعه من التُّهمة الموجهة إليه، قرَّر سمير أن يعرج على
الفتاة في المستشفى، علَّه يستطيع استفسارها عمَّا حدث لها اتباع
في طريقه باقة من الزهور، وهو يمني النفس بالنجاة من تلك التهمة
التي تلاحقه دون ذنب ارتكبه.



دلف إلى غرفة الفتاة وأمارات الحزن تشيع في قسّمات وجهه كانت الفتاة تغط في نوم عميق، فاقعد كرسياً قبالتها، والتزم الصمت. وبعد برهة استيقظت الفتاة، وراحت تردّد ناظرها في الغرفة قبل أن تقع عيناها على سمير لدهشته افرّ ثغر الفتاة عن ابتسامة رائقة، وتخصّب خدّاهَا باحمرار طبيعي، كمن تستقبل فارس أحلامها لم يجد سمير مناصاً من الابتسام، رغم الأسى الذي اعتراه. وبرغم بشاشتها وابتساماتها التي أغدقت بها عليه، استغلق الأمر على سمير بصورة أثارت حفيظته، فلم يعرف سبب تبسّمها له رغم عدم وجود سابق معرفة.

شرع سمير في استخدام لغة الإشارة، والتي قد تعلّمها ليتمكن من التحوّل مع بعض مرضاه المصابين بالصمم ظلّت الفتاة ترمق إشارات يده بنظرة جامدة دون أن تبدي أي اهتمام. لاكت سمير الحيرة حين أدرك أنّ الفتاة لا تفهم لغة الإشارة، فكيف تكون بكماء ولا تعرف لغة الإشارة إلّا إذا كانت قد أصيبت بالخرس في عمر متقدّم لسبب ما؟

أخرج سمير من جيب سترته دفترًا صغيرًا، كالذي يدوّن فيه جلسات العلاج النفسي، وجعل يكتب للفتاة ما يريد قوله.



- من أنتِ، أيتها الفتاة؟

رمقت الفتاة الدفتر في يده وقطبت جبينها كمن أصيبت بالدهشة لسؤاله، ثم رشقته بنظرة عتاب مر، وقد ارتجفت خفقاتها، فأشاحت بوجهها بعيداً، حاول سمير أن يعيد عليها سؤاله، فربت على يدها في رفق، وأشار إلى الدفتر كي تنظر إليه وتمنحه الجواب الذي ينتظره.

لاحظت من الفتاة نظرة أسيانة، وتطلعت في وجه سمير في لوم، ثم أشارت بيدها أن يمنحها قلمًا. تهلل وجه سمير غبطة فقد كان هذا جل ما يطمع فيه، فمنحها القلم وهو يغلف وجهها بنظرة فرح كانت تهفو إلى الانطلاق، أمسكت الفتاة بالقلم والدفتر في تردد، ثم حدثت سمير بنظرة عاجلة، قبل أن تنهمك في الكتابة. وبعد انتهائها من الكتابة بعد دقائق عديدة، ناولت سمير الدفتر، فاخطفه وشرع يقرأ ما قامت بتدوينه بغتة كست وجهه مسحة ذهول وتجهُّم كمن كان آخر عهده بالابتسام منذ أعوام، أجفل في اضطراب، وعلاه الوجوم وهو يقرأ كلماتها الصادمة:

- ألا تعرفني، يا مولاي؟ أنا من دعوتك إلى قلب، كما دعت امرأة العزيز فتاها، أنا التي من أجلك غادرت عالمها، واستروحت



دنياك، وأفرطت في العشق إسرافاً وشططاً حتّى كادت تشتعل
كالفتيل في سراجك.

في البدء صوّب سمير إلى وجهها نظرة خاوية مكدودة لم
تخل من الرثاء والعطف، ثمّ استأنف القراءة...

- شدّ ما لقيت من عناء، يا مولاي، فقد عشت غير هانئة طوال
الأعوام الماضية، أذرع العالم رواحاً وجيئة بحثاً عنك. لقد أضناني
السهاد والشوق حتّى كادا أن يفتكا بي فتكاً. لقد شغفتك حبّاً،
وصارت ذكرى عينيك منضدة الزينة التي أجلس إليها كي أترنّ
لرؤياك لماذا تتنكر لي يا مولاي، وأنا التي احتالت لسرورك دهوراً
وخطّطت ودبّرت لهناءتك؟ أرجوك، لا تغادرني الآن، وقد تعثّرت
عيناى بوجهك بعد طول انتظار.

أطفأت كلماتها العجيبة نور السرور في عينيّ سمير، فحذق
الفتاة بنظرة لو استحالت قبضة يد لأردتها قتيلة على الفور، ثمّ
استردّ نظره سريعاً، وتفرّس فيما تبقى من كلماتها.

- الأنوثة مزيج طالما افتخرت بها شأن كل امرأة، فهي تمنحني
من الأسلحة ما يمكّنني من الفتك بالعالم أجمع تستطيع الأنثى أن
تشعل فتيل الحب الوثاب فتسلق عروش الممالك، فحين يتألق



محيّاها الوضىء ويفوح عبق أنوثتها الفوّاح يمكنها أن تأسر كل فارس جسور وتأتي به إلى محرابها مصفّداً بالأغلال مثلما فعلت دليلة الداهية بشمشون.

الأنثى، يا مولاي، هي إيزيس تحيط ابنها حورس الإله بالرعاية، وهي ديفايكي والدة الإله كريشنا، ذات السلطان الوطيد. والأنثى هي آلهة الجمال أفروديت، وهي أثينا آلهة الحكمة، وهي أندروميذا الشابة العذراء التي قطفت المحاسن من كل روضة. وهي كذلك عشتار آلهة الإخصاب، والتي تقرّب إليها اليهود في تصوّف عزوف، وهي أيضاً ميدوسا الجميلة التي دنتت معبد الآلهة فصارت رمز الشر وراحت تحوّل كل من ينظر إليها إلى حجارة، هكذا المرأة تفعل بمن يتجاسر ويقتحم عالمها، راغباً في مخدعها الوثير أو خداعها مولاي، لقد تنازلت من أجلك عن مملكتي، وآثرت العبودية في محرابك، فلا تتخلي عني.

وحين هاله الأمر وأسقط في يده، احتدم الغضب في صدر سمير، فألقى بالدفتر على الأرض، وتحدّث إلى الفتاة غير عابئ بعدم قدرتها على السمع، وكأنّه يخاطب روحاً شريرة جاءته من عالم غامض قال دون أن يخالجه تردّد أو توتّر.



-إِذَا أَنْكَ مَجْنُونَةٌ أَوْ مَجْرَمَةٌ، فَمَنْ أَنْتِ؟ أَنَا لَا أَصَدِّقُ أَنَّكَ
خَرَسَاءَ، وَلَا أَتَقِي قَوَاكِ الْعَقْلِيَّةَ يَبْدُو أَنَّ هُنَاكَ مَكِيدَةٌ مَا تَدْبِرُهَا
لِي، فَلَا تَتْلَا عَيْبِي.

زوت الفتاة ما بين عينيها في دهشة، وارتجف جفناها
المحمَّلان بدموع حبيسة مترنَّحة، كمن تتأهب للبكاء، ثم أولت
سمير ظهرها ولم تنبس. استردَّ سمير هدوءه، فاقترَب منها في تَوَدَّة،
وراح يربت على كتفها، فأجهشت بالبكاء الحارق، حتَّى تَرامَى
صوت نحيبها إلى مسمع الأطباء في المستشفى.

دلف للفور طبيب الفتاة، وحَدَج سمير بنظرة تأنيب حين رأى
الفتاة تلوذ بالسادة باكية، كأنَّها تفضي إليها بهومها حين هاجت
شجونها. وحين استهول الأمر زجر الطبيب سمير في حق، وجذبه من
ذراعه خارج الغرفة، تملَّص سمير من قبضة الطبيب وقال في غضب:
-أنت لا تدري ماذا تريد الفتاة أن تفعل بي يبدو أنَّها تنصب
لي فخًّا، وأريد أن أكشف سترها قبل أن تنال مني.

-كفاك هلوسات خرقاء، أيها الطبيب ألم تكتفِ بأنَّكَ قد
غرَّرت بها من قبل؟ سوف أتصدى لمحاولاتك أن تعبت بمقدراتها
ثانية، فإن لم تغادر الآن، فسوف أبلغ الشرطة على الفور.



-أيُّها الطبيب، أنت لا تدرك شر تلك الفتاة لقد أخبرتني بأمور عجيبة، لا تصدر عن عقل واع.

- (في تهكم) أخبرتك؟ وكيف أخبرتك وهي بكما؟

-لقد كتبت في دفترتي أشياء تنبّهت لها كل حواسي في ريبة، وأصابتني بالحيرة.

-ماذا؟ وأين هذا الدفتر؟

-في الغرفة، دعني أسترده إذن، وسوف تدرك أنني على حق. لم يعقّب الطبيب، فاندفع سمير إلى الغرفة، وعاد يحمل الدفتر، قلب سمير الدفتر بحثاً عن الصفحة التي دوّنت فيها الفتاة اعترافها، أو جس سمير في نفسه خيفة، وسرت في جسده رجفة حين طال البحث ولم يجد تلك الصفحة.

راح في ذعر وارتباك يقلّب الصفحات، ويمزّق الدفتر في غضب كاد يصل إلى حد الجنون، وبعدهما حاول مليّاً، توقّف عن البحث، وتسّمّر في مكانه، وقد تدلّى الدفتر من يده لبرهة، ثم سقط من تلقائه على الأرض، بينما أطلق الطبيب ضحكات ساخرة، وهو ينظر لسمير في نوبة شماتة واستهجان، ثم قال متهكّماً:

-يبدو أنّ طبّاخ السم لا بد له أن يتدوّقه، يبدو أنّ مرضاك قد أثّروا على عقلك، يا عزيزي الطبيب النفسي.



لم يعقب سمير وظلّ واجماً ذاهلاً لبرهة، قبل أن يقذف الطبيب بالدفتر، ويغادر المستشفى.

ظلّ سمير يسترق السير في الطرقات الخالية من المارة، كأنّه يخشى أن يراه أحد في حالته تلك راح يفكر في أمر الفتاة، والحيرة تضيق بتساؤلاته ذرعاً وحين أنهكته الأفكار، وأرهقه الأسى، اتكأ على شجرة فوق الرصيف المقابل لمنزله، وراح يتأمله عن بعد، قبل أن يقرّر عدم الدخول أصابه شعور دفين بوجود شر كالكمين ينتظره في الداخل، فطاب له البقاء في الشارع الخالي.

تساءل في نفسه: هل هناك بالفعل قوى خفية تعبت بحياتي؟ ومن الذي يدفع هذه القوى في طريقي؟ ولماذا أنا بالذات؟ تذكر أمراً ما جعل عينيه تبرقان، فانفجرت أساريره وبدت نفسه قريرة كمن تعثر أخيراً في ملاذ يمكنه اللجوء إليه.

تراصت حشود من المولوية والمريدين أمام مسجد السيدة زينب لقد تجمّعت تلك الحشود من الرجال والنساء والأطفال في حيّ السيّدة لأيام طويلة، وظلّت ساهرة رغم البرد الشديد حتّى الفجر، وقد أتوا من كل صوب وحذب حتّى يستأنسوا بصحبة بطلة كربلاء، زينب أخت شهيد الإسلام الحسين بن علي في



يوم مولدها، وينالوا شفاعتها، كلُّ فيما يبتغي. وفي السُّرادقات،
والمقاهي المتنقّلة، وحول الخيام المنتصبة، ارتفعت دَقَّات
الدفوف ونغمات الربابة، وإيقاع الطبول، وأصوات المطربين
والمُنشدين، وانتفضت القلوب وامتألت بالبهجة، وأغرورقت
العيون بالدموع، وارتفعت الأصوات من حناجر الألوف ممتلئةً
بالحب الصوفيّ تنادي:

« يا رئيسة الديوان، يا أخت الحسن والحسين »

وكانت الأغاني المنبعثة من السرادقات في مكبّرات الصوت
تكاد ترحزح عربات الباعة الجائلين عن أماكنها، ويطرب لها
المريدون ويرددوها:

« سيدنا النبي، ولي النعم، مولانا، وأهل البيت، يا أهل
البيت.... »

إنّها ساحة المرأة الباسلة التي ظلّت تضمّد جراح الرجال في
معركة كربلاء من أبناء بيت الرسول وأتباع الحسين، حتّى سقطوا
جميعاً صرعى بين يديها، بعدما استبدّ بهم الظمأ.

انتشر الباعة الجائلون بعرباتهم الخشبية المكتظّة بأنواع
البضائع وهدايا الأطفال، كان بائع الترمس يختطف القلل المليئة

بالماء المثلج من أيدي المارة إلا من ابتاع منه الترمس والحمص،
ووقف بائع البطاطا المشويّة بعربته التي تحمل الفرن المعدني
الصغير والمدخنة التي تتصاعد منها أدخنة البطاطا اللذيذة فيسيل
لها لعب الحاضرين وأمام ساحة المسجد افترش المريدون البُسُط
ومنهم من تمدّد فوق بساط أرض الباحة التي تحيط بالمقام.

وفي ركن أمام المقام الطاهر كان الشيخ طه يغطّ في النوم وقد
توسّد مركوبه المتمزّق فأسند رأسه وراحته. كان الناس يدعونه
الشيخ طه، رغم أنّه لم يتخطّ التاسعة عشر من عمره. كان صبيّاً
يتيمّاً معتوهاً، تربى في رحاب السيدة بما يغدقه عليه المحسنون
لوجه الله، فقد استيقظوا يوماً ليجدوه في كنف رئيسة الديوان وهو
مازال في السادسة من عمره.

كان يتلحّف بثيابه الرثة المهترئة وفوق رأسه الشعثاء عمامة
بألوان الطيف معصوبة على طربوش أحمر يغطي شعره الذي
تشابك كأغصان الأيكة، فلم يكن يغسله البتّة إلا حين يترأّف به
أحدهم، ويجرّه جرّاً إلى إحدى الصنابير داخل المسجد، كانت
رائحته تشي بعدم الاستحمام لشهور ذات عدد، ورغم ذلك يتيّم
به الجميع ويتبارك بحضوره مريدو الست، فقد كانوا يؤمنون



ببركاته التي لا تعد ولا تحصى ولا ينفك الرجال يتوددون إليه،
ويسعد الأطفال بوجهه الممراح فيداعبونه في غدوه ورواحه.
وكانت النساء تستبشرن به خيرًا، وخاصة العواقر منهن، فقد أفتى
من أفتى من الفقهاء في باحة المسجد بكرامات الشيخ طه التي
تساعد في فكّ عقدهن.

وكان من بين هؤلاء الفقهاء أصحاب الاستنارة والمكشوف
عنهم الحجاب الشيخ داوود، صاحب الصوت الأجش الغليظ،
والذي لم يدخر جهدًا في استغلال كرامات الشيخ طه، حتّى ينال
القسط الأكبر من الأموال التي يغدقها المريدون على الشيخ الصغير
المبروك، وفي الليلة الكبيرة انهالت على الشيخ طه أموال المريدين
والمولوية، وأصناف من الطعام والملبس ممن جاءوا يسألونه
البركة لِمَا له من جلاء البصيرة، وكان الشيخ طه زاهدًا، فماذا تفيده
الثياب الجديدة، وما حاجته للطعام والمال طالما لم يشعر بالجوع
والظمأ؟ فكانت تلك النعم من نصيب الشيخ داوود، والذي نصّب
نفسه وصيًا على طه مذ صار وليًا من الأولياء في أعين المريدين.

اقترب سمير من الشيخ داوود وهو يدفع قدميه دفعًا، كمن
ينوء بأعباء المهام الجسام، ثمّ حيّاه قائلاً:

-كيف حالك يا أبي؟



الفصل الثالث عشر



«تَرى المَحْبِبِّينَ صَرعى فِي ديارِهِمْ .. كَفِيتِهِ
الْكَمْفِ، لَا يَدْرُونَ كَمْ لَبِثُوا.»

دار وجه الشيخ داوود بعيداً، بعدما حُدج سمير بنظرة باردة،
كمن يصفق باب منزل في وجهه، شأن من جاءه مستجيراً وبه لائذاً،
ظَلَّ سمير يدور حول الشيخ، ويستجديه الكلام، أو صد الشيخ
أذنيه، وراح يهزّ منكبيه ورأسه ذات اليمين وذات الشمال، ويتمتم
بكلمات غير مفهومة، كأنّه يطرّد روحاً شريرة، ثمّ صاح بغتة:

- يا سيدة زينب، يا أخت الحسن والحسين، يا صاحبة
الكرامات، اصبري في عني الشر.

بُهِت سمير عند سماع تلك الكلمات، فاقتعد الأرض إلى
جوار الشيخ، ووضع يده على ركبته، ثم قال:

- أعلم أنّك لا تريد أن تراني، ولا أستطيع أن ألوّك على هذا،



ولكنني أحتاج إليك يا أبي.

تسلّطت على عقل الشيخ رغبة في البكاء، ولكنه لم يعن لها،
فقال بصوت متهدّج، كادت تخنقه العبرات:

-أبي؟! الآن تعرف أنني أبوك؟

أطرق سمير برأسه في خجل، ثمّ تطلّع في وجه الشيخ
المتععض، وتراقصت على شفّيته ابتسامة هادئة، واستأنف قائلاً:

-أبي، أنا لم أهجرك، بل أنت من أراد أن يغادرني دون سبب.

- (في تهكّم) دون سبب؟! ألم تتهمني بالجنون، وكنت على
وشك أن تودعني مصحة المجانين؟

-لم أكن أنتوي فعل هذا قط، فقط أردت أن أثنيك عن طرق
الدرأويش والمجازيب، وأعيدك إلى صوابك.

-أنا لا يسوؤني أن أترأى للناس هكذا، فدعني وشأني.

حاول سمير أن يتفادى انزلاق لسانه، فراح يربّت على يد أبيه
لوهلة، ثمّ استطرد قائلاً:

-حسناً، ولكن يجب أن تعود إلى المنزل، يا أبي.

-أعود للمنزل، أم تقصد العيادة، حتّى أصبح فأر تجارب
لك؟ أنا لست مجنوناً يا هذا، وما حدث لي كان بسببك.



- (في رفق) عد معي إلى المنزل، وأعدك ألا أضايقك أنا
أحتاج إليك يا أبي.

- (في سخرية) وهل يحتاج الطبيب إلى مريض؟

- أنت لست مريضاً، وأنا ابنك ولست بالطبيب الذي يبحث
عن مريض هل نضب معين حبك لي، يا أبي؟
رمقه الأب بنظرة فاترة، ولم يعقب، فأضاف سمير:
- أريدك أن تقف بجانبني، يا أبي. هذا ليس مكانك، وهؤلاء
ليسوا عشيرتك.

ابتسم الشيخ في تنذر، وقال مزموماً الشفتين.

- يبحث النبات عن النور دائماً، حتى وإن وُضع في صندوق
به ثقب.

- وهل ما يراه هؤلاء هو النور الذي تبحث عنه؟

- (في سخرية) وما أدري الظلمة بأحوال النور؟

التوى سمير يرسل في الهواء ضحكات مكتومة، ثم قال:

- أتعصد أنني جاهل، لا أدرك النور؟ حسناً، يا أبي، ليكن.
أرجوك أن تعود معي إلى المنزل. أحتاج إلى مشورتك.



لانت ملامح الشيخ رويداً، فحاطط وجه سمير بنظرة تشي
برغبة في الغفران، ثم قال مستفسراً:

- ما الذي يؤرقك هكذا؟

- يبدو أن نوبات الماضي قد عادت لتراودني، وبضراوة.

أربد وجه الشيخ، وقطب جبينه في حيرة، وقال:

- ماذا تقصد؟

- هل تتذكّر تلك الأحلام والرؤى التي كانت تراودني في
طفولتي وصباي، وتقض مضجعي؟

- (في سخرية) هل جئت لتتطارح الذكريات؟

- (في جدية) أرجوك، يا أبي أنا أكاد أجنّ.

- طيب نفسي يجن؟ ياللعجب وكيف يمكن أن يحدث
ذلك، وأنت تعيش حياة هانئة، بينما يعيش أبوك حياة الدراويش؟

- (في حنق) ألم أتوسّل إليك أن تعود للمنزل؟ ألم أتضرّع
إليك كي تبعد عن هذه الحياة؟

- نعم، كمن على متن سفينة، يشير بإصبعه لغريق أن يصعد!
نخرت لهجة الأب القاسية شديدة الوطأة في نفس سمير،
فانتصب واقفاً، وقال.



-لم آت إليك لكي نتقاذف الاتهامات يا أبي، أنا لست على ما يرام.

ثابت إلى نفس الشيخ مشاعر الأبوة، فرفع وجهه وأطلق ابتسامة رائقة إلى وجه سمير المكفهر، فابتسم بدوره، وعاد ليجلس بجوار أبيه، ثم قال:

-أبي، يبدو أن نوبات الهلوسة عادت لتداهمني من جديد.
-كيف هذا؟

-أشياء عجيبة تحدث لي أرى أشخاصًا ولا أراهم، أقابل أناسًا لا وجود لهم، أسمع صوت مكابح سيارات من خلفي، فالتفت لأجد الشارع خاليًا تمامًا. هل تتذكر ما كان يحدث لي، يا أبي؟

-بالطبع، يا بني.
-إذن أخبرني بما كان يحدث لي في الصغر، علني أجد تفسيرًا لما يحدث لي الآن.

ران الصمت مليًا، بينما زوى الشيخ ما بين عينيه، كمن يستدعي الذكريات، ثم قال:

-ثمة ذكريات سارة، حين تواتينا، ينبغي أن نغادر المنزل،



فالأسقف والجدران لا تكفي للتحليق حينئذ، وثمة ذكريات حين تداهمنا، نتمنى أن ينتهي العالم على فوره.

- أرجوك أن تخبرني بكل شيء، يا أبي.

- (في تردّد) حسناً، يا بني حين كنت صغيراً، أصبت بحمّى قميئة وارتفعت حرارة جسدك بشكل مخيف، حتّى ظننّا أنّك لا محالة ميت، وقد أثرت تلك الحمى على مخّك.

- كيف، يا أبي؟

- بعدما شفيت من الحمّى بفترة ليست طويلة، ظهرت عليك أعراض اضطراب ما، فكنت ترى أشياء لا نراها، وتسمع أصواتاً لا نسمعها، وتحدّث إلى زوّار لا نبصرهم، وكثيراً ما كنت تستيقظ من نومك صارخاً، بعد نوم مثقل بالكوابيس.

- وماذا أيضاً؟

- بغتة اقترب أحدهم من الشيخ داوود، وجلس القرفصاء، ثمّ مدّ يده بحفنة من النقود، وأغدق على الشيخ بالطعام والملبس، ثمّ طفق يقول، بينما حدّجه سمير بنظرة استياء وحنق لمقاطعتهما.

- أرجوك يا شيخنا أن تدعو الله من أجل ابني.

لم يكثر الشيخ لنظرات سمير الغاضبة، وأردف قائلاً:



-وماذا به، يا بني؟

-ابني مصاب بسرطان الدم، وفي حالة متأخرة جدًّا، لقد سامنا مرضه العذاب.

-ياللمسكين! «رَبِّي إِنِّي مَسْنِي الضَّر، وَأَنْتَ أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.»
صدق الله العظيم.

-يا شيخ داوود، لقد جربنا كل الأدوية ومنها الكيماوي بالطبع، ولم يحدث أي تغيير لقد أوشك ابني على مغادرة الحياة، وقد أحرقت الأحزان أبداننا أنا وأمه حتَّى صارت أيامنا رمادًا مقبضًا.

قال الرجل تلك الكلمات، ثمَّ أطرق برأسه وانفجر في البكاء،
أشاح سمير بوجهه الغاضب عن وجه الرجل الباكي، وتجهَّم في
رثاء، ولكنه لم ينبس، فاستأنف الشيخ مواسيًّا:

-الألم يقدرح الروح، يا بني، والدعاء يطفئها، لا تيأس من
رحمة الله، فهو قادر على كل شيء، توكلَّ على الله، فهو خير
حافظًا، وسوف أدعو الله لابنك بالشفاء، إِنَّ الله دائماً ينصت
لأَنَّا تَنَا، فلا تبتس.

انحنى الرجل على يد الشيخ، وقبلها، ثم انتصب واقفًا،



وغادرهما وهو يجفّف دموعه بكفّه.

ساد الصمت مرة أخرى، حين شعر سمير بوخز الضمير لما أبداه من غضب نحو رجل تجل مصيبته عن كل عزاء، ثم قال:

- أخبرني، يا أبي بما حدث لي بعد ذلك.

- كثيرًا ما تراءى لك في الأحلام شيخ لم نعرف...

- (مقاطعًا) شيخ؟

- نعم كنت دائمًا تقول أنه يخبرك بأمور سوف تحدث، وأمور حدثت بالفعل.

- ماذا؟ ومن هذا الشيخ، يا أبي؟

- لم تخبرنا قط، وادّعت أنك تحيا حياته، وأنّ روحه تسكن في جسدك، حتّى ظننا أنّك مجنون، خاصة حين أخبرتنا أنّ هناك من يأتيك كالأنبياء ليوحى إليك بأمور روحية.

- إلى هذا الحد؟ ولكنني لا أتذكّر تلك الأمور.

- ذلك لأنّك خضعت لعلاج نفسي لسنوات، قبل أن تسترد صوابك.

- أتعني أنّي أصبت بالجنون بالفعل؟



-لم نكن ندري وقتئذ.

-وماذا أيضًا؟

لاذ الشيخ بالصمت، وراح يتفرّس في وجه سمير، كمن يجترّ
الذاكرة ليستدعي أحداث الماضي، ثم أبرقت ابتسامة فوق شفثيه،
وقال:

-أتذكّر شيئاً عن نهلة؟

-من؟ ومن تكون هذه؟

-فتاة شيخك الخفي!

- (في دهشة) ماذا؟

-كنت دائماً تخبرنا أنّ لشيخك فتاة يعشقها اسمها نهلة، وقد
أولاك مسؤولية رعايتها، وتركها وديعة لديك في المنزل.

-أنا لا أفهم شيئاً، هل رأيتم تلك الفتاة؟

مطّ الشيخ شفثيه في امتعاض باسطاً ذراعيه أمامه، ثمّ أستطرد يقول:

-الحقيقة أنّنا لم نرها، ولكن...

- (في اضطراب) ولكن ماذا؟

-كنا نسمع صوتها في غرفتك.



فغر سمير فاه، ولاذ بالسكوت، فأضاف الشيخ وقد داهمته
رعشة قميئة، بينما ارتجفت أطراف سمير، وهو يحاول التحايل
على اضطرابه بإخفاء كفيه بين فخذه.

-حين يسدل الليل نقابه، كنّا نسمع صوتها في غرفتك، وقد ظننا
أنك من يصدر الصوت لإخافتنا أو تصنع الجنون، حتّى جاء يوم
ذهبت أنت وأمك لزيارة خالك هيكل، وبقيت وحدي في المنزل.
اعتدل سمير في جلسته، وراح يتابع أباه في ذهول، حين
استطرد الأب قائلاً:

-كانت ليلة صامتة مثل ليل البراري، وبدأت أنوار المنزل
مطفأة عن عمد، فقد أبرقت المصاييح في المنازل المقابلة كنت
أتأهّب للنوم حين دنا من مسمعي صوت متكرّر في غرفتك، كان
صوت يشبه بكاء طفل متهدّج الصوت يعاني من الحمّى، أو مواء
قطّة تتأوّه كأنّها تضع صغارها، لم أعر للأمر اهتماماً في البداية،
وحاولت ما وسعتني حيلتي أن أستدعي النعاس الذي فرّ من عينيّ
عند سماعي لتلك الأصوات، لم أستطع ذلك برغمي، فقد ازدادت
الجلبة نهضت من الفراش وألقيت نظرة على ساعة المنبّه بجواري
كان الليل قد انتصف بالفعل منذ أكثر من ساعة.



كنت أرتعش من رأسي حتّى أخمص قدمي، فقد كان البرد قارسًا، وبين إقدام وإحجام دلفت إلى غرفتك أضأت المصباح الذي راح يرجف ويخفت ضوءه رويدًا رويدًا كأنه يعنو لظلمة آتية، بينما اضطربت أحشائي ووهنت ساقي، حتّى كادت لا تقويان على حملي لم أجد شيئًا غريبًا سوى أنّ الكرسي بجوار الشرفة كان يهتز كأنّ أحدهم قد غادره لتوّه، وصوت أنفاس لاهثة مرّت كالبرق بجوار أذنيّ، كأنّ شخصًا أو شيئًا ما قد فرّ هاربًا من الغرفة. ارتعدت فرائصي، ولم أحرّك ساكنًا لبرهة، وظللت أحدّق في الغرفة لثوان، ولم أشأ أن أغادرها لفوري، كأنّي أخشى أن أخرج منها لأجد ما أو من كان فيها في انتظاري في الخارج، تسمّرت في مكاني، وأنا أراقب الكرسي الذي توقّف عن الحركة بغتة، ومال للأمام بشكل غريب، كأنّ هناك من يقتعده ويتأهب للوقوف.

استدعيت ما تبقى داخلي من شجاعة، وتراجعت بظهري دون أن أشيح بوجهي عن الكرسي، فاصطدمت بالباب لم أغلقه، أتذكّر أنّني لم أغلقه، ولكنّ يدًا ما قد فعلت هذا فتحت الباب وخرجت من الغرفة دون أن أطفئ المصباح، وبينما كنت أبتعد عن الغرفة وعيناى مثبتتان على الكرسي في ركن الغرفة، دفعت



يد خفية الباب فجأة، وصفقته في وجهي، فدوى صوت المزلاج
وسط سكون المنزل الراكد، انفلتت من بين شفتي شهقة رغمًا
عني، وهرولت إلى غرفتي، وجسدي يرتجف كمن أصابته حمى.
أوصدت الباب خلفي بالمفتاح، وجلست على طرف الفراش في
انتظار ما قد يحدث.

ظللت أرتجف وأكاد أصيح من الذعر فجأة انطفأ مصباح
الغرفة، وساد الظلام إلا من أشعة الضوء الآتية من الشارع عبر النافذة
بغثة طرق مسامعي صوت وقع أقدام وأنيبًا حزينًا منخفضًا، كأنَّ
أحدهم يردّد لحنا جنازياً. اقتربت من نافذة الغرفة، وأطللت منها
على الشارع الذي خلا من المارة تمامًا. رددت ناظري بين المنازل،
فكانت أغلبها حينئذ معتمة، فقد غطّ الجميع في نومهم، قرّرت أن
أشعل شمعة لأضيء الغرفة، فلن أظل هكذا في الظلام، كانت هناك
شمعة في درج في دولااب الملابس، فدنوت منه، وفتحت دلفة.

شعرت لفوري أنَّ شعر جسدي كله قد انتصب واقفًا حين
أبصرت طيف جسد داخل الدولااب، فارتددت للخلف وصرخت
بصوت مرتفع، حتّى أحسست أنَّ صرختي قد دوت في جنبات
الشارع، وظننت أنني ربّما قد أيقظت النيام من الجيران. وبعد



تدقيق أدركت أنَّني قد أخطأت من شدة الفزع، فقد رأيت معطفي
المعلّق فوق المشجب جسداً يحدق في وجهي، اقتربت بحذر منه،
وأمسكت به في غضب وأنا أكاد أشتاط غيظاً، فلم يكن ينقصني من
الفزع شيء. تنفست الصعداء حين تيقّنت أنَّني كنت أتوهم، نسيت
أمر الشمعة وعدت لأجلس فوق الفراش، كأنّني ألتقط أنفاسي بعد
معركة ضارية، لم أكد أستفيق من الذعر الذي داهمني حتّى رأيته
تمر من أمامي في هدوء مميت وسط ظلمة الغرفة القائمة.



الفصل الرابع عشر



«وليلة الهجر إن طالَتْ وإن قصُرَتْ.. فمؤنسي
أملٌ فيه وتذكُّار، إنِّي لراض بما يرضيك من تلفي..
يا قاتلي ولما تختار أخنار»

كمن ألجم هول الخاطرة حركته، جلس سميع ينصت إلى
والده الشيخ دون أن يعقّب، فاستأنف الأب قائلاً:

-لم أدر من هيّ، ولم أعبأ بمن تكون، بقدر ما أصابني الهلع وأنا
أرمقها بنظرة اختلطت فيها كل مشاعر الخوف والاضطراب، بينما
اكتفى جسدي بموت مؤقت، وقد جحظت عينا في محجريهما،
ولم أنبس بينت شفة كانت ترتدي قميص نوم فضفاضاً شفافاً رغم
ذلك لم أبصر جسدها خلفه، فقد كان جسدها نفسه شفافاً، حتّى
أنّني كنت أرى الغرفة من خلاله.

فجأة استدارت ورمقتني بنظرة عابسة لن أنساها، نظرة غضب



وحيرة من عينها البرأقتين. تراجعت بجسدي للخلف واستندت على ذراعيّ حتى لا أسقط مغشيًا عليّ فوق الفراش. تطلّعت إليها بنظرة متوسّلة، فقد أحسست بأنني لا حول لي ولا قوة، وتمنيت لو أدركت ما يجيش في نفسي وأشفقتُ عليّ من هذا اللقاء المريع، أشارت بسبّابتها إلى شيء ما فوق الحائط، فالتفتّ ولم أجد سوى آثار لوحة كانت معلّقة فيما مضى وقمت أنت بنزعها من فوق الحائط، فلم يبق منها سوى أثر باهت اللون وإن بدا أحدث من طلاء بقية الحائط لم أفهم مغزى إشارتها، فhezزتُ رأسي وكتفّي مستفسراً بدت كأنّها تحاول أن تنطق بكلمات ما، ولكنها لم تفعل. اتجهت صوب الحائط إلى الموضع الذي أشارت إليه، كما لو كانت تريد أن تُريني شيئاً ما. جلست أراقبها دون حراك، وقد ثابت إلى نفسي بعض السكينة، فلم تكن تبتغي شراً كما أدركت حينئذ، وحين اقتربت من موضع اللوحة المنزوعة، استدارت ووسطعت فوق شفّتيها ابتسامة، ثمّ عبرت بجسدها في الحائط حتى اختفت تماماً.

رنا سمر إلى أبيه طويلاً بنظرة حائرة، وقد كفّ أبوه عن الكلام، وراح يفرك حبّات المسبحة، ويتمتم بالكلمات في ضراعة



واستجداء، أفاق سمير من شروده حين اقترب أحدهم من أبيه،
وناوله حفنة من النقود، وهو يستجديه الدعاء والبركة، فانتصب
سمير واقفاً، وزجره في ازدراء، غادر الرجل المكان وهو يحرج
سمير بنظرة داهشة، فانحنى سمير ونظر في عيني أبيه وقال في حنق:
-أريد أن أعرف ما حدث بعد ذلك.

اعتدل الشيخ داوود في جلسته، ورمق ابنه في أسى وقال:
-لقد ظللنا نراها في المنزل لفترة طويلة حتى كدنا نعتاد
وجودها، حتى جاء اليوم الذي غادرت فيه المنزل إلى المصححة.
يبدو أنها كانت تريد أن تبقى في صحبتك أنت.
-وبعد عودتي من المصححة.

-لم نرها بعد ذلك قط.
ران الصمت لبرهة ظلَّ فيها سمير يقطب جبينه، كمن يحاول
أن يسترجع الذكريات، ثم استطرد قائلاً:
-ولكنني لا أتذكر أيَّ شيء من هذا.
-لأنك كنت مريضاً، وشفيت، يا بني.
-(في حيرة) أتقصد أن المرض قد عاودني الآن؟
-لماذا تقول هذا؟



-لأنَّني أرى أشياء عجيبة وقد اقتحمت حياتي فتاة تبدو من العالم الآخر.

زوى الشيخ ما بين عينيه، وطفق يغمغم بالدعاء وهو يمرر
حبَّات المسبحة بين أصابعه في توتُّر، ثمَّ قال مواسياً:

-لا تقل هذا يا بني، فقد شفيت تماماً من هذا المرض.

جعل سمير يدور حول نفسه في حيرة وهو يمسك جبينه
بإصبعيه، كمن يعتصر عقله، ثمَّ توقَّف بغتة واستدار ليرمق أباه
بنظرة جاحظة مرعبة، وقال:

-إذن لماذا تركت المنزل؟

أطرق الشيخ برأسه ولم ينبس، فجلس سمير القرفصاء وصاح
في وجهه قائلاً:

-أخبرني، لماذا تركت المنزل؟

-(في تردُّد) لأنَّه قد صار مسكوناً بالجن والعياذ بالله.

-(في دهشة) ماذا؟

-غادرت الفتاة وحلَّ محلَّها الجن والعفاريت.

-هل تهذي، أم ماذا؟



-تلك هي الحقيقة يا بني كنت أراهم كل ليلة.
-ولكنني أعيش في المنزل، ولا أرى أي شيء مما تحدثت عنه.

رمقه الأب بنظرة تجمع بين الرثاء والتهكُّم، وقال معقَّباً.
-أمتأكد أنت من ذلك؟

جحظت عينا سمير، وهبَّ واقفاً تراجع للوراء وهو يحدق في وجه أبيه المبتسم في رثاء، ثمَّ غادر المكان.

ذهب سمير لفوره إلى المستشفى، قبل أن يعرج على منزل صديقه يوسف، والحيرة تكاد تفتك به فتكأ أحسَّ لأول مرة بالعجز والوهن يدبَّان في جسده، كما أصبحت ذاكرته بيضاء، لا تسجِّل شيئاً، بل تمحو كل شيء دلف إلى المستشفى، واستفسر الطبيب عن الفتاة، فتلعثم الطبيب ملياً، ثمَّ قال في اضطراب.

-لقد اختفت.

-ماذا؟

-نعم، يا دكتور سمير، اختفت، ولم نجد أي أثر لها. العجيب أننا لم نر أي شيء في كاميرات المستشفى الملحقة بغرفتها، لقد اختفت في لحظة عجيبة، كمن تبخَّرت في الهواء.



أصابَت المفاجأة سمير بالذهول، فلم يتفوّه بكلمة، تأهّب لمغادرة المستشفى وراح يجرّ قدميه جرّاً، حين استوقفه الطبيب قائلاً:

-دكتور سمير، أريد أن أعتذر لك عمّا بدر منّي نحوك يبدو أنّك كنت على حق.

-ماذا تقصد؟

-يبدو أنّ هناك أمراً غامضاً بشأن الفتاة.

-وكيف أدركت هذا؟

-لأنّني رأيت أحدهم بصحبته في الغرفة.

-من؟

-شيخ طاعن في الغموض، مبهم الملامح رأيته حين دلفت إلى غرفتها في نوبة الليل.

ظلّ سمير يحدق في وجه الطبيب ذاهلاً، فاقد النطق، فاستأنف الطبيب قائلاً:

-وقفت دون حراك أراقبهما، كأنّني قد نسيت أنّ لي أقداً ما تستطيع أن تفرّ هاربة، بدا الشيخ في أبهى صورته حين وافاها في غرفتها، فقد عقد اللاسة الفاخرة فوق رأسه، وارتدى عباءة ناصعة



البياض، ولبس المركوب الزاهي اللون، وتحلّى بخاتم ذهبي ضخم في البنصر، وفاحت منه رائحة المسك العطرة الدسمة. فغرت فاهي حين جاءني صوت الشيخ كأنّه صدى يأتي من مكان سحيق «استيقظي - يا نرجس، يا حبيبتي، من نومك!»

جحظت عينا سمير حين نطق الطبيب باسم الفتاة، وقال في دعر.

-نرجس؟!!

-نعم، هذا ما ناداها به.

استبدّ الوجوم بسمير كأنّ أضواءً كهربائية كثيرة قد انطفأت في وجهه واحدًا في أثر الآخر، ولم يبنس، فاستأنف الطبيب.

-كانت بين اليقظة والغفلة، فلم تدرك أنّهما استحوذ على الآخر فيها حين نهضت، واقتعدت الفراش في حركة مباغته أمام الشيخ الذي وقف قبالتها مبتسمًا، دون أن تفزع لرؤيته، فقد أصابتها صورته النورانية بسكينة عجيبة، لم تحرك معها ساكنًا، وقد عقدت المفاجأة لسانها ولساني أيضًا، فلم أستطع أن أتفوّه بكلمة شأن من ابتلع لسانه دعرًا، اقترب الشيخ منها أكثر وأكثر، وانفجرت أساريه تمامًا، ونظر في وجهها في رقّة وحنو، ثم راح يدور حولها كمن يطوف في ساحة الكعبة، ويرفع يداً ويخفض يداً



في رقصة عجيبة تشبه رقصة سماع.

نهضت الفتاة من فراشها وأسلمت نفسها ليديه وهي تخاطبه
بـ«مولاي»، فراح يراقصها في تؤدة، وظلاً يدوران في الغرفة دون
أن يدركا وجودي، أو ربّما لم يكثرثا لوجودي، كما هي الحال
في مسرحية عثمانية قديمة من مسرحيات الظل، ثمّة ستارة كانت
تفصل بيني وبينهما، فكانا كشبحين يهيمن على وجهيهما.

دسّ الشيخ يده في جيب العباءة، وأخرج علبة صغيرة حمراء
اللون، كالتي تحفظ فيها الهدايا من الجواهر والحلي، ومدّ يده
بها إليها، رفعت حاجبيها في تساؤل، فابتسم الشيخ وأوماً برأسه
أن تقبلها دون أن تنبس بكلمة، وبين إقدام وإحجام مدّت يدها،
وأمسكت بالعلبة في توجُّس، ثمّ فتحتها، فوجدت بها خاتماً ذهبياً
يكاد من لونه البرّاق أن يخطف الأبصار.

في حيرة آسرة رفعت للتوّ وجهها وتطلّعت في وجه الشيخ،
فلم تجده، راحت تبحث عنه في كل ركن من الغرفة، وقد أصابها
شيء من الهلع، في ذهولي لم أدرك كيف اختفى الشيخ هكذا، وما
مغزى ذلك الخاتم؟

-وهل استفسرتها؟



- حين استدرت لأضيء مصباح الغرفة اختفت لفورها، ولم أجد في الغرفة سوى الهواء البارد الذي امتلأت به، وظلّ يندفع إلى جسدي حتّى ظننت أنّ شيئاً ما قد مرّ من خلالي.

تجمّدت قدما سمير، وامتقع وجهه، وهو يحدق في وجه الطبيب في دهشة، صارت الأفكار في عقله كما العملات الورقية في ماكينة الصرّاف الآلي، كلّما انتهى من استيعاب رواية عجيبة، تبعتهارواية أخرى أعجب وأكثر غرابة، ظلّ يدور في شعور حارق دائم بالتية والحيرة، فقال في أسى:

- يبدو أنّها تطاردني حتّى القبر.

- من تقصد؟

- نرجس.

- إذن كنت بالفعل تعرفها، يا دكتور سمير.

- أعرفها ولا أعرفها.

- (في حيرة) لا أفهم.

- يوماً ما سوف تفهم كل شيء.

بظهر محدودب وجفنين مثقلين بالإعياء غادر سمير المستشفى، دون أن يعبأ بالحيرة التي كست وجه الطبيب.



كان بصر سمير مشدودًا إلى الأفق بخيوط غير منظورة، وهو
يجوب الشارع الذي ران عليه سكون كثيب، كان وجهه باهت
اللون، كأن قاع نفسه قد طفا على سطح حدقتيه، استرعى انتباهه
فتاة كانت تسير في الطريق المعتم الخالي من أي شيء خلق من
لحم ودم، كالشبح الذي ضلَّ طريقه إلى مرقده، بلا هدف، منخرطة
في بكاء مر، شأن من فقدت عزيزًا على قلبها لتوها. استنفدت كل
مناديلها الورقية الهزيلة، فلجأت إلى أكمامها، ووشاحها.

بغثة أبرقت مصابيح سيّارة قادمة في تودة نحوها أبطأ السائق
من سرعته تمامًا حين اقترب منها، دعاها إلى الصعود، فلم تعره
اهتمامًا، وظلّت تتحب وتخفي وجهها الذي غطّته الدموع تمامًا.
لم يفقد السائق الأمل، فراح يدغدغ أذنيها بكلمات الغزل العفوي
المرتجلة، لم تأبه الفتاة، فقفز بناظره من نافذة السيارة إلى وجهها
الملائكي المنسجم التقاطيع، ورأى ما تبقى من مساحيق الوجه
وكحل العينين، وقد اختلطوا بدموعها، فارتسمت فوق وجهها
أروع لوحة تمثل الحزن الأثوي المكسور الأجنحة.

أوقف سيّارته، واقترب منها وجعل يستفسرها عن دموعها
التي تمزّق القلوب، حين تترقق في عينين بريئتين كعينها لم تجب،



أَلَحَّ في صعودها إلى السيارة، أشاحت بوجهها بعيداً، ولوّحت بيدها بحركة عنيفة، ورمقته بنظرة متسعة من فرط الغضب، أشار لها بكلتا يديه أن تهدأ، فلم يكن ينتوي سوى أن يخفّف عنها، لانت ملامحها، ولكنّها لم ترضخ لمحاولاته بعد. هو أيضاً لم يئأس بعد، رافقها إلى سور حديقة، صنّع من الرخام والقضبان الحديدية الوارفة على جانب الطريق، دعاها برفق للجلوس فوق السور، وجلس بجوارها.

لم تنفّوه بكلمة، فانتظر برهة قبل أن يستأنف قائلاً: هل يمكنني مساعدتك؟ لم تجب، فأعاد على مسامعها السؤال. نكّست رأسها، وتمتت بالرفض، عرض عليها أن يرافقها إلى منزلها، فانتصبت فجأة ونظرت في وجهه في دهشة وقالت: منزلي؟ لا، لا، لن أعود مهما كلّفني الأمر، انفرجت أساريه فقد طفقت بالكلام أخيراً، وبدا عليها الرغبة في البوح.

وقف سمير يراقبهما في صمت، وقد تملّكه ميل قوي للانتظار. ربت الرجل على يدها وطلب منها أن تجلس ثانية وأن تسرد عليه قصتها، عادت لصمتها المطبق. أشاح بوجهه بعيداً في تأفّف لم تلحظه، فقد كانت ما تزال منكّسة الرأس فكّر في تركها وشأنها،



وتأهب للرحيل، حين فاجأته بالوقوف، والتوجه إلى سيّارته،
والصعود إليها دون أن تنبس بينت شفة، وجلست تنتظره داخل
السيّارة وقد صعقته المفاجأة، حتّى أنّه ظلّ في مكانه بلا حراك
لثوانٍ، اتسعت ابتسامته المنتصرة، واتجه إلى السيارة في نشوة.

اقترب سمير مبتسمًا نحو السيارة ليرى وجه الفتاة التي
أسلمت نفسها لنزوة، الله وحده يعلم نهايتها، فتطلّعت الفتاة إليه
من نافذة السيارة لدهشته، أبرقت فوق شفيتها ابتسامة متسعة
ساخرة، وهي ترمقه بنظرة تهكّم وازدراء، دنا سمير من السيّارة،
وحقق في وجه الفتاة التي أطلقت الضحكة تلو الأخرى، تحوّلت
البراءة فوق صفحة وجهها إلى شرّ مبین، فبدت كامرأة خبرت
لهو الغواني ونزوات المحصنات، وذوقت جميع المحرّمات حتّى
سئمتها. تعجّب سمير كيف تحوّلت الفتاة التي بدت ساذجة إلى
غانية لعب، تحذق الهوى والمتعة لقد تبدّلت ملامحها بغتة، وكاد
يقسم أنّها لم تكن نفس الفتاة الباكية التي رآها منذ دقائق معدودة.
انطلقت السيّارة مسرعة بالفتاة، فانتبه سمير من غفلته، وصاح

وهو يلوّح بذراعه: نيروز!

الفصل الخامس عشر



«العين تُبصر من تهوى وتفقدُه.. وناظر القلب
لا يخلو من النظر، إن كان ليس معي فالذكر منه
معي.. يراه قلبي وإن غاب عن بصري.»

بينما عنت الشمس للمغيب، استقلَّ سمير المترو إلى منزل
يوسف ونيروز، بعدما أضاءته الحيرة واستبدَّ به الاضطراب،
رغم أنَّ وجهه لم يعد يحمل إمارات الدهشة، كأنَّه شعلة رُدمت
بتراب كثيف، كانت عربة المترو خالية من الركَّاب إلَّا من صبي
في العقد الثاني من عمره، ورجل عجوز، بدت من هيئته أنه يجوب
المحطات، يستجدي الركاب الإحسان، ظلَّ العجوز يرمق سمير
بنظرات متوسَّلة بائسة، بينما استلقى الصبي فوق المقاعد الخالية،
وغطَّ في النوم، ظلَّ العجوز يعلِّق ناظريه بوجه سمير، كأنَّه جزع
شجرة جاءت لحظة غرق، فظلَّت وجه سمير سحابة كدر وأشاح
به بعيدًا، محاولاً تفادي نظرات العجوز الثاقبة الملحة. اقترب



العجوز وباغته قائلاً:

-أنا جائع يا بني، ولم أذق الطعام ليومين كاملين.

وجم سمير صامتاً وغلبه التأثر، فدسَّ يده في جيبه وأخرج بعض النقود وناولها للعجوز، الذي انفرجت أساريره وأغدق على سمير بالدعوات، ثمَّ عاد إلى مقعده، ظلَّ سمير صامتاً، مطرّقاً برأسه، كمن ران على صدره همٌّ عظيم، وإذا بفراغ قاتم يحلّ في عينيه، فبدتا كأنهما ينظران للداخل، حنى رأسه في أسى، وركن إلى سكون عميق.

بغته شعر بأحدهم يقترب منه، ففتح عينيه لفوره، ليجد العجوز يقف قبالته، وقد تغيّرت هيئته تماماً، بدا هندامه أكثر أناقة، وهو يرفل في ثوب شيخ صوفي وامق، ظلَّ سمير يتأرجح بين الواقع والخيال، كأنهما طفلان يتشيطان أمام ناظره ويعذبانه، حتى تاب إلى رشده، فحدق في وجه الشيخ، ذي الابتسامة المتسعة الواثقة، وانطبقت شفاته في حنق وقال:

-من أنت؟

-أنا من أغدقت عليه بالخير، يا سمير.

-العجوز؟



-نعم، أنا هو لا تفزع!

-ولكنك تبدو مختلفاً تماماً، ولا يوجد أي شبه بينكما.

-من قال لك أن الشبه دائماً في الملامح، يا بني؟

أرهف سمير السمع حين جاءه صوت تلاوة القرآن، فسدد بصره نحو الصبي، كان الصبي يجلس في وضع زهرة اللوتس، ويضع كفيه أمام أذنيه، ويتلو آيات القرآن، لم يعر الشيخ انتباهاً إلى الصبي، وظل يرمق سمير بنظرة لاهية، ثم قال بإصرار وعصبية ينذران بالعناد:

-لماذا تطارد فتاتي، يا سمير؟

-(متسائلاً في إنكار) فتاتك؟ ومن تكون فتاتك؟

-أنت تعلم من أقصد، لا تتحاذق، ولا تحاول أن تبعدها عني، فلن تستطيع فتاتي لم تهن لها عزيمة، ولن يدرك عشقها الكلال.
-من هي فتاتك تلك، أيها الشيخ؟ أنا لا أعرف عمّن تتحدث.
أبرقت عينا الشيخ بألق بازغ، كمن ينبري لإلقاء خطبة أو قصيدة شعر، وطفق يقول في تشوُّف ووله.

-حبيتي صاحبة الجلالة في البدء كان الحب طائراً في قفص عينيها ثم انطلق، ذات يوم رأيت عينيها النجلاوين ترمقاني من



وراء برقع، وجسدها الریان، الذي يعز على الوصف، يخترق أسوار النفس المنيعه، ويضرب بسهام المقلتين ورماح القدّ الممشوق قلاع التيبس في القلب العتيق، ويعلن احتلال العقل. ينفر نهداها، وتتفجر أنوثتها المتوثبة، فيرضخ الفؤاد للغزوات، وينحنى ليقبل يديها، مثلما يقبل المريدون خاتم المولى.

تلاّأت فوق شفّتيّ سمير ابتسامة ساحرة، وهو ينصت للشيخ في ضجر، فاستأنف الشيخ قائلاً:

-أسلحتها أنثوية مشرّعة للفتك بكل حصن انتصب ليزود عن الكبرياء، التي طالما كانت تشمخ.. تدور رحي الحرب، ويسقط القلب مضرّجاً بدمائه، حين تزايله من فرط الحب كل قدرة على المقاومة، ضربت بغمازتيها وأنّاتها رواقاً من العبودية على سمعي وبصري، فأخمدتُ شعله ثورتي، وأعلّنتُ من أجلها الاستسلام دون شرط!

بغته أرسل سمير ناظريه إلى مؤخرة العربة فرأى الفتاة الخرساء مقبلة نحوه كأنّها تخطو فوق أجنحة الهواء، في رداء فضفاض، يتلهف للقرب من جسدها مع كل نفحة هواء تصطدم به، فيكشف عن سر من أسرارها، كان وجهها مشرقاً، لو شُبّه بالملائكة، لكان تملّقاً للملائكة، وعينان سوداوان مغرقتان في



السحر، وشفتان ممتلئتان منحوتتان و متحديتان، تقفان للناظرين
بالمرصاد، ورقبة سامقة كأبراج الكنائس القوطية، ونهدان متوثبان
كثمرتي رمان طازجتين، وخصر نحيل مثل قارورة خمر، وساقان
تبرقان في الضوء كأنما قدتا من ذهب.

تجلى الشوق والفرح في عينيَّ الشيخ الزاهد، وهي تقترب منه
في تؤدّة، بينما فغر سمير فاه، وقام نصف قومة لمغادرة العربية، لكن
سرعان ما جلس مدهوشاً، حين استوقفته الفتاة مبتسمة، وقالت:
- لا أحد يغادر مجلس مولاي دون أن يؤذن له.

أربد وجه سمير وارتعدت فرائصه، حين رمقته الفتاة بعينين
خاليتين من بؤبؤيهما، فلزم مقعده برغمه.
دنا الشيخ من الفتاة، وحاط خصرها بذراعيه، وتفرّس في
وجهها، ثم طفق يقول:

- تحطّمت صلابتي على صخرة حُسنها الآسر، المنقطع
النظير، فقرّرت ألا أفلتها، وألا أستنهض لمقاومتها همّتي، تأتي كل
ليلة، فتتزع خنجر الكلمات من شفّتيها وتغمده في صمّتي المطبق،
فأنظم من أجلها الشعر، وأنا الأبكى الذي اعتاد أن يحاور العالم
من حوله بالإشارات.



أشار سمير بإصبعه إلى الفتاة وقال مرتعدًا:

-ولكنّها شبح فتاة، يا شيخنا.

-كم ارتعدت فرائصي حين حاولت جهدي أن ألوذ بالفرار منها، وما وسعتني حيلتي، احتلّت العظام في جسدي حتّى النخاع. آخرست الرعد في صرخاتي انهمرت فوق الرأس مدرارًا كأمطار متكبرة هاجمتني بجسدها الفائر بضراوة، وأكلت جسدي الذي قدّمته طواعية على مذبحةا قربانًا حيًّا، شربت من دمي الذي سال مع أول طعنة من عينيها الكحيلتين، فتهاويت كالمدبوح، ولفظت بين يديها آخر أنفاس الزهد.

بُهِت سمير حين هاجت التساؤلات في ذهنه، وأحسّ بدوار خفيف، والحيرة الواجمة تنهش فيه، فاقترب من الفتاة وحاول أن يلمسها، التفتت الفتاة إليه ورمقته بعينين متوهجتين وذوب ابتسامة مدّ سمير يده في تردّد ولامس ثوبها الفضفاض، رنت الفتاة إليه بعينيها، بينما وقف الشيخ يتفرّس في وجهها، كأنّه مُتَبَلِّل في محراب أمام صنمه المعبود، أحسّ سمير بقشعريرة تدبّ في جسده، فارتدّد للوراء، وانكبّ على نفسه ولاذ بالصمت أردف الشيخ قائلاً:

-فتاتي الأمواج الثائرة المقدامة، ترجم شاطئ صدري،



وتمحو من فوقه قلعة بنيتها من الرمال، وأنا أُمْنِي النفس بالانتصار
في آيَّة غزوة تأتيني من مجاهل البحار، وهأنذا أرقد كمنزل خشبي
تحطَّم في قبضة إعصارها، وأرفل في قيودها، وأسامر في انتظارها
ظلمة وحدتي الباهرة، أنا لست قتيلاً، بل ضحية نفسي، فكلَّما
اعتدتُ غيابها، أفقد ذاكرتي، وأعود أسقط في شباك عشقها والشوق
إليها من جديد. انقدوني منها - يا أحبائي - فقد أخذتني مني، ولم
تردني إلي!

في ريبة وشطط أرسل سمير ناظريه إلى الصبي الذي يتلو
آيات القرآن، فوجده ساجداً، يغمغم بالكلمات، ويرفع يديه نحو
السماء، دون أن يعبأ بما يدور حوله. طفر من عيني الشيخ الدمع،
وهو يطوق جسد الفتاة بذراعيه، ويقول:

-لقد أقضت في الأماسي مضجعي، فلم أنم إلا لماماً، وحين
أغفو، تأتيني هرولة في منامي، تقرأني السلام إلى النفس مثل
قسيس يمنح الغفران، وتعبر في دروب وشعاب قلبي حتى تضلَّ
الطريق، تغوص إلى أمداد سحيفة في اللاوعي، وتطرح أضغاث
أحلام عيناها تبرقان شقاوة، وتعابثني دون خجل أستبيح جسدها
المتناغم ألحانه، وأعزف آخر سيمفونيائي أرى الوقت معها ينصهر،



يذوب، يفرّ أمتطيها وهي تصهل في العراء، تأخذني صاغراً إلى دنيا
شهرزاد التي تجيد خلقها من جديد، أصير مثل قمر الدين وأعشق
فيها ابنة القاضي، أمخر البحار مثل نور الدين أبحث عنها في بقاع
الأرض أنا من أجلها «دون كيخوته»، أخوض معارك، وأنتصر من
أجلها على ذاتي.

تهالك سمير فوق مقعده، واستكان للمشهد حين احتضن
الشيخ الفتاة، وراحا يترقصان، وهو يتحدث عنها كمن يتهلل
إليها، ويستعذب من أجلها الألم، قائلاً:

- امتثلت لأمرها حين أشارت بيدها، التي ازدانت بتكوينات
الغواية، مرسومة بالحناء الفرعونية كي أتبعها، أين يا صاحبة
الجلالة ستقوديني؟ إلى عوالم من السحر، إلى وطن الجنّيات
السبع، وعرش النعمة، مثل علاء الدين فوق ردائك المحمل
بالعبق أطيّر، أرسل بصري، أرى أرضاً غير كروية، وسماء شفافة
كالبلّور، أرض خضراء كالفردوس، وسماء ممهدة كسطح المياه.
أسترعى النظر - لا، ليست هي الأرض، ولا هي السماء. إنهما
خدّاك الأسيان!

تبرقين وترعدين، تنداح الصور البرّاقة في ذاكرتي، يملأ



صوتك العذب الحواس، فأتبعه، كأنني أسير نائمًا أتلهى بنبرات
صوتك لأواري سوء أحزاني أعزف على الناي مثل «أورفيوس»
كي أغوي الآلهة وأحظى بدقائق معك يا «يوريديس». أنظر رغما
عنهم للوراء، وأملأ العينين من جمالك على ملء الأشهاد ولا أفقد
أثرك، تأتيني تنشيبين أظافر أنوثتك في جسدي، فتشبُّ في أضلعي
جمرات لا تطفئها الشآبيب أنتهز البادرة وأخلع عليك تاج قلبي
الظامئ يسري في جسدي دفء كفك الناعمين مثل خدر هنيء،
لا أكف عن سفك أنوثتك سفكًا، فلا تنسي - يا مولاتي المتوجة،
أنني صاحب الحلم، ومالك المنام!

أنا المريد الذي يؤم مقامك حين تبتغين الارتواء. أنا الصوفي
الذي يزعم في تجلياتك، يكاد - من فرط نشوته - باسمك يخاطب
السماء أنا الحالم الذي قطعت عينك عليه سبيل الرقاد، فصار
مجذوب الحي في حضرة الأميرة، يسامر الأرق، يحصي رمال
الشواطئ، يصعد زفرات شوق إلى كبد السماء، فيساقط المطر،
ويروي صحراء دنياه. أنا - يا أميري - من تقذف به الأشواق
المشوبة في متاهات أنا الذي لا يرى إلا وجهك الصبيح، سواء
اتسعت ابتسامة الدنيا في وجهه، أو أرخت فوق وجهها نقاب.



يا أحباي - هي مهرة ما رُكبت، ودُرّة ما تُقبت وجهها كالسما،
يسع الدنيا، ولا تدركه الأبصار، شعرها كالليل الداجي يفيض
بالرؤى، ويلهم الشعراء، أجلس بين عينيها، أستقر في راحتيها،
أرقد فوق ركبتيها كأنّها تمثال مايكل أنجلو «بيتا»، وأموت! بحرّها
هادئ كالحصير، أمشي فوق مائها، مرتديًا ثوب العشق المحرق،
الجامح، اللاهث، أجول أصنع بيديها المعجزات، انقذوني من
عشقها، لو استطعتم إلى ذلك سبيلاً!

هي مولاتي! تخلص ثوبها، وتكشف عن مواطن الغواية
والشطط في جسد غير خامد، تنتصب كالغزالة غير هيّابة، أقفز
كالساحب في نارها الكامنة أحترق، أصير رمادًا، تبعثني الرياح في
كل اتجاه، فأقول بوجه ممراح: أمّا وقد احترقت صومعة غلالتي
حتّى سوّيت بالأرض، الآن أستطيع أن أرى القمر في وجهها!

تعقد مناخة، تلطم الخدين، ترتدي ثوب إيزيس، وتجمع
أشلائي، وتعيدني إلى الحياة! أصير «رمسيس» الذي خلّدت قصص
التاريخ حبّه «لنفرتاري»، «أمنحتب» ومعشوقته «تي»، «إخناتون»
بين أحضان «نفرتيتي»، «سنموت» فوق صدر «حتشبثوت»،
«جميل» ينظم في «بشينة» شعراً، «أبيالار» المتيمّم «بهلوز» يتحدّى



الكهنوت، «روميو» يتسلق أجنحة الهواء إلى شرفة «جولييت»
اقتربي يا من عشقتها العيون، فقد حانت لحظة التتويج!

اصطففن يا ملكات الدنيا، فقد جاءت آخر الملكات، ها
هي ذي تعبر بخطوات واثقة نحو عرشها، ترفل في ثوبها الأبيض
الفضفاض، تردّد ناظرها في وجوه الحاضرين، ترسل بصرها إليّ.
أقف فوق منصة التتويج أنتظرها، أخلع نعليّ سوف أتشبث بحلمي،
هيّ لي، هي مملوكتي، ومليكتي افسحوا لها الطريق، كي تعبر إلى
قلبي ربّاه - كم هي حسناء، حوراء العين، وطفاء الأهداب، ساحرة
اللمحظ أسرعني الخطى! ها هما راحتيّ في انتظار أصابع كفيك، ها
هو ذا قلبي يأتيك زاحفًا مهرولاً، إنّها خطوات - حبيبتي - ونتوحّد.
لا تنظري للوراء لا تتلفّتي يمينًا أو يسارًا. ها هي ذي يدي ممدودة!
أمسكت الفتاة بيد الشيخ، وصوّبت ناظرها إلى وجهه البرّاق،

ثمّ قالت:

- أنا لك!



الفصل السادس عشر



«يَا مُسْكَنِي وَسَكْنِي وَسَكِينَتِي وَسَاكِنَتِي
وَسُكُونِي وَسُكُونَتِي وَسُكُونِي وَسُكُونَتِي
وَسُرِّي وَسُرِيرَتِي وَسُرِيرَتِي وَسُرُورِي»

استيقظ سمير من غفلته التي طالت قليلاً في عربة المترو،
وقد خلت تماماً من الركاب، راح ينظر يمناً ويسرة، وقد جحظت
عيناه، وتلألاً فيهما بريق ذاهل راح يتساءل: أين الشيخ الزاهد،
وأين ذهب الفتاة؟ هل كان ما رآه يحدث منذ قليل واقعاً، أم
أضغاث أحلام؟ أين الصبي، قارئ القرآن؟ ألقى نظرة سريعة على
ساعة يده، فأدرك أنَّ الليل قد أوشك أن يتتصف لم يعرف كيف
داهمه الوقت هكذا دون أن يشعر بزحفه.

غادر محطة المترو وفي نيَّته أن يعود إلى المنزل، بعد أن أرجأ
زيارته إلى منزل يوسف ونيروز إلى اليوم التالي وبينما كان يصعد



درج المحطة الخالي استرعى انتباهه مشهد فتاة مهلهلة الثياب، عارية القدمين، يخفق حذاؤها الصغير مفرقاً على وقع خطاها، كان ثوبها قدراً، وكانت تلوك أصابعها في فمها، وتتمخّط بيدها وتمسح أنفها بكم ثوبها، حدق سمير في وجه الفتاة ملياً، وحين اقتربت منه لتستجدي النقود، لَوَّح بيده في وجهها، ثم أطلق ساقيه للريح.

وفي اليوم التالي جلس سمير في عيادته يستمع إلى أحد مرضاه، وقد شرد ذهنه تماماً كان المريض يتحدث مطرق الرأس، متداعي البدن، شاحب السحنة، غائر الخدين، وقد تشعّث شعره قليلاً، واضطرم وجهه واتقدت عيناه وتخطفتها الأضواء من حوله، كمن أصيب بوباء قميء جاشت بغته مشاعره، واستهول ما كان مقدماً على البوح به، فأخفى وجهه بيده، وقال في أسى:

-لقد أصبح من السهل أن تستبدل عضواً في جسدك بعضو

آخر لكن هل يمكن أن تستبدل ذاكرتك، يا دكتور سمير؟

انتبه سمير لبرهة إلى مريضه، فرمقه بنظرة باهتة، ثم غاص في وجومه وشروده مرّة أخرى، فاستأنف المريض قائلاً:

-أستيقظ كل يوم لأجد نفسي وقد امتلكت ذاكرة جديدة. ذاكرة لا تنتمي لي، ولكن أعرف كل ما فيها من تفاصيل! أحاول



بعدها أن أستجمع نفسي وأطرد تلك الذاكرة من ذهني فيكون
الغسل حليفي إلى حين، ماذا تفعل لو استيقظت ذات صباح
ووجدت نفسك في نفس الجسد ولك نفس الملامح وتعيش في
نفس الزمان والمكان، فقط قد أستبدلت ذاكرتك بذاكرة أخرى؟

قطب سمير حاجيه في دهشة مترددة، وتفرّس في وجه
المريض، كأنه يحاول أن يتعرّف على هويته، فاستطرد المريض
قائلاً، وفي أغوار عينيه وميض غريب:

- ذات صباح استيقظت ونظرت حولي لأجد نفسي في مكان
لا أعرفه، مكان مليء بالأثاث الحديث وأنا أرتدي ثياباً غير التي
اعتدت أن أرتديها، أو بالأحرى اعتدت ألا أرتديها فهذا أنذا في
جسد لا أعرفه وذاكرة تخص قابيل أخا هابيل، ابن آدم!

اعتدل سمير في جلسته وصوّب ناظريه نحو المريض، وعقد
ذراعيه أمام صدره في انتباه، فأضاف المريض:

- أتذكر تفاصيل حياتي السابقة كنت مزارعاً، وأخي كان راعياً
للغنم كنّا متحابين ومتعاونين. لم أحقد عليه أبداً إلا حين تقدّمنا
بالقرايين إلى الله أزعجني أن يقبل الله تقدمة أخي ولا يقبل تقدمتي
لم أجد تفسيراً لهذا، لماذا لا يقبل قرباني؟ لماذا يفضل أخي عني؟



قَرَّرْتُ أَنْ أَنْتَقِمَ قَتَلْتَ أَخِي وَدَفَنْتَهُ تَحْتَ الْأَرْضِ مِثْلَمَا كُنْتُ أَدْفِنُ
بِذُورِ زُرْعِي لَكِنْ هَذِهِ الْمَرَّةَ حَصَدْتَ النَّدَمَ وَالْعَذَابَ. وَبَخَنِي اللَّهُ
عَلَى مَا فَعَلْتَ وَأَنْزَلَ بِي لَعْنَتَهُ، وَرَغِمَ أَنَّه حَصَّنَنِي مِنَ الْقَتْلِ عَلَى
يَدِ الْآخَرِينَ كُنْتُ أَشْعُرُ بِالْيَأْسِ وَالذَّلِّ لَيْتَهُ تَرَكَهُمْ يَقْتُلُونَنِي حَتَّى
أُرِيحَ ضَمِيرِي الَّذِي كَانَ يَسُومُنِي الْعَذَابُ بِسَبَبِ فَعْلَتِي الشَّنِيعَةِ،
اسْتَيْقَظْتُ مِنْ حَيْرَتِي وَاسْتَرْجَعْتُ ذَاكِرَتِي وَلَكِنْ لَمْ أَدْرِ إِنْ كَانَ
صَاحِبُ الذَّاكِرَةِ ظَالِمًا أَمْ مَظْلُومًا، مَجْرَمًا أَمْ ضَحِيَّةً؟!

ابْتَسَمَ سَمِيرٌ فِي تَهَكُّمٍ، وَأَشَاحَ بِوَجْهِهِ فِي تَنْدُرٍ، بَيْنَمَا لَمَعَتْ عَيْنَا
الْمَرِيضِ وَهُوَ يَسْتَطِرِدُّ قَائِلًا:

-وَفِي إِحْدَى الْأَيَّامِ، اسْتَيْقَظْتُ كِعَادَتِي وَانْتَظَرْتُ فِي فِرَاشِي
حَتَّى تَأْتِيَ نِسَاءُ الْقَصْرِ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَتَجْهِّزَ الْخَادِمَاتُ
الْمَغْطَسَ بِالْمَاءِ النَّظِيفِ وَالْعُطُورِ، فَإِذَا بِامْرَأَةٍ غَرِيبَةٍ تَوْقِظُنِي مِنْ
نُومِي وَتَصْرُخُ فِي وَجْهِهِ لِأَنْتَنِي عَلَى وَشْكِ أَنْ أَتَأَخَّرَ عَنِ الْعَمَلِ، أَيَّ
عَمَلٍ؟ هَلْ هُنَاكَ عَمَلٌ يَسْتَوْجِبُ أَنْ أَقُومَ بِهِ أَنَا أَمِنْحُوتَبِ الثَّالِثِ،
فِرْعَوْنَ مِصْرَ الْعَظِيمِ؟!

رَشَقَ سَمِيرُ الْمَرِيضِ بِنَظَرَةٍ سَاخِرَةٍ، وَكَادَ أَنْ يَنْفَجِرَ ضَاحِكًا،
حِينَ أَسْرَعَ الْمَرِيضُ بِالْقَوْلِ:



-كيف تجرؤ هذه المرأة على الصراخ في وجهي وتأنيبي
هكذا؟ ولكن، هذا ليس قصري! أين ملابسي الملكية؟! أين
زوجتي «تي» ابنة كاهن معبد آمون؟! أين زوجتي ابنة ملك
العراق؟! أين أختي وزوجتي الجميلة «ست أمون»؟! أين ابنتي
نفرتيتي وابني أخناتون؟ أين صغيري توت عنخ آمون؟ أين نساء
القصر والعبيد؟ بدا كما لو أنني أعاني من مرضٍ ما، ربّما بسبب
إسرافي في اللهو والترف وانغماسي في الملذّات، كان يجب أن
أشرك ابني أمنتب الرابع وزوجته وأخته نفرتيتي في الحكم حتّى
لا أقع فريسة للمرض، يجب ألا أستأثر بالحكم وأنا أفقد صحي
يومًا بعد يوم، ولكنني أدركت أخيرًا أنّ أمنتب هو من استأثر
بعقلي يومًا كاملاً حتّى استرددت ذاكرتي الفقيرة، ولكن بعد أن تمّ
خضم هذا اليوم من راتبي!

أدرك سميز أن المريض قد أصابته نوبة من الهذيان، فمال
بجذعه للأمام، وأسند ذقنه على كفّه، وظلّ يتفرّس في وجه
المريض في سخرية، فاستأنف المريض، دون أن يعبأ بملامح
الطبيب الساخرة.

- أين المعلم؟ أين السيد؟ كنت في مترو الأنفاق وقد غلبني



النحاس واستيقظت وأنا أصبح بتلك الأسئلة، نظر الجميع ناحيتي ولم يجبني أحد أمسكت بأحدهم وكنت أشعر أن هناك شيئاً عجيباً يحدث سألته «أين يسوع؟»، فابتسم وأجابني بأن يسوع في السماء. شعرت بالصدمة تجتاح جسدي إذن فقد قتلوه يا شهوة المال التي جعلتني أسلمه إلى أعدائه من اليهود!

انتصب سمير واقفاً كمن يتأهب للصياح، ولكن المريض لم يمنحه الوقت، فاستطرد في جديّة قائلاً:

-كنت أشعر بوخز الضمير لم أستطع أن أتحمّل هذا الألم. لماذا أسلمته إلى أيدي هؤلاء القتلة؟ ماذا فعلوا بهذا المسكين؟ ربّما قطعوه إرباً، ربّما سلّموه إلى بيلاطس ربّما جلدوه أو صلبوه كان يجب أن أنقذه. كان يجب أن أرد هذا المال النجس إليهم. كيف أسلم السيد بيدي؟ أبقلة أسلم ابن الإنسان؟ كان يعلم أنني سأفعل هذا لقد أخبرنا جميعاً بذلك في آخر عشاء تناولناه معاً، كان يعلم بخيانتني له، ولم يحاول أن يمنعي!

أبرقت إمارات الاهتمام على وجه سمير، فاقتعد كرسيه، وعاد لينصت إلى المريض الذي قال في أسي:

-لم يفضحني أمام تلاميذه حتّى لا يفتكوا بي أنا يهوذا تلميذه



وحبيبه أسلمه لكي يُصَلِّب؟! يجب أن أدفع الثمن نظر أحدهم
إليّ في تعجُّب وكأنّني أهذي نعم، كنت أهذي وكنت مسرورًا أنّني
أفقت قبل أن أتخذ القرار الأخير!

ازداد اهتمام سمير بما يسرده المريض عليه، فأسند رأسه على
المقعد، وتطلّع في وجه المريض وهو يقول:

-استيقظت ذات صباح ورحت أبحث عن قلبي المدلّل
«آتمًا». كم أحبه! هو المخلوق المخلص الوحيد لي لذلك
سوف أورثه كل ثروتي ولن تنال أُمِّي أي شيء من أموالِي لكن،
هذه ليست غرفتي الفندقية التي أقيم بها منذ سنوات! أين أنا؟ هذه
ليست فرانكفورت بحق السماء! من هذه المرأة التي ترقد بجواري
في الفراش؟! أنا لا أقيم علاقات نسائية أبدًا والفضل يرجع إلى
أُمِّي فقد جعلتني أكرههن جميعًا، إذن من تكون هذه المرأة؟ يبدو
أنّني ضللت طريقي بالأمس، كان يجب أن أتّجه إلى الجامعة على
الفور، فطلّابي ينتظرونني كنت دائمًا قدوة لهم. إنهم يتفاخرون
بشوبنهاور أستاذ الفلسفة والمفكر الكبير، لا بد أنّي أحلم يالها من
حياة تعيسة، حتّى أحلامي تقتحمها المرأة، تلك المخلوق الأخرق
اللا أخلاقي! ولكنّني لا أحلم ربّما أنا ميت ولكن كيف؟ لا توجد



حياة بعد الموت أنا لا أو من بذلك وإلا فأين الله؟ بعد فترة قصيرة عدت إلى رشدي حين رأيت الشمس تخترق ستار الليل بأصابعها الدافئة الجميلة، وسمعت تغريد الطيور فوق الأشجار بالقرب من شرفة منزلي إنَّ سماء بلا طيور لا تستحق التطلع إليها!

لم يستطع سمير أن يغالب الرغبة التي اجتاحتها فجأة ليعرف أكثر عن هذا المريض، والذي لم يره من قبل استفسره سمير عن حالته تلك قائلاً:

- يبدو أنك واسع المعرفة والاطلاع، ولكن، هل حقاً تشعر بامتلاك أكثر من ذاكرة، يا أستاذ رؤوف؟

خيّم عليهما سكون كأنه قطعة من الأبدية، ففلق المريض يقول:

- الاستقلال التام أو الموت الزؤام عاشت مصر حرة مستقلة! ذات مرة، أيقظني من نعاسي رجل في العقد الخامس من عمره وهو يبدو مضطرباً. «ماذا بك يا أستاذ...؟» نظرت حولي فوجدت أنني في غرفة مكتب وحوالي بعض الأشخاص يجلسون في مكاتبهم مثل الموظفين في مصلحة حكومية «أكنت تخطب في الناس في منامك؟» قالها الرجل وراح يضحك بصوت مرتفع وشاطره



الآخرون السخرية، لم أعرف أحدًا منهم ما هذه الغرفة؟ ما هذا الذي في يدي؟ المصحف؟! أكنتُ أقرأ المصحف حتَّى غلبني النعاس، أنا وليم مكرم عبيد، أو مكرم عبيد كما اعتدت أن أدعى بسبب كراهيتي للإنجليز واسم وليم!

جحظت عينا سمير، وسدّ نظرة حادة إلى عيني المريض الزائعتين وهو يقول:

-لقد كنت منذ دقائق في جريدة الوقائع وكان معي صديقي النحاس باشا ما الذي حدث ومن أتى بي هنا؟! لم أرد أن أضيع الوقت في تساؤلات، فالיום يجب أن أذهب لحضور جنازة حسن البنّا، مرشد جماعة الإخوان المسلمين نعم يجب أن أذهب فسوف أكون الرجل الوحيد الذي يحضر جنازته مع أهله لقد أعطى جلاله الملك فاروق أوامر عليا بالقبض على أي رجل يحضر الجنازة من جماعة الإخوان المسلمين وبالطبع لن يتم القبض عليّ لقد كان صديقًا لي ويجب أن أودّعه على أيّ حال. ولكن أين طربوشي؟ سألت نفس الرجل عن طربوشي، فانفجر في الضحك ثانية حتَّى كاد يسقط من فوق كرسيه. لماذا يضحك؟ نعم، كان يجب أن يضحك، أنا أيضًا ضحككت وتصنّعت المزاح، كيف أكون مكرم باشا عبيد وأنا موظف بسيط في هذه الغرفة! عادت لي ذاكرتي اللعينة.



-هل تعني أنك تستطيع أن تتذكّر تلك الأحداث في حياة هؤلاء، دون أن تقرأ سيرتهم؟

-لك يا عزيزي الطبيب، أن تتخيل كيف تتقمّصني شخصيات عديدة لأناس قد فارقوا الحياة ولم يورثوني إلا ذاكرتهم التي تقصّ مضجعي تأتيني ذاكرة الموسيقى شوبان فأبدأ في السعال، وتزورني ذاكرة عبد الناصر فأثور على كل من أطلق لحيته، أعيش في ذاكرة نجيب محفوظ فأتذكّر شوارع المحروسة والمقاهي والأزقة وأحياناً أنعم بيوم في البيت الأبيض في أحضان مونيكا من وراء ظهر المسكينة هيلاري، وقد تأخذني الجلالة فأرى نفسي أسترجع المعارك التي انتصرت فيها، أنا نابليون، حتّى نلت هزيمة نكراء في ووترلو ونُفيت خارج فرنسا الحبيبة. وأروع الأوقات قضيتها في مرسّمي في حي مونمارتر بباريس وأنا بيكاسو الرائع، وحين شاهدت مصارعة الثيران في مدريد وأنا هيمنجواي!

مكث سمير جامداً ساهماً، وظلّت عيناه شاخصة إلى المريض لهنيهة، ثمّ قال في حيرة:

-أخبرني يا أستاذ رؤوف، كيف يمكنك أن تتذكّر كل تلك التفاصيل؟



-الذاكرة كالأفعى، يمكنك أن تستدعيها بمزمار الحنين
والشوق أحياناً، فتأتي لتلدغك، وتركك طريح الآلام.

-ولكنني أراك مستمتعاً، وأنت تنعم بذكريات الآخرين،
كالفارس الذي جرّد أعداءه من سيوفهم.

-قد تعتقد يا عزيزي أنها حياة شيقة ممتعة، وقد تحسدني على
امتلاك ذاكرة رجال عاشوا وعاشوا التاريخ، انتظر يا سيدي ماذا
تفعل لو استبدلت ذاكرتك بذاكرة چاك، سفّاح النساء الإنجليزي
وتعذّب بمشاهد النساء الممزّقة؟! أو غاندي وهو يتم اغتياله على
يد رجل من شعبه؟ أو جوردانو برونو الفيلسوف الإيطالي الذي
حكمت عليه محاكم التفتيش بالحرق حيّاً بذريعة احترامه الهرطقة،
أو ذاكرة الشاعر العظيم أمل دنقل في أيّام المرض الأخيرة، وأنت
تعيش صراعاً لم تنتصر فيه؟! صعب يا سيدي، أن تعيش بذاكرة
مزيّفة مليئة بأحزان أو أفراح غيرك، والأصعب ألا تجد في وسط
كل هذا ذاكرة تخصّك! لقد صار عقلي مثقوباً كالأحذية القديمة،
تخرقه الهواجس دون عناء، وخبزاً في انتظار الأكلين!

-ولماذا لا تعيش بذاكرتك أنت؟

-ذاكرتي؟ أنا ليست لديّ ذاكرة، أيّها الطبيب.



-كيف؟ أنت أستاذ رؤوف جابر، أستاذ الفلسفة في جامعة خاصة مرموقة.

-الذاكرة ليست اسمًا وعنوانًا ومهنة يا سيدي الذاكرة حياة، وكل ما فيه حياة يموت، كأنَّ الحياة منحة مشروطة بالموت ما أصعب أن تربط ذاكرتك بأحد، فإن مات فقدت ذاكرتك لقد فقدت ذاكرتي، بل حياتي ذاتها حين ماتت عني زوجتي وحبيتي رجاء.
في انهزام خفي حاول المريض أن يكبت نزوعًا إلى البكاء، بينما أطرق سمير برأسه في رثاء، ثمَّ أَرَدَف المريض يقول:
-أتعلم أيها الطبيب، أنني أعيش هذه الأيام بذاكرة جديدة وعجبية حقًا؟

- (في حيرة) ولمن تكون هذه الذاكرة، يا أستاذ رؤوف؟
-إنَّها لشيخ صوفي عازف.
فرَّت عينا سمير إلى عينيَّ المريض، وراحتا رجراجتين مرتابتين تتأملانه، وهو يستطرد قائلاً:
-شيخ يُدعى الحلاج!

الفصل السابع عشر



«الناس موتى وأهل الحب أحياء»

ندت عن المريض ضحكة مخنوقة، بينما استأنس سمير بصمت مطبق، وظلّت عيناه تختلجان وهو يصوبهما في دهشة إلى وجه المريض، لبث ذاهلاً كمن تواطأت الأحداث والخيالات عليه، وهو ينصت إلى المريض الذي استطرد قائلاً:

-لقد أصابني موت رجاء زوجتي في مقتل لم أستطع أن أقاوم
رغبة دفينّة في الفرار من الواقع، فلم يفرّ مني سوى ذاكرتي! ليس
بالأمر الهين أن تستيقظ لتجد نفسك لا تمتلك هوية، لا تحمل
اسماً تعرفه، لا تتذكر أحداث الماضي، لا تكره أحداً، لا تحب
أحداً، ولا تشعر بالانتماء لأحد أو لمكان، من الصعب أن تنظر إلى
وجهك في المرأة فلا تتعرف على ملامحك، ولا تتذكر آخر مرة
صفّفت شعرك أو حلقت ذقنك، والأصعب ألا تعرف كيف جيئت
إلى العالم، فهل ولدت من امرأة، أم خرجت من رحم الأرض،



أم هبطت من السماء، أم حللت روحًا في جسد قديم لشخص لا تعرفه. هل أملك أسرارًا أصبحت في طي النسيان؟ هل آمنت بشيء ما من قبل، وبم؟ هل بمستطاع أن أنبش في ماضي الذي غاص مثل سفينة محطمة إلى أعماق المحيط؟

كنت دومًا في حيرة من أمري، كيف يمكن أن أتذكر المكان والزمان، ولا أتذكر الأشخاص والأحداث؟ كنت أشعر أن رأسي خاوية، مثل غرفة فارغة، لا أسمع فيها سوى صدى صوتي، تساءلت كيف يمكن أن أحيى هكذا وسط أشخاص لا أعرفهم، ولا أشعر تجاههم إلا بالغرابة؟ صرت أخاف من النوم، ولا يعبر أحدٌ في أحلامي سوى ظلال وارفة خفيفة ومخيفة.

لا أعرف لماذا انتابني إحساس أنني مجرد شبح لجسد مات وتعفن، والآن يجوب الأرض يحاول أن يكفر عن خطايا الماضي ويتطهر منها جميعًا، ولكن الخطايا كالشروخ في زجاج هش، لا تلتئم ولا تندمل، بل وقد ينتهي بها الحال إلى الانهيار. ارتعدت فرائصي لمجرد التفكير في الموت كثيرًا، وتقبضت من فرط الخوف غصوني، فكيف أموت وأنا لم أعش بعد؟ وكيف يمكن أن يحاسبني الإله عما لم أقترفه طواعية، ولم أرض عنه؟ تمنيت



كثيراً أن أصبح كالأطفال فهم في جميع الأديان قدّيسون، لأنّهم لا يمتلكون ذاكرة.

لم أعرف وقتئذٍ هل أحزن أم أتهلل فرحاً لفقدان ذاكرتي، فلم أكن أعلم إن كانت تستحق البكاء عليها، أم الاحتفاء بفقدانها، كمن استطاع أن يتخلّص من ثيابه القديمة التي تملأ خزانة الملابس دون الحاجة إليها، أو أقال ينوء بحملها عندما يتلف عضو في الجسد ويبدأ في التعفّن وصاحبه على قيد الحياة، يتوجّب بتره، أو زراعة عضو بديل عنه، فهل تعفّنت ذاكرتي؟ صار عليّ أن أستعير بقايا ذاكرتي من ذاكرة الآخرين، لأجمع شتاتها، علّني أدرك هويّتي.

يقول باسكال أنّ نصف الفلاسفة يجهلون عظمة الإنسان، والنصف الآخر يجهل سفالته، وصرت أنا في لحظة أجهل الاثنين معاً، ولو أنّني لست بفيلسوف من يستطيع أن يدلّني على ذلك الشخص الذي عاش طيلة الفترة الماضية، والآن بات عليّ أن أستكمل مسيرته؟ هل كان من الرجال الأماثل أم المنحلّين؟ هل كان من النّسّاك القانتين، أم الزنادقة الساقطين؟ من عساه أن يسري إليّ بالأمر، ومن لديه ضالتي ممّن يدركون هويّتي؟ هل ما حدث لي كان عقاباً على حياة تزخر بالخطايا، أم هو انعتاقاً أخيراً للروح



عاشت تصارع جسداً غير عفيف، وتكبح جماحه؟ هل يكون
فقدان تلك الذاكرة الرثة خلاصاً من قيود كبّلتني، أم أغلال إثم
تصفّد يديّ وقدميّ وتثبّتني كالسمار الصدىء في جدران حياتي
الجديدة؟

ما أصعب أن تعاقب أو تلام على ما فعله شخص آخر عاش
في زمن آخر، ولكن الأصعب أن تعرف أنّك هو هذا الآخر. أيمن
أن يبغض البعض هذا الشخص الذي كنت أحيّا في جسده وأعيش
بنبضات قلبه أو يحبونه، دون أن أدرك الأسباب؟ كنت أشعر أنّني
أمام الناس كمن في ساحة محكمة، أقف في قفص الاتهام، ويشير
الجميع بأصابع حادة إليّ، ويختلج صدري بحزن مقيم، فقد
أحسست دائماً أنّني ليس فقط المتهم الماثل أمام هيئة المحكمة
والمحلّفين، بل كنت أنا أيضاً قفص الاتهام!

اتضححت لي الرؤية رويداً رويداً، وثابت إلى ذهني حقيقة
شخصيتي الماضية وتبدّدت مثل السحاب الشكوك فصارت
الصورة واضحة جلية كالشمس في كبد السماء، بات عليّ أن
أختار بين البقاء في مستنقع النفس التي اعترّاها الصدا، وبين الروح
الجديدة التي ترسل عبراتها شاكية إلى خالقها دون أن تياس من



رحمته وجأرت بالدعاء إلى خالق تلك النفس وبارئ هذه الروح،
وشعرت ببعض الرية في الاستجابة، فهل لمثلي توبة وتطهر وأنا
الذي لم يعرف في حياته تصوف وعزوف، ولم يبتغ من الدنيا سوى
متاعها؟! وهكذا صارت نقطة الوصول هي الانطلاق الجديد،
والبحث عن الذات في فتات طعام بابت فوق مائدة الذكريات.

باغته سمير وقد تلقمته الحيرة بين شذيقها، قائلاً:

-وماذا عن الشيخ الصوفي الذي تحيا بذاكرته الآن؟

-أتقصد الحلاج، الحسين بن منصور؟ هو شيخ قد وافته المنية
منذ أكثر من ألف عام، ولكنني أتذكر ما حدث له كأني أشاهد فيلمًا
سينمائيًا أتذكر طور مسقط رأسه في فارس، ومدينة تُستَر، حيث حفظ
القرآن، وشرع في بحثه عن الله، رغم أنَّ جدّه كان زرادشتيًا، من عبدة
النار. ولد هذا الشيخ الصوفي في إيران، ثم سافر إلى العراق، وتعلّم
اللغة العربية وأجادها، حتّى أنّه نسي فارسيته تمامًا.

ظَلَّ سمير جاحظ العينين، كمن به مسّ من الجنون، وهو
يحملق في وجه المريض، حتّى انتبه إليه فاستفسره قائلاً:

-ما الذي يجعلك تحديق في وجهي هكذا، يا دكتور سمير؟

-أرجوك أن تستأنف كلامك. أخبرني ماذا تتذكر أيضًا عن



هذا الشيخ؟

أسند المريض رأسه على المقعد، وأغمض عينيه، كأنَّ إغفاءة
جامحة قد داهمته للتو، ثم طفق يقول:

-أتذكر يومًا امتلأت فيه طرقات المدينة بجثث الموتى من
الناس والحيوانات، وفاحت رائحة الموت العفنة وزحفت على
المنازل حتَّى صارت كالقبور المقفرة، طاف عسس وجند الوالي
في الأحياء يبحثون عن ناقلي عدوى الوباء، الذي انتشر في البلاد
فأتى على الأخضر واليابس، مات الآلاف من الناس في غضون
أيَّام، فلم تظهر أعراض المرض إلَّا وتبعها الموت المحقَّق بأيَّام،
اكتظَّت السماء بالطيور الجارحة، كأنَّها في ميدان معركة، تنتظر بين
الفينة والفينة سقوط صيد جديد.

ارتعدت فرائص الوالي حين ترامى إلى مسمعه أنَّ المرض
اللعين قد أوشك على الاقتراب من قصره المنيع، فراح ينشر العسس
والجند في كل أرجاء المدينة بحثًا عن كل من أصابه الطاعون،
والتخلُّص منهم قبل أن تطاله العدوى، ويضحي فريسة للمرض
المميت، لم يستطع أطباء الدولة الوصول إلى علاج للمرض، لأنَّهم
لم يفطنوا إلى أسباب حدوثه، وإن استطاعوا أن يميِّزوا أعراضه،



كان مصاب ذلك الطاعون يشبه في سلوكه مريض الذهان، فهو يفقد الاتصال بالواقع، ويعاني من تفكك في التفكير، ونوبات هلوسة قد تتطور إلى وساوس سمعية وبصرية، وخلل في أداء مهامه اليومية، وقد يتفاقم الأمر فتصيبه حالة من عدم الانتماء، فيرفض كل شيء، ويصبّ اللعنات على كل شيء، ويتنكر لكل من يعرفهم، والأخطر من ذلك أنه قد يسيء إلى شخص الوالي نفسه بالسب والنقد اللاذع، دون أن يكثر لعقاب قد يصل إلى حد دق العنق!

اجتمع الوالي بوزيره ومعهم رجال الديوان والقاضي الشرعي وشاهبندر التجار وكان الحلاج، مستشار الوالي هناك، وجلسوا جميعاً في ساحة القصر يتناقشون في أمر الوباء الذي حاق بالبلاد، وراح كل منهم يدلو بدلوه في الفاجعة الشنعاء.

الوالي: مالي أرى وجوهكم جميعاً باهتة، معتمة، كأنتكم صفٌّ من الرايات المنكّسة؟! ماذا علينا أن نفعل يا رجال دولتي المخلصين؟

الوزير: نحن نفعل كل ما في وسعنا يا مولاي، فقد أرسلنا الجند والعسس في كل مكان بحثاً عن الموبوءين للتخلص منهم قبل أن يصل المرض اللعين إلى عتبات قصركم المصون.



الملك: وكيف يتم التخلص منهم يا وزير؟

الوزير: بحرقهم يا مولاي، فقد كتب لهم الموت في كل الأحوال، ولكن يجب أن نسرع به قبل أن يصيبوا آخرين. ولكن المشكلة التي نواجهها يا مولاي أن الأهالي يرفضون تقديم يد العون، فالجميع خائفون على ذويهم، ولا أحد يبلغ عن وجود مصابين من أهل داره أبداً.

الملك: هذا حريّ بهم يا وزير، وعليكم أن تقتحموا الديار، أو تشعلوا النيران في أي دار تجدونه موطن ريبة وشك، دون استئذان أو تردد.

جحظت عينا الحلاج حين سمع هذا، وهو صاحب جهارة صوت وقوة عارضة وشدة مهابة تلفت حوله، وراح يوزع نظراته ذات اليمين وذات الشمال، كأنه يستكشف ردود أفعال رجال الدولة، الذين لم ينبسوا ببنت شفة، وجعلوا أصابعهم في آذانهم، بل وأغدقوا على الوالي بابتسامات الرضا والتأييد، انتفض الحلاج لفوره وهو يزفر متأففاً، وقال:

الحلاج: مولاي، إنهم رعيتك، فكيف تجيز قتلهم؟

الوالي: وهل ترضى لنا بالموت يا شيخنا؟



الحلّاج: بالطبع لا يا مولاي، ولكنّهم غير مذنبين، فالطاعون لا يرحم أحداً، كما أنّهم يحتاجون إلى عطفك، ورعايتك، فلماذا لا ترسل لهم أطباءك لمدواوتهم؟

زق كبير الأطباء في وجه الشيخ، ولوّح بيده في الهواء غضباً، حتّى أنّه كاد أن يصيب وجه شاهبندر التجار بصفعة، ثمّ قال في استياء. كبير الأطباء: يا أيها الشيخ المفوّه، هل تريد أن تتخلص من أطباء الوالي يا بن منصور؟ ماذا لو أصيبوا بالعدوى؟ من سيعتني بمولانا حينئذ؟ هه؟!

رمقه الحلّاج بنظرة ازدراء، واستأنف حديثه إلى الوالي دون أن يعبأ بنظرات كبير الأطباء المتحفزة، وقال:

الحلّاج: مولاي، أليست الأعمار بيد مانحها؟ إن لم نهتم نحن بالرعية، فمن سيفعل؟

الوالي: يا الحسين بن منصور، ما يعيبك أنّك طيب القلب إلى حد السذاجة والضعف أحياناً، رغم قوتك الباطشة، وشبابك الجامح يا عزيزي، يجب أن نعيش حتّى تستقيم الأمور، وتبقى الدولة، فنحن من يحفظ للدولة بقاءها، ونحن من ولّانا الله على شئون البلاد، ولا بد من توضّيات حتّى تبقى الدولة في أحسن حال.



أحسَّ الحَلَّاجُ بخيبة الأمل، وعدم جدوى الحديث إلى الوالي، ومحاولة استمالة عطفه على رعيته، فعاد إلى مجلسه، وأطرق برأسه ولاذ بالصمت المتحفِّز. عاد الوالي يوجِّه حديثه إلى رجال الدولة، فنظر إلى مفتي الديار، الذي كان في إغفاءة مؤقتة، واستفسره عمَّا يمكن أن يفعله اعتدل المفتي في جلسته، وكأنَّه يتأهَّب لتلاوة ما تيسَّر من القرآن، وقال.

المفتي: يا مولاي، أنت وليَّ نعمتنا، ولا أحد يملك الحل والربط سوى شخصك الكريم، فأنت هدية السماء إلينا، ونحن لا نملك من أمرنا شيئاً، فالأمر لك يا مولانا المعظم.

تلاشى الصمت الذي ساد المكان لبرهة حين غمغم الحاضرون، وهتفوا في نفس واحد: أحسنت يا شيخنا الجليل!
افتترَّ ثغر المفتي عن ابتسامة بلهاء، وأحسَّ بالغبطة من الإطراء، واستطرد قائلاً:

المفتي: يا مولانا المبارك، نحن جميعاً نهمل من حكمتك التي تفوق في تدفقها أنهار الشرق، وعلمك الذي يفوق في اتساعه بحار الغرب، فلا قول بعد قولك. إن أردت، نقدم أنفسنا ذبائح طاعة، وقرايين إذعان وحب لذاتك العليا، دون تردّد أو وجل.



يجب أن تظل أنت شمسنا، فجلالتك تمنحنا الحياة والبقاء، ولتزل
دون ذلك الرعية كلها.

علت غمغمة الحاضرين، ودوت في المكان مهمات
السرور، والتأييد لما قاله المفتي، فاستوقفهم الحلاج بغته، وقال
في نبذة مستاءة.

الحلاج: ما فائدة الدولة دون الرعية يا مولاي؟ كيف يمكن
أن نعيش ونحمل فوق أكتافنا ذلك الوزر؟
قاطع مفتي الديار في لهجة حادة، وقد كشر عن أنيابه، وكأنه
يتأهب للانقضاض عليه، وقال:

المفتي: وزر؟ أي وزر يا شيخنا؟ إن مولانا هو ظل الله في
الأرض، ولا يمكن أن يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو
وحده صاحب الأمر، وقد أمرنا الله أن ننصاع لأولي الأمر منّا،
فكيف تتهمه بارتكاب وزر؟!

قطب الوالي حاجبيه في غضب، ورمق الحلاج بعينين
متجهمتين، وقال الوالي: يا حلاج، لا تزايد على كلام المفتي،
فهو أعلم الناس بالرأي الصائب الذي يرضى الله ورسوله، ونحن
جميعاً نثق بأقواله.



الحلّاج: يا مولاي، إنّ آيات القرآن التي تحثّ على التدبّر والتفكّر تفوق عدد الآيات التي تتحدث عن العبادات والشرائع، فماذا ينفع من يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، ولا يعمل العقل في تدبّر شئون العباد، يجب علينا أن نتدبر أمر الرعية بقدر ما أغدق الله علينا من نعمه.

أشاح الوالي بوجهه بعيداً عن الحلّاج ووجّه حديثه إلى الوزير.

الوالي: يا وزيرنا، قضى الأمر، وعليك أن تتخلص من الموبوءين بأسرع وقت، قبل أن يستفحل الوباء، فلن أغفر لكم جميعاً إن أصاب الوباء أحد أفراد أسرتي الكريمة، أو مسنا الضر. انحنى الوزير حتّى كادت رأسه أن تصطدم بركبتيه، وقال: الوزير: سمعاً وطاعة يا مولاي.

ابتسم مفتى الديار ابتسامة خبيثة وهو ينظر إلى وجه الحلّاج الممتعض، وقال:

المفتي: يا مولانا العظيم، ما أرحمك بنا، ففي قرارك هذا رحمة بالجميع، ودرءٌ لكوارث أفظع قد تحيق بنا جميعاً، أمّا أنت فإن الله يحرسك، فلن يصيبك ضرر أبداً، وهذا وعد الله لعباده المخلصين.



تنحج شاهبندر التجار، وكأنَّه يستأذن الوالي كي يدلي برأيه،
ثمَّ قال بصوته المتهدِّج.

الشاهبندر: يا مولانا المعظم، نحن جميعاً ندين لك بالولاء،
فوالله لو تطلب طفلاً من أطفالنا، نقدمه لك صاغرين، راضين، وقد
تأثرت تجارتنا كثيراً بما يحدث، وأصابنا الكثير من التجار الفاقة،
ولم يعد هناك بيع أو شراء.

قاطع الوالي في تأفف وتبرُّم، وكأنَّه قد توقَّع ما ينتوي الحديث
عنه، وقال الوالي: تكلم يا شاهبندر التجار، ماذا تريد أن تقول؟
الشاهبندر: يا مولاي، لقد قمنا نحن التجار بجمع مبلغ من
المال، وبعض الجواهر النفيسة، وقد اصطفاني التجار كي أضعها
جميعها تحت تصرف ذاتك الحكيمة، ونتوسَّل إلى ذاتك الطاهرة
أن تمنحنا شيئاً واحداً.

لمعت عينا الوالي حين أبصر المال والجواهر التي وضعها
شاهبندر التجار أمامه في صندوق خشبي كبير، وسال لعبه، وهو يحرق
في الجواهر التي أبرقت من داخل الصندوق، وقال الوالي: وما هو؟
الشاهبندر: أن تمنحنا حق الانتفاع بأمالك الموتى من العباد،
من ديار ودابة، وما شابه.



انتفض القاضي في مكانه، وأشاح بوجهه بعيداً عن صندوق
الجواهر الذي غاصت فيه أعين الحاضرين جميعاً، وطوّح ذراعه
في الهواء، وقال:

القاضي: هذا لا يجوز، فهي أملاك الدولة.. مممم.. أقصد
أملاك الوالي، ولا يجوز لأحد غيره التصرف فيها.
رمقه الشاهبندر بنظرة حق وهو ينفث زفير الغضب، ثمَّ
استأنف قائلاً:

الشاهبندر: يا مولاي، سوف تكون تلك الأملاك مصابة
بالوباء، ولا نريد أن يضع مولانا يده عليها، فتصيبه العدوى نحن
فداؤك يا مولاي.

ران الصمت لبرهة، والوالي يتفرّس بنهم في الصندوق الذي
امتلاً بالجواهر والمال، ويردد ناظريه بين الصندوق وبين وجوه
الحاضرين، ثمَّ أشار بيده إلى الخادم الذي جاء بالصندوق ليحمله
إلى خزائنه، ونظر إلى الشاهبندر، وقال دون أن يعبأ بنظرات
القاضي المترقبة لقراره.

الوالي: أنعمنا عليكم يا معشر التجّار بتلك العطية.
انفرجت أسارير الشاهبندر، بينما اشتاط القاضي غيظاً،



ورمق الشاهبندر بعينين ناقتين، فباغتتهما الوالي، وقال الوالي: ولكن انتظر يا شاهبندر. يجب أن تجمعوا صندوقين آخرين من الجواهر، حتى يتم منحكم حق الانتفاع بكل ممتلكات الموتى من الرعية، ولنا الحق في الرجوع عن قرارنا إذا ما ثبت وجود ما تزيد قيمته عن قيمة الجواهر في ديارهم.

ابتسم القاضي في خبث، بينما مطَّ الشاهبندر شفته، وتمتم بكلمات سخط، كان الحلاج يجلس في صمت، يشاهد ما يحدث دون أن يتفوه بكلمة، وقد استبدَّ به اليأس وراح يرمق الحاضرين بنظرات من لهب، فقد آلمه التملُّق والرياء، ويمَّم وجهه شطر الوالي، الذي جلس في هدوء، قانعاً بما تملَّكه من شر طاغ حَبَّ إليه إيلام رعيته، والبطش بهم، وكأنَّه لم يعد يفرق بين العباد والعبيد.

انفَصَّ الجمع، وذهب كلُّ إلى عمله، وغادر الحلاج القصر مهموماً حسيراً، فلم يكن يتوقَّع أن يفرَّط الوالي هكذا في حياة الرعية، رغم علمه المسبق بفساد الوالي، وفساد حاشيته، لكنَّه لم يخطر له ببال ألا يرى الوالي في الموت موعظة، وألاً يهاب لحظة وشيكة فيها قد توافيه المنيَّة، ويعطي كشف حساب عمَّا اقترفه في حق رعيته.

وبينما كان يسير في الطرقات مثقلاً بالأحزان، وقد ترقرت عيناه الغائرتان بالدموع أبصر جثة طفلة صغيرة ملقاة على قارعة

الطريق، عارية إلّا من أسمال بالية، كانت جثة الطفلة في حالة مزرية، شوهاء، تنتشر على جسدها النصف عاري بقع سوداء في البداية لم يستطع أن يطيل إليها النظر من هول المشهد، فتحول عنها في ألم ممض، ثم أرسل ناظره إليها مرة أخرى في حنو وأسف، وبين إقدام وإحجام اقترب منها. بدت الجثة في طور التعفن، فانتشرت رائحتها الكريهة حولها، ممّا أثناه عن الدنو منها أكثر ممّا يقيه شر العدوى، ولدغ الرائحة في خياشيمه. كانت شفتاها مشققتين مثل تينتين معطبتين، وشعرها قد تساقط بفعل الوباء، وقد خلا جسدها أو كاد من الدم، بدت يداها كعظمتين خلتا من اللحم، وامتلاّتا بالعروق الزرقاء النافرة خلف غطاء جلدي شفيف بُهت الحلاج لمرآها، وطفرت الدموع من عينيه مدراّرا، فقد عرفت الطفلة الموت قبل أن تعرف الحياة، راح يجمع الخرق البالية، ويغطي بها ما تكشف من جسدها الضامر الصغير، ثم مضى في طريقه.

كان دوى الصرخات يعلو كلّما اقترب من إحدى الديار التي قام جند الوالي بحرقها، أو بجرّ من فيها من الأهالي الموبؤين إلى كومة الحطب المشتعلة في الشارع، وإلقائهم فيها، ليحترقوا أحياء، كانت المناحة على أشدها، والنساء يلطمن الخدود، ويخمشن وجوههن، وينثرن شعورهن، ويمزقن ثيابهن، ولم يرحم الجند



نواح أو عويل امرأة أو طفل أو عجوز اشتدَّ جموح الجند حتَّى
أنَّهم كانوا يَنْهبون الديار، ويغتصبون النساء، ويلقون من يشاؤون
في النيران المتأجَّجة، موبوئين وأصحاء، فغلى مرَّجُل غضب
الحلَّاج واشتوى بالغل، فراودته نفسه أن يضع حدًّا لتجاوزات
الجند استنهض حماسه، فاستلَّ سيفه، وتأهَّب لمقاتلتهم، حين
اقتربت منه طفلة صغيرة، وراحت تجذب أهداب ثوبه، جلس
الحلَّاج القرفصاء وأمسك بكتفي الطفلة واستفسرها عمَّا تريد.

الحلَّاج: ماذا بكِ يا ابنتي؟

الطفلة: إنَّ أُمِّي تحتضر، وأريد أن ينقذها أحد، فليس لي في
الدنيا سواها أرجوك أن تأتي لتنقذها.

تردَّد الحلَّاج في البداية، وتحت وطأة حزن الطفلة وتوسلاتها
رضخ للأمر رغم خطورته. ذهب الحلَّاج مع الطفلة إلى إحدى
التكايا التي اشتهرت بايواء الغرباء والمتصوِّفة، والتي اختبأت بها أم
الطفلة عن أعين العسس، كانت التكيَّة مقفرة، مهجورة، فلم يستطع
أحد من رجال الوالي الوصول إليها، خلت أيام والمرأة تتوارى
عن الأنظار في التكيَّة مع طفلتها، في انتظار اللحظة المواتية للفرار
أو الموت، دلف الحلَّاج إلى حيث رقدت المرأة، وكانت ممدَّدة
في ركن قصي فوق بساط من صوف الماعز، وقد أصابتها الحمى



وجعلت تتمم بكلمات غير مفهومة، كانت البقع السوداء تغطي وجهها وذراعيها تمامًا، ممَّا أصاب الحَلَّاج بالتوجُّس والقلق، حاولت الطفلة التي لم تبد عليها أعراض المرض أن تقترب من أمها، فاستوقفها الحَلَّاج، وقد أدرك أنَّ موت الأم صار وشيكًا احتضن الحَلَّاج الطفلة، التي انفجرت في البكاء وهي تتأمل أمها تلفظ أنفاسها الأخيرة ويلفها صمت آمن يحملها إلى سَكينة أخيرة.

وفي قصر الوالي زحف المرض إلى مخدع الوالي، ونشب أظافره في جسده الممتلئ بإفراط، فذبَّ الوهن في عظامه، وأصابه الهزال والإعياء فلم يبرح فراشه.

تعجَّب الأطباء ممَّا أصاب الوالي، فقد التفتُّوا جميعًا حوله طيلة الوقت، ولم يغفلوا عنه طرفة عين، احتاج الوالي لِمَا أصابه، وحين شعر بتدهور حالته الصحيَّة، وأصبح قاب قوسين أو أدنى من الموت، استدعى جميع أطباء البلاد، وقرَّر أن يفتح خزانته على سعتها لمن يجد لدائه دواء، توجَّس كبير الأطباء خيفة من غضب الوالي، فاستدعى الاحتياطي من مكره، وادَّعى أن ما أصابه لم يكن الوباء، بل وعكة عابرة، وليطمئن قلب الوالي، الذي أصابه الهلع حين رأى البقع السوداء، أخبر كبير الأطباء الوالي أنَّها بقع تظهر على جسد كل من يهاجمه الطاعون، ويفلح جسده في



التصدي له، وبلوغ الشفاء والحصول على المناعة ضده، فتلك البقع ما هيَّ إلاَّ أعراض الاستشفاء وليس المرضى سام الشك الغير حامد الوالي سوء العذاب، فما ثابت الطمأنينة إلى قلبه إلاَّ حين أبلغه كبير الأطباء أنَّ أجساد كل من أصابهم الطاعون ونجوا من برائته تحمل نفس البقع السوداء، ولكي يصدِّق على قوله أمر كبير الأطباء بالاتفاق مع الوزير والقاضي أن يقوم الأصحاء من الناس بتغطية أجسادهم ببقع سوداء.

نادى المنادي في الشوارع والطرقات والأزقة أنَّ على كل أهل المدينة أن يصبغوا وجوههم وأجسادهم بالبقع السوداء، وذلك تعاطفًا مع الوالي الذي داهمه الوباء، وتوعدَّ الجند كل من يخالف هذا الأمر بالقتل. وجاء كبير الأطباء إلى الوالي بالأصحاء من الرعية، وقد كست وجوههم وأجسادهم البقع السوداء، فاطمأن الوالي، وأغدق عليه بسابغ نعمه، وفي المدينة اختلط الأمر على الجند، فلم يستطيعوا أن يميِّزوا بين المرضى والأصحاء، وكانوا يعملون القتل فقط فيمن لم ينفذ الأمر بصبغ جسده بالبقع السوداء.

ورغم ذلك، حين دنا الموت من الوالي قرَّر أن يستدعي الحلاج، ليتبارك به قبل أن يودَّع الحياة ويذهب للقاء ربِّه، جاء الحلاج ومعه الطفلة الصغيرة، ودلف إلى غرفة نوم الوالي، الذي



كان في حالة مزرية، يلهث في وهن، ومن فمّه تخرج الكلمات كالطفل من بطن أمه لحظة المخاض، اقترب الحلاج من الوالي ممسكًا بالطفلة، فبادره الوالي في حوار قائلاً:

- يا مولانا، أخبرني ماذا أفعل كي أنجو من بطش الله؟

- يا سيدي الوالي، لا مفر من الله إلا إليه.

- كم كنت أحسدك على قربك من الله، يا مولانا، لم تملك من الحياة سوى فطرتك، ورغم ذلك فأنت أغنى الجميع ليتني أنصت إليك، كم كنت غافلاً شريراً، فهل يسامحني الله؟

- الله لا يسامح، بل يغفر، فأنت لم تسيء إليه بقدر ما أسأت إلى نفسك، أطلب منه المغفرة، فحبه يفوق عدله، وعدله يفوق جبروته، وجبروته إن لم تتب يفوق غفرانه.

تطلع الوالي بعينين واهنتين غائرتين إلى الطفلة، وقال:

- من تكون هذه الفتاة، يا مولانا؟

- هي ابنتي بالتبني، يا سيدي الوالي، فقد فقدت والديها، ولم يعد لها من يعتني بها.

- ما اسمها؟

- اسمها نيروز، يا مولاي.

الفصل الثامن عشر



«طوبى لطرفٍ فاز منكَ بنظرةٍ أو نظرتين..
ورأى جمالَكَ كلَّ يومٍ مرَّةٍ أو مرتين.. أنتَ المُقدِّمُ
في الجمالِ فأينَ مثلكَ أينَ أين؟»

ظَلَّتْ الكلمات تنسكب من فم المريض كأنَّها قهوة من فنجان
يترنَّح فوق كفٍّ مرتعشة، راح سمير ينصت في صمتٍ وينفث دخان
سيجارته بكثافة كمدخنة خربة، ثمَّ أطلق تنهيدة ساخنة طالت حتَّى
كادت تشعل النيران في الغرفة، وقال بصوت مرتجف:

-نيروز؟!

-نعم، كانت تدعى نيروز، طفلة قطفت محاسنها من كل
بستان، وكان نصيبها من الجمال غير منقوص.

-وماذا تتذكَّر أيضًا من حياة شيخك هذا وفتاته؟

ظَلَّ المريض يحرق في وجه سمير لبرهة كمن استبهمت عليه



ملاحمه، ثمَّ تمدَّد فوق أريكته ثانيةً، وتطلَّع في سقف الغرفة ملياً،
قبل أن يقول:

-استيقظت ذات مساء، وقد فاهت المدينة بالصراخ حين
خرجت ألسنة النيران من النوافذ كأنَّها تسخر ممن وقفوا في الشارع
يشاهدون ما يحدث، وتهزأ بكل من لا يزال يؤمن بوجود من يمكنه
أن ينقذ سكَّان المنزل صرخات استغاثة، وعويل، ونَدَّابات ترتدن
السواد وتعددن من راح ضحية النيران، وأطفال يستصرخون من
يملك الجرأة والإقدام ليجتاز النيران ويخرجهم منها سالمين، كان
سكَّان الشارع متَّكئين على الأرائك الخشبية في المقهى على قارعة
الطريق، يدخلون النارجيلة، ويحتسون أقداح القرفة بالجنزبيل،
اختلط الحابل بالنابل، والنيران تلتهم المنزل رويداً، رويداً.

فغرت فاهي مدهوشاً، وعقدت المفاجأة لساني، فلم أنفَوْه
بكلمة حين رأيت بعضهم يشعلون النيران عمداً في المنزل، لماذا
يشعلون النيران في منزل هذا الشيخ الجليل؟ أعلم أنَّه كثيراً ما
عارض الخليفة العباسي المقتدر بالله، ولكنَّه لم ييح بذلك. لكنني
أحدهم بكوعه، ودفعي آخر بعيداً عن المنزل، الذي كاد أن يتهاوى
إلى الأرض، تساءلت في لهجة أسيانة إن كان الشيخ موجوداً داخل



المنزل، فباغتني أحدهم قائلاً:

-هل أنت مأفون يا هذا؟ لماذا لا تفرّ من هنا؟ نحن فقط نشعل النيران في منزله بما يحويه من مخطوطات تكشف عن زندقته وكفره.

-وأين الشيخ؟

-لقد ظننا أنّه مات فيما مضى، ولكنه عاد ليطل علينا بأشعاره الإلهاديّة، وحلقات الذكر، ومريديه الكثيرين.

وقف الجميع ينظرون بهجة إلى المنزل الذي ترنّح، وتساقطت جدرانه شيئاً فشيئاً، وفي أعينهم نظرات متربصة متحفزة، أثارت حنقي، فاشتتت غيظاً، ودنوت من أحدهم وبادرته قائلاً:

-أيسرّك أن ترى منزل الشيخ يحترق هكذا؟

-بالطبع، فسوف أتخلص أخيراً من هذا الزنديق المارق، الذي دائماً ما كان يعاملني بازدراء وتندّر، وكأنتني مسئول عن الفساد في الدنيا، وقد تناسى أنّنا من قمنا بوضع اسمه على شارعنا، وبعد أن كان شارع «الممالك»، صار شارع «الحلاج».

لم أعر كلامه اهتماماً، ومددت ناظريّ لأرى ما يفعله الآخرون، فرأيتهم يحملون من ماتوا من مريدي الشيخ من أثر



الاحترق في أجولة، ويلقونهم فوق عربة يجرّها جَوَاد هزيل،
ويقفون فوق رءوسهم في انتظار أن يلفظوا أنفاسهم الأخيرة،
جحظت عيناى، وانتابتني رعشة، توغّلت في أوصالي، التي
كادت تنفصل عن بعضها البعض، كيف صارت الملائكة شياطين
إثم؟! هاجمتهم وحاولت أن أمنعهم جهدي وما وسعتني حيلتي،
لكنّهم تكالبوا عليّ، وأوسعوني ضرباً، وجثا أحدهم فوق صدري
حتّى غادرت العربة الشارع متجهة إلى المقابر، حيث سيتم دفن
الجثامين في صمت، كاد عقلي أن يفلت منّي وأنا أراقب ما يحدث،
هل أصيبت المدينة بالجنون؟ أم أنّي أفقد صوابي؟

قرّرت ألا أقف مكتوف الأيدي، فتوجّهت إلى أقرب مخفر كي
أشكو أهل المدينة، الذين عملوا في سكّان المنزل وجيرانهم الثقيل
والتنكيل، كان المسؤول يجلس فوق كرسي أثير، بجسده الشحيم
الممتلئ بإفراط، وحوله وقف جمع من رجال غليظي الهيئة،
كالحي السحنة، مثل المشبوهين، والمعتادي الإجرام، وقد وشت
بهم ملامحهم الغير متناسقة، والندبات التي تكشف عن ميل إلى
العنف والعراك بضرارة، فضلاً عن أعينهم التي امتلأت شرّاً مقيماً.
رأيتّه يتحدث إليهم بكل تودّد وألفة، وهو يلقي عليهم



تعليماته، وكلّهم آذان صاغية صاغرة، رمقني أحدهم حين دلفت إلى المخفر بنظرة مستريية، وعَضَّ على شفتيه، وسعل عدّة مرّات، فساد الصمت المكان، تطلّع المسئول إليّ في تساؤل، وحذر، كأنّ الشبهات غربان غادرت أكتافهم وحامت حولي، ثمّ استفسرني عن سبب مجيئي إليه، أبلغته برغبتي في تحرير شكوى ضد أهل المدينة عمّا صدر منهم.

ران الصمت لثوان، ثم انفجر في الضحك، وتبعه الآخرون، وكأنّني ألقيت عليهم نكتة مستملحة، ورغم شعوري بالضيّق لعدم اكترائه وسخريته مني، أبرقت أساريري، وتلاشت حدّة التوتر في كلامي، فاستنهضت همتي، وكرّرت عليه الحكاية، توقّف عن الضحك فجأة، كما لو كان في طرفي شفتيه مكابح، ورماني بنظرة كرصاصة ناجزة اخترقتني، كافحت حتى أتملّص من نظرتة الفولاذية، وقلت:

- ألا ترى أنّ في الأمر شيئاً مريباً؟

- بالفعل، اهتمامك بالأمر قد أثار الشكوك في صدري. خذوه!

وقبل أن أدرك الأمر، قفز اثنان منهم فوقي، وقبضا على عنقي، وقبدا حركتي تماماً، رفعاني من فوق الأرض، وحملاني



على أعناقهما، ثم اتجها إلى الزنانة، وأنا أصرخ متوسلاً:

-أتركوني، أنا لم أفعل شيئاً!

لكن أحداً لم يحفل بكلامي، أودعاني زنانة معتمة، إلا من ضوء القمر الذي ينسلّ داخلها من كوة صغيرة في الجدار.

-ليتني لزمت داري - كان لسان حالي.

كان المكان بارداً جداً، ولم أسمع سوى صفير الهواء في أركانه، ونعيق الغربان في الخارج، وحفيف الشجر، وطققة عظام أصابع ورقاب النزلاء، وهسيس ماء وشيك الغليان، وهمسهم المتوجّس حين رأوني رويداً رويداً اتضحت الرؤية، وأرسلت بصري في المكان فرأيت عدداً من الجند في زيهم العسكري بدت على وجوههم إمارات الدهشة، وصاح أحدهم:

-معتوه آخر!

انعقد لساني ووقفت لصق الحائط، وقد وهنت عزيمتي، وخارت قواي توقعت أن يشبعونني ضرباً اقترب مني أحدهم، وابتسم ابتسامة أنارت جانباً من المكان، وخففت من وطأة الفرع في صدري الخائر، وقال.

-ما تهتمك يا هذا؟



- لا شيء، أنا لم أفعل شيئاً سوى أنني دافعت عن شيخ مسكين.

- إذن هذه هي بالضبط تهمتك!

- ماذا تعني؟

- لا عليك فقط هوّن على نفسك، كلنا مظلومون، كلنا ظلمنا أنفسنا، فكان مصيرنا هاهنا هل تود قدحاً من الشاي؟

لم أفهم شيئاً مما قاله الجندي، ولم أهتم بالبحث عن تفسير، فقد كنت منهمكاً في التفكير فيما آل إليه أمري، ولكنني لم أرفض عرضه الكريم، فجاء بقدح من الشاي الساخن، وأمسكت به في نهم لأستدفي به قبل أن أرتشفه.

كان الإعياء قد أخذ مني مأخذه، فداهمني نوم عميق، ولم أدرك كم من الساعات قضيتها في سباتي هذا، حتى استيقظت لأجد نفسي في قاعة محكمة، من أتى بي هنا، وكيف؟ لم أجد إجابة، ولم يسعفني الوقت لكي أستوضح أحداً، فقد كان القاضي يتهيأ لإصدار حكمه ضدي، وقد زعق الحاجب على اسمي، فانتصبت في مكاني بفعل يد من فولاذ سحبتني لأعلى، نظرت إلى القاضي، الذي راح يقلّب في كومة من الورق أمامه، وقد بدت أنّها كلّها اتّهامات قد



وجهت ضديّ، فقد راح يرسل ناظره إليّ بين الفينة والأخرى من
خلف نظّارته السميكة، ثمّ يتفرّس في الأوراق المكدّسة أمامه، بغتة
رمقني بنظرة غاضبة، وقال:

- أنت! هل تعترف بجرائمك؟

نظرت يمنة ويسرة ومن وراء كتفيّ، كأنني أبحث عمّن يوجه
له القاضي تلك الكلمات، فابتسم ابتسامة ساخرة مآكرة وقال:

- أنا أتحدّث إليك أنت. هل تعترف بجرائمك؟

- جرائمي أنا؟

- نعم.

- وما هيّ تلك الجرائم، سيدي القاضي.

- أنت تعلم بها جميعاً، فلا تتحاذق.

- أنا لا أعلم شيئاً يا سيدي، صدّقني.

ضيق القاضي حدّقيه، ومطّ بوزّه، وتلفّت حواليّه، ثمّ قال

وقد شحبت سحتته:

- إذن سوف أجعلك أمثلة للشّعب والتمرّد حكمنا عليك

بالموت حرّفاً.



اقتادني مجموعة من أشخاص استعان بهم القاضي لحراسة من جلسوا خلف القضبان في انتظار إصدار الحكم ضدهم، فلم يكن هناك أحكام بالبراءة البتّة، عدت إلى الزنازة في انتظار مصيري.

وهناك في السجن التقيت بالشيخ صاحب المنزل الذي أحرقة أهل المدينة كان كهلاً، مهيض الظهر، ذا لحية بيضاء طويلة، كأنّها لم يمسهها موسى من قبل، سررت لمرآه كثيراً، فقد كنت دائماً من مريديه، وقد قرأت أشعاره بنهم مشبوب في الصغر، وفيها يحكي عن آخر الزمان، في مدينة يتحوّل كل من فيها إلى النقيض، الشرطي إلى مجرم، الطبيب إلى قاتل، المعلم إلى لص، الشيخ إلى زنديق داعر، ويبقى شخص واحد لا يتحول، وهو شخص معتوه. في أشعاره لا يدرك أحد شيئاً سوى المعتوه، وكل الشخصيات تموت ثمّ تعود للحياة مرّات ومرّات، وهذا دأب كل من يتعاطى الحياة، ولا يتمرّد شعرت أنّي أعيش داخل جدران أشعاره، حتّى ظننت أنّي مجرد شخصية فيها صنعت من حبر، وليس من دم ولحم.

ذات يوم رأيته يتجوّل في ساحة السجن وحده، ولا يراه أحد. كان بطيء الخطو كأنّما ينوء صدره بهمّ ثقيل أو ألم دفين، دنوت منه، وحاولت أن أجاذبه أطراف الحوار، فبادرته قائلاً:



-كيف حالك يا شيخنا؟
توقف عن سيره، وتطلع في وجهي، وتفرّس فيه ملياً، ثم قال:
-هل أعرفك؟
-لا يا سيدي، ولكنّي بالطبع أعرفك أنت أشهر من نار على علم.

-أعزّك الله، من أنت؟
-أنا من مرديك، يا شيخنا الفاضل.
-هذا من دواعي سروري يا بني.
-أنا من محبي أشعارك وأفكارك يا مولانا.
-إذن فأنت هنا بسبيي.
-لماذا تقول هذا يا شيخنا؟
-كل من يقرأ أشعاري تصيبه لعتي، أرجوك ألاّ تحمل لي ضغينة.

-ولماذا الضغينة؟ أنا هنا بسبب لا شأن لك به.
-هذا غير صحيح يا بني، إنّها أشعاري التي أكل الزمان عليها وشرب.



-ماذا تقصد؟

-الجميع يعيش داخل أشعاري منذ خطّطت أول أحرف في
تكويناتها فوق الورق.

-معذرة، فأنا لا أفهم شيئاً.

انسربت على وجنتيه دمعتان كانتا ترجر جان في مآقيه، وهو
يحدق في الفراغ أمامه، ثم أطرق برأسه، واستأنف، قائلاً:

-لقد غيّرت من معالم المدينة وكنت أظن أنني أكتب
أشعار حب إلهي، قد تُصلح من حال المؤمنين، فانقلب السحر
على الساحر، وأصابني لعنة جعلت من أشعاري حقيقة أعيشها
ويعيشها كل من يقرأها.

رغم أنني بدأت أتشكك في حصافته المعهودة، وقواه العقلية،
حاولت أن أنصت له، وأستوضحه أكثر، حين قال:

-كل الشخصيات التي قابلتها يا بني هي من صنع خيالي أنا،
فلا وجود لرجال الشرطة الذين قبضوا عليك، ولا وجود للقاضي
الذي أصدر حكمه عليك، ولا وجود للسجن الذي أنت فيه الآن،
كلّها من صنع يديّ.



كنت أستمع إليه ساهم النظرات، ومحملًا في وجهه في حيرة
أكلة، وهو يواصل سرده....

- أنت الآن في عالم خيالي، أنت في دنيا أخرى غير التي تعرفها.
اقتربت منه وتلمّست جبهته، ونظرت في حدقتي عينيه، عليّ
أجد تفسيرًا للوساوس التي أصابته، فابتسم حين أدرك مغزى
اضطرابي، وطفق يقول:

- أنا لست معنوها يا بني، تلك هي الحقيقة، هل تتذكر آخر
شيء كنت تفعله قبل أن تأتي إلى هنا؟

- نعم كنت أشاهد منزلك يحترق على أيدي أهل المدينة.

- أقصد قبل ذلك.

حاولت أن أجترّ ذكرياتي بعناء، طَفْتُ فوق سطح ذاكرتي تلك
اللحظة التي كنت فيها ممسكًا بأشعاره، وأنا فوق فراشي أحاول
أن أغالب النعاس كي أستكمل قراءتها، ثاب إلى عقلي وميض من
الحقيقة، فالتمعت عيني، وابتسم الشيخ كأنه يقرأ ما كان يدور في
ذهني، وقال:

- أرايت؟ تلك كانت البداية يا بني، هل تدرك الآن سبب
مجيئك إلى هنا؟ أنا السبب.



ظننت أنني في حلم مريع، وكانت كلماته تطنّ في أذني طينياً
متوالياً ملحاً، حاولت أن أستفيق منه بلا جدوى، فأذعنت للأمر،
وقلت للشيخ:

-إذن ماذا عليّ أن أفعل يا مولاي؟

-لا شيء فقط يجب أن تنصاع للأمر، وتنتظر النهاية مثلي.

-ولماذا عليّ أن أنتظر؟ ألا تعلم نهاية حكايتي؟

-لا، لم يسعفني الوقت لاستكمالها، فقد اقتحموها حين
أتى ذكرهم فيها، ولأنّك من مريدي، وتنتهج نفس منهجي، وترى
بعيوني، وتسمع بأذنيّ، عليك أن تنتظر مثلي، أنت شخصية في
عالمي أنا.

-لا أريد أن أكون شخصية في عالمك، أريد أن أعود لسابق
عهدي، وأن أكون كما كنت دائماً.

-تقصد تريد ألا تكون كما لم تكن من قبل!

فجأة شعرت بدوار ومادت الأرض من تحتي، وتهاويت
كالمذبوح.

أفقت بعد فترة وجيزة فوجدت الشيخ يجلس بجوار فراشي،
ويمسك بكتاب يقرأ منه بصوت مرتفع، ويميل بجسده ذات



اليمين وذات الشمال، كأنه يقرأ عليّ تعاويذه، نهضت واعتدلت في جلستي، فتوقّف بغتة عن القراءة وتلاشت كلماته كأنّها عصفير ارتاعت حين قذفتها بحجر، قطبت جبيني، وسألته:

-ماذا تقرأ يا سيدي؟

-هل تعرف أفلاطون؟

-بالطبع، يا مولانا؟

-حسنًا. إنّها مدينته الفاضلة.

-ولماذا تقرأها؟

-أنا أقرأ الكل من هم مثلي، هم آلهة صغار، يحلمون باليوتوبيا، فيُصدمون بالديستوبيا، هل رأيت جواهرًا يصوغ قطعة ألماس من قبل؟
-لا.

-خلق يوتوبيا كهذه يا بني مثل صياغة الماس تمامًا، نحن نعرف قيمة ما نصيغ، ونقدّر ما تصنعه يدانا، ولكن من ينظر في أعمالنا بعين لا تدرك حقيقة الأشياء لا يرى فيها سوى قطعة زجاج يرى فيها قبحه أمّا صاحب الماس، أقصد الحالم، فيراها بلّورة سحرية تكشف عن أسرار الماضي، وتحاول أن تسبر أغوار المستقبل.



-وماذا ترى في مدينة أفلاطون الفاضلة؟

-أرى كلاباً تعوى في جنح الليل، وأرى فتاتك تهرول ناحية
النهر.

كان وقع كلماته كالصاعقة، وكاد قلبي أن يجفّ، وتتوقف
أنفاسي، فسألته:

-ولماذا تتوجّه فتاتي للنهر؟!

-إنّها تبحث عنك، هاهي تقف مبهوتة مستعيذة على ضفته
تقلّب كفيها التياغاً وفرعاً، إنّها تظن أنّك غرقت فيه، هيّ تناديك في
هلع، ويكاد الحزن يفتك بها فتكاً، لقد أجهشت بالبكاء، وهي تظن
أنّها من تسببت في سقوطك في النهر، إنّها تكفكف دموعها بظهر
كفيها، إنّها تمسك بالماء في راحتيها هنيهة، ثم تلقيه في النهر وكأنّها
تغربل الماء بحثاً عنك، إنّها لا تجد ما يطيب نفسها ويلاهيها عن
حزنها عليك.

-وماذا عليّ أن أفعل يا سيدي؟

-لن تستطيع أن تفعل لها شيئاً طالما مكثت في دنيائي.

-إذن ساعدني، واكتب في أشعارك ما يساعدي على النفاذ
خارجها.



زفر في ضيق وامتعاض وقال مكدود النبرة:

- لا أستطيع، فأنا أيضًا حبيس هاهنا مثلك، ولا أملك أن
أخرج، لي أيضًا من ينتظرنني في آخر القصائد!

- إذن من يملك لنا الخلاص إن لم تمتلك أنت القدرة على
الانفلات من قبضة القصائد؟ لقد خذلتني، لقد جعلتني أكفر بك.
كيف لا يمكنك أن تغير ما صنعت يداك؟

شجبت سحته، ورمقني بنظرة معاتبة، وقال:

- أهكذا تردّ الجميل؟ لقد أعطيتك دورًا في أشعاري، والآن
تبيس مشاعرك نحوي!

- ماذا تنتظر مني، وأنا لا أملك في أشعارك مصيري، ولا
تملك أنت منها الفكاك؟

- لقد داهمني اليأس كثيرًا، وزايلتني قدرتي على الخلق والإبداع،
حتى قرّرت أن أفعل مثلما فعل الشاعر الصقليّ أنبادوقليس، لقد
ألقي بنفسه في بركان «إتنا» احتجاجًا على زيف العالم!

- لا، أرجوك ألا تفعل، لا تمت قبل أن تخلصني، لن أترك
قبل أن تخلصني.

- لن ينقذك سوى الموت، الموت فقط هو المخلص.



أجمتني كلماته، وصارت كالجبل يجثم على صدري.
حدجته بنظرة ساهمة حزينة، وقلت:

-الموت؟!

-نعم يا بني لا يعيش في أشعاري سوى من يتبغي البقاء
داخلها، إن أردت أن تفلت من الدائرة الملعونة، مُت.

-إن كان في الموت نجاة، فلماذا لا تلجأ أنت له؟

ابتسم نصف ابتسامة ساخرة، ورمقني بنظرة أسي، وقال:

-ليتني أستطيع يا بني، في القصائد لا يموت الشاعر، بل
الكلمات.

-إذن فأنت حي لا تموت.

-ليس للموت سلطان على من هو مثلي، يا بني.

أطرقت برأسي في يأس، وقد ثَبَّطت كلماته من رغبتني في
التحدُّث إليه، لقد كنت ضحيَّته حين قرَّرت أن أقرأ أشعاره. لكنني
لم أملك أيَّ خيار، فقد كان الشاعر الأوحده، ولم أجد ما يفسِّر لي
الحياة غير قصائده، وأسفار كتبه التي امتلأت بها أرفف المكتبات،
لقد كاد أن يكتب لنا مناهجنا الدراسية! رفعت رأسي، ونظرت إليه
بنظرة غضب واستهجان.. لكنني لم أجده!



الفصل التاسع عشر



«فما لي بَعْدُ بَعْدَ بُعْدِكَ بَعْدَ مَا تَبَيَّنْتُ أَنَّ الْقَرَبَ
وَالْبُعْدَ وَاحِدٌ..»

مثل قط انسرق إلى مخدع صاحبه في ليلة باردة، تهالك
المريض فوق الأريكة، بينما أشعل سمير سيجارة وزفر دخانها
في أسى وهو ينصت، استبدَّ بالمريض الحزن، فتهدَّج صوته وهو
يحاول أن ينطق بالكلمات، مثل ديك قد فقد صوته بغتة لحظة
ولوج الفجر، فقال مغالبًا الحشرة في حنجرته:

-لقد اختفى الشيخ.. دون أثر، وتركني فريسة الحيرة، لا
أملك سوى لوعة الأسئلة.

راح سمير يدوّن بعض الملاحظات في دفتره، وقال في تردّد.
-ألا يمكن أن تكون واهمًا، وأنَّ ما رأيته كان أضغاث أحلام؟
-يا دكتور سمير، أنا رجل قد خبر الحياة، ولم يعد لي متسعًا



للأحلام، أنا لا أملك سوى تلك الذكريات التي تنتمي لآخرين،
أمّا أنا فليس لي ذاكرة.

- وهل رأيته مرة أخرى؟

- نعم.. رأيته في السماء.

لم يستطع سمير مغالبة الصرخة التي اندفعت من بين شفثيه،
رغم أنه يتعّيش من صمته وإنصاته، وهو يهتف قائلاً:

- ماذا؟ في السماء؟!

- نعم، يا سيدي في السماء.

- (في دهشة واستنكار) وكيف حدث هذا؟

- ألم تر الله من قبل؟

استبدّت الدهشة بسمير، ففغر فاه، ورشق المريض بنظرة
استهجان، ثمّ صاح قائلاً:

- ماذا تقول؟ أتدرك ما تتفوّه به؟

تجلّت في عينيّ المريض نظرة فارغة من المعاني، وندت عنه
زفرة أسى، ثمّ أردف يقول:

- نعم، لقد قابلت الله، وأنا أعيش في جسد ذلك الشيخ.



- (في استياء وتندُّر) وكيف حدث ذلك؟

- لقد ساق الله السماء إلى غرفة نومي، وأتى في أبهة وبهاء.

- الله؟!!

- نعم، يا طبيب، ما الذي يدهشك في ذلك؟

- (في تهكم) أتقصد أن الله قد جاء إلى منزلك؟

- نعم، وإن كان منزلي من لحم ودم.

تقلَّص وجه سمير حنقًا، وأظلَّته سحابة من الوجوم، فحذج المريض بنظرة ثاقبة، وقال في غضب:

- كفى! تفكَّر مليًّا فيما تقوله، يا أستاذ رؤوف.

- أنا أدرك ما أقوله، يا طبيب، ولكن يبدو أنه من العبث أن يفتح الإنسان خوان قلبه ثم يعرضه عاريًّا أمام الناس (ضاحكًا) وخاصة الأطباء النفسيين، يا عزيزي الطبيب، لقد رأيت الله وشعرت أن روحي تغوص في أعماقي كمن يحلم بأنه يسقط من حالق في السماء ببطء شديد، ودون أن يصاب بأذى.

تملَّكت سمير نوبة من الغضب المكتوم، فراح يزفر في استياء، ولكنه حاول أن يغالب ذلك الشعور، فالمريض يبقى مريضًا مهما تفوَّه من هراء وخيالات جامحة، فزَمَّ شفثيه وحاول أن يرسم



ابتسامة باهتة فوقهما، واستوضحه قائلاً:

- حسنًا، يا أستاذ رؤوف، هل تستطيع أن تصف الله؟

- وهل يستطيع الكفيف أن يصف النور؟

- ألم تقل أنك عاينته؟

- عاينته نعم.. أستطيع أن أصفه، لا يا سيدي.

أحسّ سمير بعدم جدوى التحدّث عن أمر يعلم جيدًا أنّه من صنع خيال المريض، فأثر الصمت، حين باغته المريض قائلاً:

- لكنّه قد أخبرني أنّه مثلي، يشعر بالوحدة في ملكوته.

انتبه سمير إلى عبارة المريض بشيء من الاضطراب والحنق، فألقى بقلمه ودفّره فوق المكتب، وعقد ذراعيه فوق صدره في استنكار، ولم ينبس ببنت شفة، فاستأنف المريض قائلاً:

- لقد ظنّ أنّه بخلق العالم سوف يتخلّص من وحدته، فزاده العالم شعورًا بالوحدة، لقد أخبرني أنّه يستطيع أن يعالج قبح العالم، لكنّه يخشى أن يتلوّث منه بشيء، وقال أيضًا أنّه على من خلقهم أن يكونوا ممتنّين له، لأنّه لم ييدهم رغم خطاياهم القميّة، وعلى من لم يقم بخلقهم أبدًا أن يكونوا ممتنّين له أيضًا، لأنّهم لا يدركون كمّ السعادة التي ينعمون بها.



انتصب سمير واقفًا، ودنا من الأريكة حيث يرقد المريض،
وأوماً برأسه كمن يريد كتابة النهاية للقاء طال أكثر ممَّا ينبغي، ثمَّ
أشار إلى مريضه قائلاً:

- حسنًا، يا سيد رؤوف يكفي ما أخبرني به اليوم، وسوف
ألقاك فيما بعد.

- (في دهشة) أنت أول إنسان لا يرغب في الاستماع إلى
أخبار الله!

- (في غضب) قلت لك كفي، يا سيد رؤوف.

- كيف تكون طيبًا، مهمته الإنصات إلى مرضاه، ولا تستطيع
أن تمنحني من وقتك ما يكفيني للبوح بما في نفسي، أنت تفعل
تمامًا كمن يؤم الصلاة وهو غير مؤمن.

- (في دهشة) غير مؤمن؟! أنا غير مؤمن؟ كل ما تتفوه به أنت
يا سيد رؤوف يدعو من هم مثلي إلى عدم الإنصات، فكلامك
محض تجديد على الذات الإلهية.

- (في حيرة) تجديد؟ الله نفسه لم يتهمني بذلك، أنت لا
تدرك ما بيني وبين الله، يا طيب.

رفع سمير رأسه إلى السماء كمن يستنجد بها، ثمَّ قال ممتعضًا:



- حسنًا، لا أريد أن أعرف ما بينك وبين الله، فما قلته يشي
بجهل وليس معرفة.

أطرق المريض برأسه، فزوى سمير ما بين عينيه حين أدرك
خطأه واندفاعه، فقال معترًا:

- أعذر عن عبارتي الأخيرة، يا أستاذ رؤوف.

- (مبتسمًا في ضيق) لا عليك، يا طيب، لا أحد يستطيع أن
يدرك ما أشعر به، ولا أحد يمكنه أن يرى بعيني.

أحسّ سمير بمرارة في كلمات المريض، فحاول أن يسرّي
عنه قائلاً:

- ولماذا لا تقترب من الله أكثر، فيعينك على ما أنت به؟

- لقد اختلفنا، يا سيدي.

- (في تهكم) حقًا؟ وكيف حدث هذا؟

- اختلفنا لأسباب دينية، فأنا أعبد، وهو لا يعبد أحدًا.

- وهل يمكن أن يعبد الله أحدًا؟

- نعم، ألم يخلق الإنسان على صورته؟ إذن فليعبد نفسه، كما
يفعل الإنسان.



هَزَّ سَمِيرَ رَأْسِهِ فِي سَخَرِيَّةٍ، وَقَالَ وَهُوَ يَرْمُقُ الْمَرِيضَ بِنَظَرَةٍ
ضَجِرَ.

-احترس، يا سيد رؤوف، فأنت على وشك أن تفقد أعلى ما
يملك الإنسان، الإيمان.

-الإيمان؟! يا سيدي، قد لا أستطيع أن أزهو بلحظات إيمان
في حياتي، ولكنني أستطيع أن أفخر كثيرًا بلحظات كفر وشك
خرجت منها سالمًا، دون أن يغادر الله قلبي.

لانت ملامح سمير رويدًا، فصوّب ناظريه إلى المريض الذي
أطرق برأسه، ثم قال مواسيًا:

-يبدو أنك قد مررت بلحظات عصبية في بحثك عن الله، يا
أستاذ رؤوف.

-إن كنت تعتقد أن البحث عن الله مضمّن، فجرّب الشك، يا
طبيب، فهو قاتل، لم أحتاج إلى البحث عن الله، وقد كان هناك
دائمًا في انتظاري؟

-ماذا تقصد؟

ابتسم المريض ولم ينبس بكلمة.

ران الصمت لبرهة، وعينا سمير لا تبرحان وجه المريض، ثم



عاد إلى مقعده وأمسك بدفتره وقلمه، واستطرد قائلاً:

-على آية حال، يا أستاذ رؤوف، أنا لا أعرف ماذا يمكن أن
يربط بين ما تسرده عن لقائك بالله، وبين شيخك الحلاج المختفي.
-لقد كان الحلاج هناك دائماً، وكنا مثل روحين حللنا في
جسد واحد، ورأينا الله سوياً.

- (في حيرة) أعني أنك كنت والحلاج شخصاً واحداً؟
-نعم.

-وماذا حدث إذن للشيخ بعد ذلك اللقاء؟

-ألم أقل لك أن الله قد ساق السماء إلى غرفة نومي؟
- (في امتعاض) أتكثرها ثانية؟!

ابتسم المريض دون أن يعباً باستياء الطبيب، واستطرد قائلاً:

-لقد أتت الملائكة في ثياب بيضاء ناصعة، تشع ضوءاً،
وتخفي عن الأعين قرص الشمس، جاء ملاك يحمل قيثارة، وآخر
يحمل بوقاً، وثالث يحمل كتاباً.

استسلم سمير أخيراً لهذيان مريضه، فأسند ظهره على
المقعد، وعقد ذراعيه، ولم ينبس أضاف المريض قائلاً:



-قام الملاك الأول بعزف لحن فردوسي كاد أن يذيب جلدي، بينما نفخ الآخر في البوق، فانشقت الأرض عن موتاها.
اعتدل سمير في جلسته في انتباه مفاجئ، ثم حدق في وجه المريض، الذي راح يلوح بيده في الهواء ويقول:

-رأيت الموتى يخرجون من باطن الأرض أمام ناظريّ، ثمّ يتوجهون إلى الله، مبتهلين، رافعين أياديهم إليه في تضرّع، بينما اكتفى الله بالمشاهدة، كان الموتى يكون بكاءً مرّاً، وينشدون بابتهالات ترحل الجبال عن قواعدها.

- (في وجوم) وماذا كان شيخك يفعل... أقصد ماذا كنت تفعل؟

-كنت أخطب الله، قلت له كم أردت أن أحبه للكمال، ولكنني لم أستطع، فأحبته بكل ما أوتيت من نقائص، أخبرته أنّي أعذر عن كل صباح قام بخلقه، وقمت أنا بدهسه بعينيّ دون أن أسبّح بقدرته، وكل مساء خلدت فيه للنوم، دون أن أحمدّه على رحمته لأنّه أمهلني ولم يسلبني حياتي في ذلك اليوم، مانحاً إياي فرصة جديدة. قلت له أنّي حين أراه أتعجّب كيف ينام الكون، وفي قلب كل مؤمن صوت تسايح يوقظ الموتى؟ وبعدما تحدثنا



مليًا، جاءني الملاك الثالث يحمل كتابه، وراح يقلّب صفحاته،
بينما أفقدتني الدهشة النطق.

- (في فضول مباحث) ماذا رأيت في الكتاب أصابك بالدهشة؟
- صورًا قديمة كالتواييت، تحمل نفس الرائحة ولها نفس
القتامة، رأيت صورة الكون قبل خلق الإنسان، حين كان الظلام
دامسًا، وعلى وجه الأرض سحابة من الدخان كتلك التي من
شواء، ثمّ رأيت صورة الكون بعد خلق الإنسان، وقد ازدادت قتامة،
واختفت السحابة تمامًا، ولم يبق سوى رائحة الشواء ثمّ تتابعت
الصور شأن شريط سينما، فرأيت آدم وحواء يجوبان السماء،
وهاييل مقتولًا، وسفينة نوح تمخر عنان السماء ولا تحمل على
متنها سوى العواصف، ويوسف يتقلّب في محبسه باكيًا، والمسيح
يمشي فوق صفحة المياه، وصورة في آخر الكتاب لتل مرتفع، حين
دققت النظر رأيته كومة من جثث الموتى.

- (في دهشة) موتى؟!!

- نعم، يا عزيزي يموت الناس عند الخامسة والعشرين،
ولكنّهم يدفنون عند الخامسة والسبعين، وكل من رأيتهم في الصورة
الأخيرة في ريعان الشباب، رغم جثثهم التي أصابتها الكهولة.



- (في تجهم) كأنك ترى الغد.

- بل أرى الأبدية في صورة، ولكن هناك أمرًا ما قد أثار
حفيظتي.

- (عاقداً حاجبيه في حيرة) وما هو؟

- لقد كان هناك في كل تلك الصور أمر مشترك، لقد كان هناك
ظل في خلفية الصور جميعاً.

- ظل! لمن كان هذا الظل؟

- لفتاة!

اكفهر وجه سمير، ولاذ بالصمت لبرهة، حين طرق أحدهم
باب الغرفة مرّت دقائق حين دلف إلى الغرفة صديقه يوسف،
ومعه زوجته نيروز، وحين رأى المريض نيروز، اعتدل في جلسته
فوق الأريكة، وابتسم في غبطة وقال:

- مرحباً، يا فتاتي!



الفصل العشرون



«لا يُصلع قلبي غيرك»

انتصب المريض واقفاً، ودنا من نيروز في خطوات بطيئة، كحيوان مفترس يتأهب للانقضاض على فريسته، ثم بغتة تهالك على ركبتيه أمامها، وأطرق برأسه في تشوّف وخنوع، بينما راحت نيروز ترشفه بنظرات الدهشة، حين قال:

-ماذا أتى بك الآن، يا فتاتي؟ هناك أوتار في القلب ينبغي ألا تهتز ثانية.

ظَلَّ سمير يرمق المريض بنظرة حائرة، بينما راح يوسف ينقل ناظريه بين المريض وبين زوجته نيروز، والتي اكتفت بالتحديق في دهشة في وجه المريض العاشق الوامق استأنف المريض رغم حيرتهم الأسيرة قائلاً:

-قلبي كالطفل، ينبغي ملاطفته حتّى ينام أرجوك، لا توقظي



في القلب ما قد خمد منذ قرون. ولكن كيف يمكن أن يغفل القلب
وبه كل هذا الضجيج والصراخ طلباً لرؤيتك؟

امتعض وجه يوسف، فاندفع نحو المريض، وخاطبه في
غضب قائلاً:

- عمّا تتحدّث، أيّها المأفون؟ كيف تخاطب زوجتي هكذا؟
أسرع سمير بفصّ الاشتباك، فقال وهو يدفع يوسف بذراعه
بعيداً عن المريض:

- لا عليك، يا يوسف، أستاذ رؤوف يعاني من بعض الهلاوس
السمعية والمرئية، وربّما ظنّ أنّ زوجتك شخص يعرفه.

لم تلن ملامح يوسف، وقد تطاير الشرر من عينيه، دون أن
يحرّك المريض ساكناً، بينما تسمّرت نيروز في مكانها، وهيّ تحقّق
في وجه المريض في حيرة وأسى مباغتين، أردف سمير يقول:

- أستاذ رؤوف، أقدم لك صديقي يوسف وزوجته نيروز.
لم يعبأ المريض بكلمات سمير، واستطرد قائلاً وقد صوّب
ناظريه إلى وجه نيروز في وله وشوق:

- لقد أحبيتك، يا فتاتي، نيابة عن رجال العالم جميعاً،
فامنحيني قدرًا من حبّك كي يقتات عليه القلب.



استبدَّ الغضب بيوسف، فاندفع مرة أخرى نحو المريض،
ودفع رأسه بركبته بعنف، سقط المريض على الأرض، واندفعت
الدماء من أنفه، فأمسك سمير بجسد يوسف، محاولاً منعه من
الوصول للمريض، ثم حاول أن يقدم يد العون لمريضه حتى
توقف النزيف رغم ذلك، لم يكثرث المريض لما يحدث، وظلَّ
يتحدَّث إلى نيروز قائلاً:

- قلبي يزدد احتراماً كلما تقدَّمتُ في الحب، ولم أعد أطيع
البعاد مرَّت مئآت السنوات، ولم أشف من جُبك بعد، يا فتاتي. لقد
ألقي بي اليتيم، وليس فقط الفراق، في أعماق الحزن، يا حبيبتني.
صاح يوسف في وجه سمير، الذي أمسك بجسده ولم يفلته،
فقال:

- ما هذا الهذيان، يا سمير؟ كيف تسمح لمريضك أن يخاطب
زوجتي هكذا؟ دعني ألقنه درساً، ذلك المعتوه.
اقترب سمير من أذن يوسف، وهمس قائلاً:
- لقد أخبرتك أنَّه مريض، وهو يعيش في ذاكرة لا تخصَّه.
يبدو أنَّ هناك ما يربط بين هذا المريض وزوجتك.



- (في حلق واستنكار) كيف تقول هذا يا سمير؟ أتعني أن هناك علاقة تربط بين هذا المجنون وزوجتي؟
- بالطبع لا، ما أقصده أن هناك لغزاً يجب تفسيره، هناك ما يربط بين الذاكرة التي يحملها مريض هذا وبين ما تعاني منه زوجتك، هذا المريض يعيش بذاكرة الحلاج، وهو نفسه الشيخ الصوفي الذي تحدّث عنه زوجتك.

قطب يوسف حاجبيه في دهشة وقال في غضب:

- وما لنا نحن وذاكرته أو شيخه هذا؟

- اهداً، يا يوسف كل ما أريده أن أستمع إلى الحوار الذي قد يدور بينهما، انظر! أترى كيف أنّها تقف مدهوشة، وقد اتسعت عيناها بغتة يبدو أنّها تشعر بأمر ما نحوه.

- كفى يا سمير لن أسمح بتلك المهزلة سوف نغادر فوراً. لقد جئنا نتحدث معك عن حلم رآته نيروز بالأمس، وقد أرقها كثيراً، ولكن يبدو أنّ علينا أن نذهب دون عودة.

- (متوسلاً) أرجوك، يا يوسف فقط امنحني الفرصة كي أسبر غور هذا الأمر الذي بات يؤرقني أنا نفسي.

- (في دهشة) يؤرّقك؟!!



- (بعد صمت) نعم، يا صديقي سوف أشرح لك الأمر فيما بعد فقط امنحني الفرصة لمراقبة ما قد يدور بينهما الآن.

زَمْ يوسف شفّتيه في استياء، ولكنّه لم ينبس ببنت شفة، مضت
ثوان حين زالت غصون الثورة من وجه يوسف، فابتسم سمير في
استحسان وامتنان، وقال وهو يرتب على كتف يوسف.
- أشكرك، يا صديقي.

بين إقدام وإحجام اقتعد يوسف كرسيًا، بينما جلس سمير فوق
مكتبه، وطفقا يراقبان المريض ونيروز، كان المريض يتفرّس في وجه
نيروز في هيام، وهي تشيح بوجهها بين الفينة والفينة، ثم تعود وتتطلّع
في وجهه في حيرة، كمن تستفسره عن شيءٍ ما، وبعد صمت دام
لدقائق، تفوّهت نيروز بكلمات متكسّرة، وخاطبت المريض قائلة:
- من أنت؟

- أنا من يجهش بالحب كلّما رآك.

- كيف تخاطبني هكذا وأنت لا تعرفني؟

- لا أعرفك؟! كيف يجهل البحر مياهه؟ كيف تجهل السماء
طيورها؟ وإن تنكّرت الطيور للهواء والورود لعطرها والشمس
لوهجها، لا أنتنّرك لك.



- يبدو أنك تتحدّث عن شخصٍ آخر، فأنا لا أعرفك.

- أعرف أن البوح فعل فاضح، حين يكون من عاشق إلى أميرة متوّجة، ولكن أليس العشق فعل إيمان؟ أتلوميني على هوائي؟ كيف تلام الوردة، وكل ذنبها ما تحمله من عطر؟

استدارت نيروز وأرسلت بصرها إلى يوسف زوجها، كأنّها تستنجد به من المريض. على مضض أو مأ يوسف لها، كأنّه يطمئنّها، فعادت تنظر في وجه المريض الذي استطرد قائلاً:

- أنا الصوفي الذي أصابه دوار العشق، فبات يترنّح في ظلّه. أنا الشاعر الذي يختار كلماته من أجلك بخبرة عالم وعناية جواهرجي، فلا يكتب في حسنك سوى اللاّلي.

ظلاًّ سمير يدوّن في دفتره ما يقوله المريض، بينما جلس يوسف يزفر في غضب مكتوم، ويجول بناظريه في أنحاء الغرفة، شأن من يبحث عن هدف ليصوّب نحوه سهام عينيه أمسك المريض بطرف ثوب نيروز، فانتفض يوسف واقفاً، أشار له سمير أن يجلس، وهو يخبّط على صدره بكفه متوسّلاً بعينين جاحظتين من فوران، عاد يوسف إلى مقعده، وهو يرشق المريض بنظرة غاضبة، ابتسم المريض في غبطة، وهو يخاطب نيروز في توسّل، كمن ينتزع منها



اعترافًا، قائلاً:

-ألا تشتاقين إلى وجبة عشق؟ لقد أضناني الصقيع بعيدًا عن
حضنك لم يعد يغريني التفاح كما آدم، ولكنك ثمرة لا تقاوم، ومن
أجلها قد أغادر الفردوس دون عودة تعالي معي يا نيروز.

فغرت نيروز فاهًا، بينما انتصب يوسف واقفًا مثل سيف استل
من غمده، وصاح قائلاً:

-كيف يعرف هذا المعتوه اسم زوجتي؟

وضع سمير إصبعه فوق شفثيه في إشارة ليوسف كي يصمت،
فاستطرد المريض قائلاً:

-أرجوك، لا تتخلي عني، فأنا أشعر أنني كمحارب في خضم
معركة، يخشى أن تنساه زوجته، أريدك أن تعودتي إليّ، فقد استبدَّ
بيَّ البعاد، وأقض مضجعي ضجيج الوحدة ووجع الزهد في حبك.

في استياء وتندُّر، أشاحت نيروز بوجهها بعيدًا، وقالت:

-أنا لا أتذكر رؤيتك من قبل، فكيف تخاطبني هكذا؟

ابتسم المريض ابتسامة رائقة، وأسهب في الكلمات كمن
ينصب الفخاخ لها، قائلاً:

-ألم أوَّثت من أجلك أشعاري؟ ألم أفص من أجلك بكارة



أحلامي؟ أنا لم أبلغ في حبِّك سن التقاعد بعد، فلماذا تهينين في
العشق أنوثتك؟ ألم تكن أنوثتك هذه صك الغفران لي، كي يغفر
لي الله ذنوبي؟ ألم أكن باسمك أخطب السماء والنجوم والبحار
والجبال؟ ألم أتصالح من أجلك مع الدنيا؟ أتدرين مرارة ألا يكون
لك بديلاً في النساء؟

ابتسمت نيروز برغمها، فكشَّر يوسف عن أنيابه، ولكنه لم
ينبس، حاولت نيروز أن تغالب الفرح في عينيها، فوَّأدت ابتسامة
أخرى تحاول مراوغة شفيتها، وقالت في عبوس مفتعل:

- لا تتحدَّث إليَّ هكذا.

- إن لم يكن البوح الجميل لمثلك، إذن فلمن؟ مسكونٌ أنا
بعشقك حتَّى النخاع، يا فتاتي، حتَّى أنني في لحظات جنون كنت
أنادي باسمك الملائكة، دائماً ما كانت أنوثتك تورطني في أمور
رائعة، وقد تضاءلت في غيابك الأنوثة في العالم، ها هي مشاعري
تعدو كالخيل نحوك، وكما في الصلاة، تخلع كل حواسي أمام
عينيك الأحذية.

ظلَّ سمير يتلقَّف الكلمات من فم المريض، ويضعها فوق
الأسطر، بينما غلا مرجل غضب يوسف، فصاح قائلاً:



- كفى هراء، يا سمير لن أسمح بهذا العبث أكثر من ذلك هيّا
بنا يا نيروز.

لم يعلّق سمير واكتفى بنظرة متوسّلة صوّبها نحو نيروز،
فقلت مخاطبة يوسف:
- انتظر يا يوسف.

جحظت عينا يوسف حين باغته نيروز بتلك العبارة، فنكّس
عائداً إلى مقعده في بطء والصدمة تكاد تفتك به، وقال:
- ماذا تقصدين، يا نيروز؟

- أريد أن أبقى قليلاً، أريد أن أعرف لماذا يتحدث هذا الرجل
إليّ هكذا.

في دهشة وحيرة، انكبّ يوسف فوق مقعده، ولم يتفوّه بكلمة،
عادت نيروز لتصوّب ناظريها إلى وجه المريض، فقال:

- كم أنت سخيفة، يا حبييتي! كم عوّضني حبك عن كل
خساراتي في الحياة، فالحياة أنثى لعبوب، ولم أفلح رغم أشعاري
في ترويضها.

- أخبرني إذن، من أنت؟

- أنا الحلاج، يا نيروز.



أصابَت العبارة نيروز بخرس مؤقت، فأسلمت شفيتها
للصمت، وظلَّت تحدق في وجه المريض ملياً، حين استطرَد قائلاً:
- لقد بدوت دائماً مثل فنَّان فوق خشبة المسرح، يحاول
أن يُضحك الحضور، ثم يختلي بنفسه ليكي وحيداً، مثل سفينة
غادرت الميناء في جولة حول العالم منذ عشرات السنين، وكان
لزاماً على البحَّارة أن يغيِّروا ويجدُّوا ما قد يعتريه التلف في جسد
السفينة، حتَّى صارت في نهاية الرحلة سفينة مختلفة تماماً، لا تُتمَّت
بصلة للسفينة التي غادرت في بداية الرحلة، صرت غريباً عن نفسي،
عن ماضي، عن ملابسي التي اعتدت أن أرتديها.

استبهمت ملامحي على الجميع، ولكن ما زال عليّ أن
أعيش وسطهم صار حزني غير مسموح به، وصارت دموعي خطية
يرتكبها صنَّاع البسمة من أمثالي، وإن وجد الشاعر بداخلي فيها
سلوته وعزاه، فقد صارت دموعي هيَّ خمري الذي يهوُّن عليّ
وطأة الغياب، صرت في لحظة طوع بنان اليأس، والذي صار في
عينيّ مثل جبال تسامقت على مد البصر، فلا سبيل إلى العبور إلى
الجهة الأخرى.

صرت أتكفأ في خطاي وأكاد أتهاوى، وأحجل على عصا



الحزن الذي تملك جسدي بعقد موثق من قلبي الكليم، لكن الحياة لا تملك سوى قلب صناعي لا ينبض.

كان عليّ أن أدفن فجيعتي في قلبي، وأبأشر الحياة كنت عبثاً أحاول أن أغالب الهم الذي عَشَّش في قلبي مثل طائر الوقواق، وقد وضع أفراخه في يافوخي مثل الألغام تنتظر أن أطأها بأناملي حتى تنفجر في وجهي.

في مواجهة حبك تخلت عني كل أسلحتي، وتبرأت مني حواسي الخمس، أنت داء أعياني، ولا أريد منه الشفاء، أنت لوحة أراها كل مرة كأنها أول مرة، فأسقط مغشياً على قلبي، أنت ثمرة فردوس، حين أتناولها أرتفع إلى مرتبة الأنبياء، في كل امرأة مررت بها كنت أتعثّر بجمالك أنت.

أنت قاتلتي التي غفرت لها ومازال نصل سكينها في جسدي، ولكن جريمتك، مثل جرائم الحرب، لا تسقط بالتقادم، جئتك برغبة في الانتقام، وسوف أنتقم منك بأن أقع في حبك من جديد.

بغته ترقرت عينا نيروز بالدموع، واقتربت من المريض، وقالت بصوت متحشرج من فرط البكاء:

- حبيبي!



الفصل الحادي والعشرون



«وجودي فيك مفقود.. أنا في فقدي وجودي»

(كان الشيخ في أبهى صورهِ حين وافاني في المنام، فقد عقد اللاسة الفاخرة فوق رأسه، وارتدى عباءة ناصعة البياض، ولبس المركوب الزاهي اللون، وتحلّى بخاتم ذهبي ضخّم في البنصر، وقد فاحت منه رائحة المسك العبقة، فتحتُ عينيَّ حين ترامى إلى مسمعي صوت الشيخ كأنّه صدى يأتي من مكان سحيق «استيقظي - يا حبيبتى - من نومكِ!»).

كنتُ بين اليقظة والغفلة، فلم أدرك أنّهما قد استحوذ على الآخر حين نهضتُ، واقتعدتُ الفراش في حركة مباغته أمام الشيخ الذي وقف قبالي، دون أن أفزع لرؤيته، فقد أصابتني صورته النورانية بسكينة عجيبة، لم أحرك معها ساكنًا، وقد عقدت المفاجأة لساني، اقترب الشيخ أكثر وأكثر، وانفرجت أساريره، ثمَّ



نظر في وجهي في رقة وحنو بعينه الرائقتين، وحاجبيه العاليتين -
كأنَّ العالم يثير دهشته دائماً - ودسَّ يده في جيب العباءة، وأخرج
علبة صغيرة حمراء اللون، كالتي تُحفظ فيها الهدايا من الجواهر
والحلي، ومدَّ يده بها إليّ.

رفعتُ حاجبيَّ في تساؤل، فابتسم الشيخ وأوماً برأسه أن أقبلها
دون تردّد، وبين إقدام وإحجام مددتُ يدي، وأمسكتُ بالعلبة في
توجُّس، ثم فتحتها، فوجدت بها خاتماً ذهبياً يكاد من لونه البراق
أن يخطف الأبصار.

جلس سمير ينصت في اهتمام إلى نيروز وهي تسرد ذلك
الحلم، بعدما غادر المريض عيادته، على وعد بلقاء قريب، غادر
المريض وهو ما يزال يترنَّح بين الواقع والخيال، كأنَّما عاصفة قد
ضربت أطنانها من حوله، وتركته يصارع دوار عجيب، أمَّا نيروز،
فقد ظلَّت تتابعه بعينين واجمتين وحيرة آكلة، كمن تودّع آخر عزيز
لديها إلى مثواه الأخير.

جلس يوسف في ركن في الغرفة، ينصت في امتعاض إلى
الحلم الذي داهم زوجته في الليلة السابقة، بينما راح سمير يدوّن
بعض الملاحظات، أوماً برأسه وتمتم لها أن تستأنف، فقالت:



كمن أصابتها متلازمة «اليد الغريبة»، رحت أداعب وجهه بأصابعي دون أن أشعر، يُحدّثني عقلي أن أكفّ، بينما يصرخ قلبي راغبًا في المزيد، فقد أحسست بوله وهيام لم أشعر بهما من قبل (نحو الشيخ).

ظلّ يوسف يستمع إلى نيروز، وقد كسا وجهه الحقن، وجعل يزّم شفّتيه في استياء مرير، استطردت نيروز، دون أن تدرك الغضب الذي تطاير شرره من وجه زوجها، قائلة:

(ظلّ الشيخ يجوب الغرفة مثل روح هائمة على وجهها فوق صفحة المياه، بينما كنت أخطو في حذر نحوه، شأن من تسير على طبقة من الجليد، رماني بغتة بنظرة متفحّصة ولاحت في عينيه ومضة، بدت مصوّبة إلى أعماقي كانت أنفاسه سحابًا متكاثفًا، وكلماته تخرج من فمه مثل هزيم الرعد، فتصيبني بالرهبة، راح يقلّب ناظريه في الغرفة مليًا، كمن يبحث عن شيء ما، ثمّ باغتني قائلاً:

- أين الله، يا نيروز؟

- (في دهشة) ماذا؟

- لقد وعدني أن يسبقني إليك، لقد أخبرني أنّ ثمة طريقًا مختصرًا إلى ملكوته من خلالك أنت.

في ذهول ظللت أأدق في وجه الشيخ، وقد فقدت النطق، أو
كدت فجأة أصاب قلبي تصدع أمار اللثام عن خفقان يكاد يقتلني،
كان الشيخ ما يزال يقلب الغرفة بحثاً، حين توقف بغتة وقال ممتنعاً:
-أدين لله بالشكر ولكنه يدين لي باعتذار، فقد أعادك للحياة
ثانيةً، ولكنه قد تركني فريسةً للتيه والحيرة، لقد أوصاني أن أبتاع
لك ذلك الخاتم، ووعدني أن يصحبنا سويًا إلى فردوسه، حاولت
أن أستجمع كل قواي، وترددت ملياً قبل أن أخاطبه قائلة:

-ماذا تعني، يا سيدي؟

-لقد توسلت إليه كثيراً أن يمنحني إياك، وأن يجمعنا سويًا،
ولم يفعل، لقد مرّت القرون وأنا أعيش وحيداً، أبحث عنك في كل
مكان، وأنتظر في حزن وألم قميء ولادتك ثانيةً.

-ولادتي ثانية؟ ماذا تعني، يا مولاي؟

-لقد وعدني الله حين وافتك المنية منذ عدة قرون أن ينفخ
روحك في جسد جديد، ويمنحك من أجلي حياة جديدة، ولكنه لم
يخبرني أنك ستصبحين ملك لغيري، لا بد أن الله قد منحك روحاً
غريبة، غير التي أعرفها، وإلا لما اختارت هذا الجسد الذي لا
أعرفه مسكناً.



- أنا لا أفهم ما تقصده، يا سيدي، أتعني أنك تعرفني، وأنا كنا نعيش سوياً من قبل؟

- بالطبع، يا حبيبتي، ولكن الله أراد أن يذيقك طعم الموت ولو لمرة واحدة، قبل أن يمنحك الحياة الأبدية معي.

- هل تعني أن الله قد منحك الحياة الأبدية بالفعل؟

- أنا لم أمت بعد، يا حبيبتي، وهذا ما يصيبني بالحزن. لقد كنت دائماً خارج القطيع، لا أحد يعرف ماذا يدور في ذهني، وكأني أخوض معركة بمفردي، لم يكن أحد يعلم أنني أخوض أشرس معركة ضد الزمن، كي أفوز بك لقد صارعت الموت نفسه وانتصرت لأجلك.

- لأجلي أنا؟

- نعم، يا حبيبتي، أنت الملاذ الآمن، فهناك ثمة قساوة مفرطة تسكن هذا العالم ولكن كيف يقبل الله أن يفوز بك غيري؟
- ماذا تعني؟

- كيف تصبحين زوجة لغيري، لمجرد غيابي لقرون؟ لقد أخبرني الله أنه قد أوقع عليك سباً، كي يخلقك من جديد، وعشت



أصلي أن يعيدكِ إليّ، ولكن يبدو أن الردود على الصلوات تأتي متأخرة دائماً.

-ولكننا التقينا ثانيةً، كما كنت ترغب.

-لقد التقينا كي أشقى بوحدي في وجودكِ هذه المرة.

-كيف تقول هذا، يا مولاي؟

-كنت دائماً الحلوى التي ينبغي لمن يتناولها أن يغسل يده بعدها، لفرط حلاوتها، والآن أذوّق مرارتك فوق لساني حتى أكاد ألفظ طعمك من بين شفتيّ.

-أتعني أنك لم تعد تحبّني؟

-في حبّك أنا مسير، يا مولاتي، لا خيار لي. فقط بات عليّ أن أتسلق مرتفعات أنوثتك ومشاعري الشاهقة كي أصل إلى قمة العشق، ثم أسقط كالجلمود من عليائك. لماذا أعادك الله إليّ، وهو يعلم أنني سوف أتعذب بفراق وشيك؟ أقسى حزن وأعمقه، حين نفقد شيئاً جميلاً لم نعلم بوجوده من قبل.

سألته لماذا يعشق الألم هكذا، بينما قد تمددت الساعات أمامنا مثل فتاة لعوب تكشف عن جسدها الفتان أمام عاشق وامق، فقال أنه يشعر أنه يعيش في عوالم من كواليس ذاكرته، التي أضحت



مثل خزانات ملابس، يختار منها في كل ليلة ما يرتديه ليتأنق أمامي، قلت له في محاولة لأخفف عنه وطأة حزنه.

-ولكنني لن أغادرك البتة.

-ليتك تفعلين!

-ماذا؟ أتريد أن أغادرك؟

-لم أعد أعرف أيهما أكثر قساوة، بقاؤك أم مغادرتك، العشق والألم اسمان لمدلول واحد، يا سيدي كل ما هنالك أن الألم هو الاسم الرسمي، والعشق هو اللقب المتداول لقد صارت دنيتي سرادق عزاء كبير، وصار المنزل جبانة ضيقة تخنق روحي ومثل بائعي البهجة، عشت أوزع البسمات فوق الشفاه، ونسيت أن لي شفتين يحلمان بالفرحة أيضًا.

لم أدر ما ألمَّ بي حينئذ، فقد شعرت بغبة برغبة في العناق، فكشفت عن مفاتن صدري، كامرأة إنجليزية في العصور الوسطى، تعلن عن عذريتها، ودنوت منه حاوطني بذراعيه وراح يداعب خصلات شعري، ثم نظر في عيني بتشوّف واشتياق، وقال:

-كيف لمن لم يتدرّب على الصمت لحظة العشق ألا ييوح بخبيئة قلبه؟ أنا أحبك، يا نيروز أتدرين مقدار الألم حين يعشق



الزاهد الناسك؟ أنا الشيخ الذي اتخذ من وجهك قبلة للصلاة.
يصنع للعشق روعته من يقاسمنا إيّاه، يا نيروز.

-لقد ظننت أنك قد جئت لتصبحني معك إلى عالمك الأثير،
وتنقذني من هذا السجن الذي يدعونه جسدًا.

-هذا ما كنت أريده حقًا، ولكن الله قد أشاح بوجهه بعيدًا
عني، الله لم يعد ينصت للعشاق، يا حبيبي.

-لماذا تقول هذا، يا مولاي؟

-يبدو أن الله لا يريد أحدًا أن يشاركه أجمل صفاته.

-إذن، خذني معك، يا مولاي.

-كيف أفعل هذا، وأنا لست بسارق، يا مولاتي؟

-سارق؟!!

-نعم، يا مولاتي لن أسرق جسد يتتمي لآخر، لقد جئت
لأصطحب روحك فقط معي.

في هلع مفاجئ رفعت وجهي لأنظر للشيخ، وأستفسره، فلم
أجده انتفضت من الفراش، ورحت أبحث عنه في كل ركن من
الغرفة، وقد أصابني شيء من الهلع أخيرًا، فقد وجدت في يدي
هذا الخاتم العجيب (مشيرة إلى خاتم ارتدته في بنصرها).



لم يكن منامًا، بل رؤيا هذا ما شعرتُ به حين استيقظتُ،
ورحتُ أفرك عينيَّ بظاهر كفي، وأحاول أن أزيح النعاس عن مقلتيَّ
اللتين احمرَّتَا، وقد كانتا فريستين لليلة البارحة التي سامرهما فيها
الأرق لساعات ذات عدد.

استيقظتُ أو هكذا كنت أظن، وإن ظللت راقدة في فراشي
أحاول أن أسبر أغوار الرؤيا، والتي بدت مثل رسالة لم تفضَّ
بعد، فجعلت أستنهض حكمتي في تفسير الأمور، وما قرأته عن
تفسير الأحلام، جلستُ في ذهول لم أألفه من قبل، وكأئنّي داخل
لوحة «الليل» لـجورجيو فاساري، أطرق برأسي، وأسدل جفنيَّ
في تفكير عميق، وحولي أشباح الحلم ما تزال تحوم مثل أقنعة
مخيفة، ورحت أحرق في الخاتم في ذهول.

وبين الحين والآخر داهمتني ذاكرة المنام في الليلة السابقة،
وما قاله الشيخ لي، رغم عدم إدراكي لمغزاه.

«لقد كانت حياتي دائماً مزيّجاً من المأساة والملهاة، وكأئنّي
المهرج في أوبرا «بلياتشي»، يضحك ويبكي في آنٍ واحد.»

غادرتُ المنزل وما زال الحلم يداعب مخيلتي، وقفتُ تحت
الأمطار أمشّط الطريق بحثاً عن سيارة أجرة، وأجفّف بين الفينة



والفينة ماء المطر الذي كسا وجهي تمامًا، تذوّقت طعم الماء على وجهي، فوجدته مالحًا. أدركتُ حينئذ أنني كنت أبكي. وحين ازداد المطر، أطلقتُ ساقِيَّ للريح، ولذتُ بأول محطة مترو. وبينما كنت جالسة في المحطة أنتظر القطار، كان الناس حولي يحدقون في وجهي، ويقطبون جباههم في تعجُّب، فقد جفَّ ماء المطر من فوق وجهي، ولم يبق سوى الدموع التي انثالت فوق وجنتيّ، حاولتُ أن أغالبها، لكن الحزن الذي استبدَّ بي لم يكن ليدعني وشأني، أخفيت وجهي بكفٍّ وأطرقت برأسي واجمة.)

توقَّفتُ سَمِير عن تدوين الملاحظات في دفتره، واقترب من الأريكة حيث كانت نيروز ترقد، وقال مستفسرًا:

- أخبريني، يا نيروز، هل سبق لك قراءة سيرة الحلاج هذا؟

- لا، لم أقرأ عنه قط.

- إذن كيف يمكن أن تتحدَّثني عنه كمن تعرفه عن ظهر قلب.

- (بعد تفكير) ربَّما لِمَا كانت ترويهِ لي أختي نرجس، فقد

كانت تعاني من نفس الأمر.

- ولكن نرجس لم تقرأ شيئًا عن هذا الشيخ أيضًا، أليس

كذلك؟



- (في أسي) لا أظن ذلك.

- إذن فكيف لكِ بتلك التفاصيل التي تخصّ ذلك الشيخ،
والذي يأتيك في الحلم واليقظة أيضًا؟

لاذت نيروز بصمت طويل، ثم قطبت جبينها في تفكير عميق،
وقالت في تردّد:

- ربّما لما كانت ترويه لي جدتي.

- ماذا كانت ترويه جدّتك، يا نيروز؟

- كنت أستمع دائماً بالجلوس بجوارها في مخدعها أستمع
إلى القصص الأسطورية التي بدت من براعة حكيها وكأنّها
أحداث واقعية لشخصيات من لحمٍ ودمٍ كانت تجد لذة حين ترى
عينيّ لامعتين مشدوهتين وأنا أنصت إلى أقاصيصها، لقد كانت
جدّتي حكاة بما يكفي لخلق عالم متفرّد يخصّها، وكانت تجمع
مثل إيزيس أشلاء الحكايات من فم هذا وذاك، وتعيد تجميعها
مثل الطبيب فرانكشتاين في رواية ماري شيلي، ليصبح طفلها
المحبوب الذي تتباهى بخلقه أمام مستمعيها رغم دمايته.

كانت تحكي لى أقاصيص الرعب وكأنّها تحاول أن تلوذ
بخوفي من فزع دفين داخلها، أخبرني ذات مرة أنّها كانت طفلة



خَوَافَة، تنام وأنوار الغرفة جميعها مضاءة، وتتلحف بالغطاء حتّى في أشدّ الأجواء حرارة، وقالت أنّها لا تنسى أبداً ما قرأته عن سارة برنار أشهر ممثلات المسرح في فرنسا، عن أنّها كانت تنام في تابوت وتحمله معها أينما ذهبت، ومنذ ذلك الحين وجدّتي ترى التابوت بجوار فراشها كلّما استيقظت في الليل لسبب أو لآخر. وقد قامت جدّتي في إحدى المرات بتدوين مخاوفها في ورقة، وقامت بدسّها في جدار بجوار منزلها القديم، ولم تجرؤ على الاقتراب من ذلك الجدار بعد ذلك.

وفي إحدى المرّات روت جدّتي في جدّ مصطنع حكاية النّدّاهة في قريتها، وكيف كان الناس يتجنبون الخروج إلى الغيطان حين يهبط الليل حتّى لا يقعون فريسة لها، كانت النّدّاهة تصطاد فرائسها في الليل، وتنادي باسم من تريد بصوتها العذب فيتبعها دون أن يأبه للظلمة والوحشة واستغاثات المارة، ثمّ تأخذهم إلى عالمها الخفي، وتعيش معهم لفترة يختفي فيها المندوه - فقد كان ضحاياها غالباً من الرجال - ثمّ يعود بعد فترة وقد أصابه الجنون، أو الصمت المطبق، فلا يجرؤ على النطق بما دار بينه وبين النّدّاهة، وقد يسعد المندوه الحظ فيغدو زوجاً لها ويعود إلى قريته دون أن يبوح بشيء.



كما كانت تروي لي جدتي حكايات العفاريت التي تتجسّد على هيئة الحيوانات والإنس، قتلِكَ القطة عفريت امرأة ماتت غرقاً في ترعة بلدنا، وهذا الحمار الناهق هو «الولد محروس» الذي مات محروقاً في الجرن القديم، وكانت تلك الأفاصيص تصيبيني بالهلع كلّما صادفت قطعة تموء أو حماراً ينهق.

وفي إحدى المرات روت لي جدتي أيضاً حكاية

«أمنا الغولة»، فجعلتُ أضحك من قبل أن تبدأ في سردها، فكيف تكون من الأشرار ونطلق عليها لقب «أمنا»؟ فشرعت تحكي كيف أنّ أمنا الغولة - تلك المخلوقة الدميمة ذات العين الواحدة في منتصف الرأس - تهوى أكل الأطفال والرضع، ورغم ذلك لا تزال تأبى أن تتخلى عن قلبها الطيب الذي قد يأتي أحياناً بأفعال الخير.

ابتسم سميع ابتسامة رائقة، وأوماً برأسه في ارتياح مباغت، دون أن ينبس بكلمة.



الفصل الثاني والعشرون



«جُنُونِي لَكَ تَقْدِيسٌ وَظَنِّي فِيكَ تَهْوِيسٌ .. وَ
قَدْ هَيَّرَنِي حُبُّ وَطَرَفٍ فِيهِ تَقْوِيسٌ، وَ قَدْ دَلَّ دَلِيلُ
الْحُبِّ أَنَّ الْقَرَبَ تَلْبِيسٌ .. فَمَنْ آدَمُ إِلَّاكَ وَمَنْ فِي
الْبَيْنِ إِبْلِيسُ ..»

جلس سمير يدوّن في دفتره بعض الملاحظات، وهو يجترّ ما
حدث بالأمس، وكيف ازدادت حكاية نيروز والشيخ غموضاً فوق
غموضها، قلب صفحات الدفتر في ضجر، ثمّ توقّف بغتة، وجعل
يقرأ ما كتبه عن نفسه في إحدى المرّات.

«يبدو وكأنّه أول ليل منذ الخليقة يتلخّف بظلام باهر ! لماذا
تلوّن الهواء باللون البنفسجي الداكن؟! أشعر بأنفاس الأشجار من
حولي، أنفاس ساخنة كأنفاس بائعة لذّة محترفة. الكون في حالة
صمت صاخب، له في أذني وقع ضجيج شلالات المياه لماذا لا



أعود للمنزل؟ المنزل؟! وما الفارق؟! حين لا تدري أين تذهب
فكل الطرق تفي بالغرض، ألا يتمهل الزمان بضع ساعات ليلتقط
أنفاسه؟ لماذا لا يوجد للقدر مكابح؟ لماذا عليّ أن أواصل السير؟
لا أستطيع أن أسمع وقع أقدامي وكأنني أعبّر وسط رمال كثيفة
بأقدام عارية! كأنني أسير في حلم، فكل شيء لا منطقي، الشوارع
فارغة إلا من أشباح الأبنية المدينة كلها في ثبات عميق، لا مارة، لا
سيّارات، لا أرصفة، كأنني أول الخلق أو آخرهم!

أشعر أنني أسير داخل لوحة تكتسي بألوان صمّاء وتفتقر إلى
التجانس هل أعود للمنزل؟ لا أستطيع. كيف يمكن أن أستسلم
في هذه اللحظة الفارقة؟ لن أعود للمنزل أشعر بأفكاري مثل
الفراشات التي احترقت بنيران لا ترحم. لم أستطع أن أرد عنها هذا
الشر. الشر! ما هو الشر؟! الضعف هو أسوأ الشرور وأنا لم أتصد
لهجوم هذا الغول، هل هذه هيّ النهاية؟ هل حان وقت الانهيار أم
إنّها لحظة الفرار؟

لماذا تكون النفس ضعيفةً هكذا؟ هل أعود للمنزل؟ لا
أستطيع أن أواجه هذه اللحظة ولكن ماذا لو كان هذا هو قدري؟
ولكن ما معنى القدر؟ إنه طريق أحادي الاتجاه! هل سعادتي في



الرحيل؟ وإن لم أرحل، هل سأنعم بالسعادة؟ السعادة! يا للكلمة الغامضة المطّاطة! ألا ينتهي هذا الطريق أبدًا؟ هل أعود للمنزل وأضع نهاية لهذه المهزلة؟

أشعل بعض الشموع وأدير مقطوعة ثلاثية البيانو الثانية لشوبرت التي أعشقها وكأن شيئاً لم يكن؟ ولكن ماذا لو كان على المواجهة؟ أشعر أن العودة للمنزل أصبحت مستحيلة، يبدو أنني ضللت الطريق أين منزلي؟ كل الأماكن تتشابه في الظلام حتى السماء صارت منزوعة القمر!

يجب إذن أن أستمر في طريقي يجب أن أسرع الخطى. ليتني أستطيع أن أمتطي الرياح! ياله من ليل طويل هل قرّر الفجر ألا يطل على الدنيا في هذه الليلة؟ ولماذا الليلة؟ لماذا تخطو الدقائق ببطء وكأنّها تخطو فوق جمر؟ ولكن ماذا لو أسرعت الساعات خطاها؟ لا، لا. تمهّل! أيتها الساعات لا أريد أن أسابق الزمن أشعر أنّ قيوداً حديدية تكبّل قدمي. أشعر بثقل الكون فوق صدري. لقد تجمّعت الجاذبية كلها في رأسي، كأنني أقف في منتصف هذا الكون. هل أعود للمنزل وأقتل الوقت بين أوراق القديمة علّني أجد مخرجاً ودواءً لحيرتي؟ أم أنتظر حتى يستيقظ الآخرون وأنسلّ في وسطهم وأذوب في الزحام؟



أشعر كأنَّ الهواء يغدو أكثر سُمُكًا، كأنَّني أستنشق الضباب.
ليتني أملك يقين الانتحار وشجاعة الانكسار ها قد لاحت أول
خيوط النهار وكأنَّها أسراب نمل متعرِّجة تستكشف الطريق بقرون
استشعارها لأنَّها تخجل أن تخرج للوجود.

يجب أن أعود للمنزل قبل شروق الشمس لا أريد أن أذوب
مثل مصاصي الدماء من أذرع الشمس المحرقة، يكفيني غرف الغاز
النازية في عقلي يجب أن أعود للمنزل ولن يستطيع النوم أن يهزمني
يجب أن أتقبَّل الأمر صار حتميًا أن أروِّض وحدي أو تروِّضني!

تملَّكته نوبة من الحيرة الممتزجة باليأس، وكأنَّ قوى أخرى
غير إرادته قد تسلَّمت زمام أمره، فقد أرَّقه أمر نيروز وشيخها،
والذي تقمَّصت روحه جسد مريض آخر لديه، ظنَّ أن ما يحدث
لنيروز ليس سوى تأثير حكايات جدَّتها عليها، وأنَّ قصة الشيخ ما
هيَّ إلا أضغاث مرض لم يدرك هويَّته بعد، ولكنه ظلَّ يتساءل كيف
يمكن أن تكون مجرد أوهام، وقد اختبر هو نفسه بعض الأمور
الغامضة، كتلك الزيارة التي قامت بها الفتاة الخرساء، والتي كادت
أن تتسبَّب في تشويه سمعته كطبيب وإيداعه السجن؟

صارت مأساة نيروز بالنسبة له عرضًا مستمرًّا، ولو بدا



لامنطقي، كمسرحية تقام على مسرح عرائس، حيث يفشل من يقومون بتحريك الدمى في إقناع المشاهدين بواقعية الأمر.

تخلّى الإحباط عنه قليلاً، فقرّر ألاّ يذعن لخيات العقل، وبدأ في بحث مضمّن عن سيرة الحلاج، راح يقرأ في ديوان الحلاج، ويتصفح الكتب التي تتحدّث عن سيرته الواحد تلو الآخر.

وفي المساء، تمدّد فوق الفراش وجعل يقرأ في ديوان الحلاج في نهم مشبّوب، حين وقعت عيناه على تلك الأبيات:

والله لو حلف العشاق أنّهم

موتى من الحب أو قتلى، لما حنثوا

قوم إذا هجروا من بعد ما وصلوا

ماتوا، وإن عاد وصل بعده بُعثوا

تري المحبين صرعى في ديارهم

كفتية الكهف، لا يدرون كم لبثوا!

جعل يتفكّر في تلك الأبيات مليّاً حين اشتّم بغتة رائحة ذكيّة عبقت الغرفة، مثلما يحدث حين تنكسر قارورة عطر، والتصقت الرائحة بأنفه، كما يحدث لبائعي الزهور، قطب جبينه في توتّر، وراح يقلّب ناظريه في الغرفة، وقد داهمته حالة من التوجّس. بغتة سقط الكتاب من يده، وهبّ من مكانه في هلع حين رأى يدًا خفيّة



تفتح باب غرفته، استوى في مكانه فوق الفراش، وراح يحملق في باب غرفته، وقد تسارعت أنفاسه حتّى كاد يلفظها.

انفتح باب الغرفة على مصراعيه، ولم يحرك سمير ساكنًا. لم يكن هناك أحد، ولم يشح سمير بعينه بعيدًا عن الباب، كمن ينتظر شبحًا يدلف إلى الغرفة في أبهة الأرواح، وسكينة الموتى. أحسّ بغمز أليم في قلبه، فراح يردّد بصره في كل ركن في الغرفة. ترامى إلى مسمعه وقع أقدام غير مرئية تدلف إلى غرفته، فاندفع نحو مقعد ضخم ليغلق به باب الغرفة، وهو يلهث في محاولته مثل محترق يبحث عن الماء، ليطفىء به النار المشتعلة في جسده.

لم يدلف أحد إلى الغرفة، فزفر سمير في ارتياح، حين أدرك أنّ ما حدث لم يكن سوى تأثير تيّار هواء شديد، فتهالك فوق الفراش ثانية ظلّ راقداً، مغمض العينين لهنيهة، ثمّ مدّ يده ليلتقط الكتاب الذي سقط منها فوق الأرض، جحظت عيناه بغتة وانتفض في مكانه حين شعر بيد قوية تمسك بيده، فصوّب ناظره إلى تلك اليد، ليجد شيخاً ذا مظهر بهي يتطلّع في وجهه بابتسامة متّسعة.

انتصب سمير واقفاً أمام الفراش، وحقق في ذعر في وجه الشيخ، ولكنه لم يستطع أن يطلق ساقيه للريح كما سوّلت له نفسه، ولم ينبس بينت شفة.



مدَّ الشيخ سبابته نحو سمير، فبدا مثل لوحة الخالق وآدم
في سقف كاتدرائية روما لم يستطع سمير أن يمد للشيخ يده، فقد
أفقده الرعب القدرة على الحركة، اقترب الشيخ رويدًا، فأحدَّ
سمير بصره الغائم، وتوقَّف عن التنفُّس، كما لو أنَّه مريض تمَّ قطع
الأجهزة عنه في غرفة الإنعاش.

غارق في الهدوء، دنا الشيخ من سمير وقال بصوت صافي
كخزير المياه:

-مرحبًا، أيُّها الطبيب.

لم ينبس سمير، وتعالى صوت أنفاسه ثانية، كغريق عادت
إليه الحياة، فاستأنف الشيخ قائلاً:

-لا تفزع، لم آت إليك لأفزعك، بل لأحاورك.

استردَّ سمير بعضًا من رباطة جأشه، واستجمع ما تبقى لديه
من قوة، وقال مستفسرًا:

-من أنت؟!

-أنت تعلم من أكون.

- (في تردُّد) الحلَّاج؟!

-لماذا تشغل بالك به؟ لقد مات منذ قرون مضت، ولم يعد



منه غير ذكرى لا أحد يعود من الموت، وإن عاد فإنَّ شيئاً ما قد ذهب للأبد.

- (في توتر واضطراب) إذن، من أنت؟

- أنا من كفرت بدين الله، والكفر واجب عليّ، وعند المؤمنين قبيح، أنا الذكرى التي تجول في أعماقك كالسكين الحاد، فتمزّق في طريقها مشاعرك تمزيقاً.

- (في حيرة) أنا لا أفهم شيئاً. هل أنت إنس أم جن؟

- أنا لست من هؤلاء أو هؤلاء. لقد أوقفت للتوّ دوران الكرة الأرضية كي أهبط إليها أخبرني، يا طبيب، لماذا تضطهدهني؟

- أنا لا أعرفك، فكيف أضطهذك؟

- لماذا حين يفتح أحدهم ذراعيه للآخرين يصلبونه؟ أنا من أراد أن يطمر نفسه بين طيات الكتب، فأبت الدنيا، وأراد أن يفتح في قبره كوة للحياة، فتمردت عليه السماء، أنا أول الموحّدين، وأنا من قال لا في وجه الله.

- (في ذهول) ماذا؟ ماذا تعني؟ ألا تؤمن بالله؟

- أنا أتقي من كفر بالله، وأكثر المؤمنين بالله كفرًا.

- هل تهذي؟! أخبرني من تكون؟



-أنا القلب الذي يجيد الانتظار، ويتقن الحزن صدَّقني، أيُّها الطيب لا ذنب لي في كل هذا الألم الذي تراه في ملامح وجهي، فأنا من صنع من العشق عقدًا فوق صدره، فاستحال مشنقة.

في اضطراب تراجع سمير رويدًا للخلف، وهو يحملق في جسد الشيخ الشفَّاف، ويتمتم بآيات القرآن، أطلق الشيخ ضحكة عالية، وقال وهو يدنو من سمير، ويرمقه بنظرة ثاقبة كما لعينين من رصاص:

-لن تستطيع الفرار، فمصيرك ومصيري واحد.

-(في فزع) أنا لا أفهم مغزى كلماتك، أيُّها الشيخ.

في فوران غضبه، اصطدم سمير للتوّ بالمرآة خلفه، فالتفت برغمه ليلقي نظرة عليها، أطلق صرخة مكتومة وهو ينظر في هلع في المرأة، فلم تكن صورته، بل صورة الشيخ، ضاحكًا في سخرية.

التفت سمير ثانية كي يتأكد من وجود الشيخ في مكانه خلف ظهره، فأصابته المفاجأة بصدمة، كاد معها أن يفقد الوعي لقد كان هو نفسه، سمير يتطلّع في وجه سمير، أحدهما يطلق ضحكات التهكُّم الواحدة تلو الأخرى، والآخر يبدو مذعورًا.

تراجع سمير للخلف رويدًا، وهو لا يشيح بوجهه بعيدًا عن



شبيهه الواقف قبالتة ما أصابه بالدهشة أنّه كلّما ابتعد عن ذلك الشبيه كلّما قلَّ الشبه بينهما، حتّى عاد بالتدرّج إلى صورة الشيخ همس سمير في هلع، وكأنّه يخاطب نفسه:

- من أنت بحق السماء؟

- لا تخف يا سمير أنا مثلك تمامًا، أغرق دون أمل في النجاة. لقد صارت حياتي خاوية مذ غادرني حبيتي، فصار العشق في قلبي مثل أمني الموتى التي لم يسعفهم الوقت لتحقيقها، لقد كانت نيروز دفترى الذي أدوّن فيه يومياتي دون أن أخشى أن يطّلع عليه أحد، حين رأيته طفلة لأول مرّة لم أستطع أن أشيح بوجهي بعيدًا عنها للحظة، فقد بهرني جمالها الذي نالت منه نصيبًا غير منقوص، كانت تمشي في شقاوة متوثّبة، فيتنفّض نهداها الصغيران النافران، ويعبث الهواء بشعرها فيغدو كالأمواج، رغم القصّة الغلامية المثيرة، والتي تكشف عن رقبتها البيضاء الوارفة مثل مئذنة سامقة، أحسست برغبة جارفة أن أمرّغ وجهي في رقبتها، وأسبح في شعرها الأسود الناعم، عيناها النجلوان كانتا تبرقان فتنة، كانت تمتلك أسلحة أنثوية فائرة تكفي للفتك بأعنى الجيوش.

- كانت نيروز لا تزال على قيد الحياة أيّها الشيخ.



-لقد ماتت نيروز عدّة مرّات، ولم تحي سوى بضعة أيام. لقد انتظرت عودتها لقرون ذات عدد، حتّى كدت أن أعلن في الصحف عن رغبتى لرؤيتها. كنت أنتظرها مثل ناسك، يزهّد الدنيا من أجل قيامة أجمل، لقد صارت نيروز مثل المسيح، تشخص إلى مجيئها الثاني كل العيون.

-حسناً، دع مريضتي نيروز وشأنها، فهي لا تستطيع أن تحتمل ذلك الشقاء.

-لا بد أن أصحب روحها إلى حيث أكون.

-أتريدها أن تموت؟

-يا أيّها الطيب، كلنا نبدأ في الاحتضار منذ لحظة ولادتنا، ولكن بعضنا قد يستغرق منه الأمر سنوات، وآخرون ساعات.

-ولماذا نيروز؟

-لأنّني أعشقها عيناها كتاب مقدّس أقسم عليه، وأهداب عينيها خيوط أعلّق عليها نظرات الشوق في عينيّ، صوتها شدو ملائكي، فكل ما غناه الطير منذ بدء الخليقة هو بعض ما شدت هي به.



استردَّ سمير رويدًا بعضًا من شجاعته، فاقترَب من الشيخ الذي وقف في منتصف الغرفة دون أن يحرك ساكنًا، مدَّ سمير يده محاولاً أن يمسك بجسد الشيخ، فعبرت يده من جسد الشيخ. جحظت عينا سمير لبرهة، لكنَّه حاول أن يلتقط أنفاسه قليلاً، حين تطلَّع في وجه الشيخ، فوجده قد تحوَّل مرَّةً أخرى إلى صورته هو في اضطراب راح سمير يتمتم قائلاً:

-مستحيل.. مستحيل!

الفصل الثالث والعشرون



«وإني وإن أُهْجِرْتُ فَالْهَجْرُ صَاحِبِي.. وَكَيْفَ
يَصْعُ الْهَجْرُ وَالْحُبُّ وَاجِدٌ، لَكَ الْحَمْدُ فِي التَّوْفِيقِ فِي
مَحْضِ خَالِصٍ.. لِعَبْدٍ زَكِيٍّ مَا لَغَيْرِكَ سَاجِدٌ»

استقبل سمير خبر وفاة والده الشيخ بوجه كالح، يكاد يلفظ
ملامحه حزناً، حين ذهب لرؤيته، والتحدث معه فيما استبدَّ به من
اضطراب وقلق، فلم يجده في مكانه بجوار مسجد السيدة زينب
كالمعتاد، حين استفسر المريدين والمولوية عن سر غياب الشيخ،
أخبروه أنه قد وافته المنية فجر اليوم السابق، وقد واروه التراب في
مدافن الصدقة في السيدة عائشة، وأن بعض مريديه قد قرروا إقامة
سرادق عزاء له في إحدى الحارات، بالقرب من ساحة المسجد.

توقَّف سمير بسيارته على ناصية الحارة الضيقة التي بالكاد
تتسع لمرور المعزِّين إلى السرادق، كان صوت الفقيه في مكبرات



الصوت مرتفعاً جداً، يكاد يصم الآذان، فلا تسمع معه أي أصوات أخرى، سوى صوت بائع العرقسوس وطريقة الصاجات كلما توقّف الفقيه عن التلاوة.

نزل سمير من السيارة، وأرسل بصره في المكان تراصت المنازل القديمة باهتة الألوان، والتي لم تعلو عن طابقين أو ثلاثة، ذات اليمين وذات الشمال، كأنّها تستقبل واجب العزاء بدت البيوت حزينة، مقوَّسة الظهر، تشكو من ظلمة الحارة، وقهر الزمن انتابت سمير رجفة عجيبة، وكاد أن ينكص عائداً من حيث أتى، رَمَقه سَكَّان الحارة بنظرة حادة تنم عن فضول متأجج ورهبة من ملابسه الرسمية المتأنّقة، وربّما سيّارته التي بدت لهم كأنّها سفينة تمخر رمال صحراء جرداء، رغم أنّها لم تكن فخمة أو فارهة.

مرّت بعض الفتيات، ذوات القوام السمهري الممشوق في عبااتهن السوداء الضيّقة، وفوق رؤوسهن مناديل محلّاوي، تتزيّن بحبّات الترترو وخرج النجف على الجبين، مثل التي اعتاد سمير أن يراها في أفلام الأبيض والأسود، كأنّه في لوحة «المدينة» لمحمود سعيد رحن يرمقنه بنظرات نافذة كأنّهن ينظرن في وجهه مطرب أو مُمثّل مشهور راح سمير يتأملهن بعينين ذاهلتين، والعرق يتفصّد من جبينه.



حين دنا سمير من السراق، انتصب بعض الرجال واقفين، وراحوا يصفحونه بحرارة لم يسأله أحدهم عن هويته، واكتفى واحد منهم باصطحابه إلى مقعد في منتصف السراق، وهو يتمتم له قائلاً:

-شكر الله سعيك.

ظلَّ سمير ينقل ناظريه في السراق، كمن يبحث عن أحد يعرفه لم يكن ينصت لصوت المقرئ، بقدر ما أصابه الضجيج داخله بحالة من التوجُّس والاضطراب لقد مات أبوه، دون أن يعلم بذلك مات أخيراً، ولم يحضر غسله ودفنه، ولم يستقبل عزاءه لم تدمع عيناه، ولم يستطع الحزن أن ينفذ إلى نفسه، كمن تحقق له حلم كان يراوده لسنوات ألهمت شغاف قلبه نار هادئة، لذيدة اللسعات فلم تبدو على وجهه علامات الأسى.

راح يتساءل في نفسه قائلاً: «من هؤلاء الذين يستقبلون في أبي العزاء دوني؟ لماذا لا أنتفض وأخبرهم أنه أبي أنا، وعليَّ أن أستقبل فيه العزاء بنفسي؟»

اقترب منه أحدهم، ودعاه إلى تناول سيجارة، فرفض سمير بأدب، ولم ينبس بكلمة جلس الرجل إلى جواره، وهو ينظر ذات



الييمين وذات الشمال في زهو كمن يجالس وزيراً، ثم همس إلى
سمير قائلاً:

-كلنا لها ما دائم غير وجه الله.

أوماً سمير برأسه، دون أن يتفوه بكلمة فاستأنف الرجل.

-لقد كان الشيخ داوود رجلاً مبروكاً رحمه الله لقد أحبه
الجميع.

أطرق سمير برأسه في صمت، فأضاف الرجل:

-هل تعرف الشيخ داوود، يا باشا؟

تطلع سمير في وجه الرجل في حيرة، وكأن سؤاله قد أصابه في
مقتل، ران الصمت لهنيهة حين هز سمير رأسه يمنة ويسرة، وقد
ترقرقت الدموع في عينيه، ثم قال:

-لا، لم أكن أعرفه!

مرّت الأيام، ولم يجد سمير لأحزانه وهواجسه التي أذاقته
صنوف العذاب من مخرج سوى أن ينكبّ على عمله، فلم يترك في
يومه مساحة شاغرة تكالب على جلسات مرضاه في شغف، كمن
يودّع أعزاء على قلبه قبل الرحيل.

وفي إحدى الجلسات راح ينصت إلى مريضه الشاب،



والذي يعاني من اكتئاب مزمن، وقد جاء ليخبره بأمر أصاب سمير بالدهشة، رفض المريض أن يتمدد فوق الأريكة، وأثر أن يجلس قبالة سمير، وجعل يحادثه وقد صَوَّبَ عينيه الزرقاوين نحو وجه سمير في تحدٍّ مدهش، ثم طفق يقول:

- غداً تقوم الساعة من أجلي وحدي؟ لقد حانت لحظة القيامة؟ هل تكون في نهايتي نهاية العالم؟

- (في حيرة) ماذا تقصد، يا أستاذ ناجي؟

- سوف يسدل الستار على آخر مشهد من المهرلة، فلن تشرق الشمس ثانية، ولن تمطر السماء سيكون آخر عهدي بالفصول.

- (مواسياً) تبدو مرهقاً، ألم تنم بالأمس؟

- وما فائدة النوم، يا دكتور؟ لم يعد للنوم معنى لا أجد سبباً لأستيقظ من إغفاء قصيرة إلى إغفاء أبدية غامضة سوف يختفي الكون في لحظة.

- لا تقل هذا، يا أستاذ ناجي يبدو أنك لم تتناول دواءك منذ فترة غير قصيرة.

- لم يعد للدواء أهمية لم يعد للطعام مذاق لم أعد أهاب المرض كم أشتهي الشيخوخة والعجز لن أستمتع بكأس خمر،



ولن أشارك أحدًا مائدة للقمار بعد اليوم من الآن ليس للبشر جميعًا
أي دور في حياتي، ما قيمة الأصدقاء؟ ما قيمة الحبيبة والعشيقة؟
لن أرى أحدًا ولن يراني أحد كل ما سيبقى من سيرتي بضع كلمات
يحفرونها فوق شاهد قبر حيث أكون لن يكون غيري.

-أراك مكتئبًا بشكل مفرط أرجوك، لا تسمح للحزن أن
يهزمك، فهناك الكثير والكثير أمامك لتفعله.

-لقد صارت وحدتي موحشة، يا دكتور سمير صارت
الجدران من حولي كثيفة محزونة لقد مال حزني بمزاج الحوائط
عن الاعتدال وذاك الطعام في الصحن، وذاك الماء في القدح، قد
أصابهما التعفن يبدو أن جسدي قد بدأ في التحلل من الآن؟ هل
أعود غدًا لسالف مرحي بعد أن أردّ وديعتي؟ هل يطيب لي يومًا
مجلس من مجالس الصفو واللهو بعد أن يسترد ملاك الإغفاءة
الكبرى هذه الزنزانة المدعوة جسدًا؟

-يا أستاذ ناجي، لا تترك نفسك فريسة لهواجس الحزن كل
ليل يعقبه فجر ونهار.

-متى يأتي هذا الفجر؟ هل يمهلني يومًا آخر؟ وما الفائدة؟ ألا
تأخذني سنة من النوم؟ يالهلول الانتظار! كلّمّا لاحت أول انفراجة



للنور في السماء يسود الظلام في نفسي مع كل إشراقة للشمس
يضرب الغروب الأسود في قلبي كلما دنت أقدام في تؤدّة نحوي
فوق الأرض الحجرية ارتعشت يداي وانتفض جسدي محمومًا
وجحظت عيناوي وكأنيّ أستقبل زائرًا من العالم السفلي كل فجر
أنتظر الزائر الأخير يفتح باب غرفتي ليعلن أنّ ساعتني قد حانت،
وجاءت لحظة الرحيل والعودة إلى العدم!

- ما الذي يؤرقك، يا أستاذ ناجي؟

- أنا لم أذنب، يا دكتور سمير كان لابد أن أقتلها. كان لابد أن
أضع نهاية لشّرّها وغدرها.

اتسعت حدقتا سمير في دهشة، ورمق المريض بنظرة كالسهم
أردف المريض قائلاً:

- لماذا يعاقبونني، أنا الضحية؟ كم عانيت على يديها كم
قاسيت من جبروتها كم تقلّبت كالشاة فوق جمر يديها الملوثتين
بدماء أبي أرادت موته، فقتله الغدر والعار أرادت أن تخلو لها
الدنيا فدسّت له السم في كل كلمة تخرج من فمها حتّى مات قهراً.
وبعدها ارتمت في أحضان عشيقها:

- (في دهشة) عمّن تتحدث؟



-لقد دَنَسْتُ فراش أبي، حتَّى من قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة
لقد رأيتها، الفاسقة، الساقطة وهي تواعد عشيقها الفاجر. لقد
سمعتها تتحدث إليه وتتململ في حوارها الدنيء مع ذاك الداعر.

-زوجة أبيك؟! من تقصد؟ هل لأبيك زوجة غير أمك؟

-(دون أن يكثرث لاستفسار سمير) ماذا كان عليّ أن أفعل؟
مات أبي منكسراً، بائساً هل أخطأ حين تزوّج من تلك المرأة
اللعوب بعد رحيل أمي؟ هل أخطأ حين أولاهها ثقته؟ ألم يكن
يعلم بسيرتها الأولى؟ ألم يدري بماضيها المشين المخزي؟ لماذا
احتفظ بها بعد أن بدأت الشكوك تساوره؟ لقد أخبرني بمكنون
صدره، وكأنّه يستعطفني أن أضع حدّاً لأوجاعه.

-(مدهوشاً) عمّا تتحدّث، يا ناجي؟

-كان لابدّ أن أقتلها وأعيد إلى أبي كرامته المسلوبة، لم أستطع
أن أراها تخونه كل يوم دون رادع أنا لست مذنباً... لا، بل أنا مذنب
لقد أخطأت إلى أبي لقد قتلتها انتقاماً لنفسي، لا لسيرة أبي!

لاكت الحيرة سمير بين شديقيها، فقال مستوضحاً:

-ماذا تعني يا أستاذ ناجي؟

-لم أطق رؤيتها في حضن رجل غيري لم أتخيّل أن أرى



أحدًا يعبث بجسدها الجميل لم أكن أراها زوجة أبي كانت تكبرني
بأعوام قليلة، فكيف أراها بديلاً لأمي؟

أطرق المريض برأسه في أسى، بينما ظلّ سمير يرمقه بعينين
جاحظتين استأنف المريض، غير عابئ بحيرة سمير:

- كان الخطأ خطأك يا أبي لماذا لم تكتفِ بذكرى أمي؟ لماذا
تزوَّجت غانية؟ لقد استغلّلت أبي واستغلّلتني، ثمّ هامت على وجهها
تلبيّ رغبة شبقها الخائنة، لا، ليست وحدها الخائنة. أنا أيضًا خائن،
بل أنا أشرّ منها أنا أيضًا أستحق الموت ليتهم يعجلّون به.

- أنا لا أفهم شيئًا، يا أستاذ ناجي، أرجوك أن توضّح معني
كلامك.

- ليتهم يأتون الآن ليضعوا نهاية لآلامي الموت! ذاك اللغز
الأبدي ماذا سيحدث بعد أن أتقابل معه وجهًا لوجه فوق منصّة
الإعدام؟ ماذا سيحدث بعد أن أسقط في بئر الموت متدلّيًا من حبل
المشنقة؟ هل أعود طفلًا وأبدأ من جديد؟ هل أصير عدماً؟ هل
هناك عالم آخر؟ هل هناك بعث وحساب؟ هل مصيري الجحيم؟
-ولماذا يعدمونك؟ وما الذي ارتكبته كي يكون مصيرك
الجحيم؟



-لقد ندمت على ما فعلت وربما يسامحني الله. لا... لم أندم، بل أشعر بالزهو والسرور لِمَا فعلت لقد انتقمتم لأبي ولنفسي ولل بشرية من تلك الساقطة، فهل يرضى عني الله حين أقف أمامه؟ وإن غفر لي قتلي لها، هل يغفر لي الخيانة؟ ليتني أستطيع أن أعبر للعالم الآخر وأرى ما يحدث هناك، قريباً سأفعل بالذالك الجسد المتعفن! يا الشبح الليل! كم أبتغي أن يجالسني إلى الأبد ليت الظلام يظل هكذا يملأ الكون ليته يسود أبداً. ليت النهار يضل طريقه. أشعر أن جدران الغرفة تضيق حولي وتعتصر صدري وتقبض أنفاسي، وتلك النقوش فوق الحوائط، هل هي مرثاتي؟! تحوّلت غرفتي إلى قبر مطبق أكاد أختنق!

أرهف المريض السمع، ولاذ بالصمت ملياً، كمن ينتظر حدوث أمر ما، ثم استطرد قائلاً:

-ها هي الخطوات أخيراً أسمعها تقترب، هل جاءوا ليقنادوني للمشقة؟ لا، أرجوكم، أمهلوني يوماً آخر، أمهلوني ساعة أتلو صلاتي الأخيرة لا، لقد تلاشت الخطوات يبدو أن السجّان يجد متعة في العبث بي، هل يجد لذة في معاناتي، أم أنّه يذكرني بما عليّ أن أفعل؟



تحنّ سمير على مريضه الشاب، فحاول أن يسرّي عنه، فدنا منه وراح يربت على كتفه، قائلاً:

- هوّن عليك، يا أستاذ ناجي إنّ الله غفور رحيم.

- نعم ولكن غفرانه لن يطلني، فأنا زنديق إذن لأصلي.. ولكنني لم أفعلها من قبل، هل تكون صلاتي الأولى هي الأخيرة؟ هل يقبلها الله؟ سامحك الله يا أبي لم يكن يصلي ولم يصطحبني أبداً للصلاة، هل عاش مثلي لا يدرك مغزى الحياة، أم تراني أعيش مثله؟ أنا صورة منه لقد عاش حياته في نزوة تتلوها نزوة. مسكينة أمي كانت له شمعة تحترق، فأذاها حتى الرفات أكان عقاب الله أن يجد ضالته بعد موت أمي في تلك الملعونة؟ كيف خدعته؟ أم تراه هو من خدعها؟ فارق السن كان كفيلاً بتدمير أيّ روابط بينهما أذلك خائنه؟ هل رضى أن يعيش مع امرأة تخونه طالما يحظى منها بسويغات يشعر فيها برجولته المتهالكة؟

ابتسم سمير في تهكّم، وزفر في ضجر ولم يعقّب، فأضاف المريض:

- أكان هذا هو السبب الذي لأجله أرادت أن تتخلص منه حتى تنأ بعشيقها؟ لقد كان أبي العائق الوحيد حتى يستمتعا



بحياتهما، كان لابد أن يموت أبي حتّى تظفر بثروته وتنعم بها مع
عشيقة الجبان..... لا أنا لست جباناً، نعم عشقتها، تلك الساقطة
أحببتها وسقطتُ فريسة لجمالها مثلما سقط أبي المسكين.

زَمْ سمير شفّتيه في استياء، وعقد ذراعيه أمام صدره، توقّف
المريض عن الكلام لبرهة، قبل أن يلتقط أنفاسه ويستطرد دون أن
يلتفت إلى التجهّم الذي أصاب وجه سمير.

-نعم، رضختُ لجمالها ونفّذتُ أمرها صاغراً، كان لابد أن
أتخلّص منه، كي أظفر بجمالها لي وحدي وأنعم بالمال معها.

فغر سمير فاه، ولم ينبس.

-لقد وعدتني بقلبها وطالتني مخالب خيانتها لقد أغرتني
على قتله ووعدتني بحياة هانئة:

- (في ذهول) ماذا؟

-قتلته دسستُ السم له في كأسه الأخير كنت أحلم بنعيم معها
خانتني بعدها، فقتلتها ووضعت نهاية لمأساتي ليتني ما رضخت
لتلك الحيّة الرقطاء! وما الجدوى الآن؟ ليتني أستطيع أن أبتاع
عمرًا ليتهم يمهّلوني حتّى ألقى سلاماً أخيراً على الدنيا، أصدقائي،
كلبي المخلص، ليتني قتلته هوّ أيضاً حتّى لا أتركه فريسة للجوع



والوحدة، لقد كان أكثر إخلاصًا منّا جميعًا والآن أنتقم من نفسي.

-هل تدرك ما تتفوّه به، يا أستاذ ناجي؟

-نعم، تمامًا. لقد اعترفت بقتلها لأنتقم لأبي مني ومنها. ليت الموت يسرع خطواته، ما أفزع الموت حين تعلم بموعد مجيئه، وما أجمل الحياة حين تعلم أنّك مفارقها!

-اعترفت لمن؟

-للدنيا كلها، وهأنذا على عتبة الموت، لا أملك شجاعة المواجهة ولا أملك ترف الانهيار حتّى الدموع تخاصمني. صارت عيناى أرضًا باثرة متشققة ألا يسرعون في المجيء؟ ألا يخلصونني من هذا العذاب؟ أريد أن أغفو فلا يطاوعني عقلي، وكأنّه يتأهّب لحدث جلل، لم أعد أكثر ثلشيء غير تلك اللحظة كل ما أبتغيه الإسراع بها.

استكان سمير برغمه إلى ثرثرة المريض، وزالت عن وجهه أمارات الدهشة بغتة، نكّس المريض رأسه وتمتم:

-يا رب - أعلم أنّك لا ترضى عني، وأعلم أنّني طالما عصيتك وطالما شكّكت في وجودك، والآن أشعر بالضعف والفرع أجبني ولو لمرة واحدة أخيرة، تقبّل آخر كلماتي وأنا أسلم



بين يديك روحي التعسة، لم أبتغ أبداً عصيانك فقط تحيرت في
دنياك وخليقتك، أردت أن أردد لك عطيتك وأعود كما كنت، عدم
لا وجود له الآن أعود.

فجأة وضع المريض كفيه على صدغيه ليسد أذنيه عن أصوات
تترامى إلى مسمعه، وطفق يصيح قائلاً:

-يا إلهي! إنها الخطوات نفسها ثانية إنها تقترب، أشعر وكأنَّ
جيوش العالم تحاصرني الكل جاء ليقصّ مني.

اقترب سمير رويداً من مريضه، ووضع يده في حنو فوق كتفه،
وقال مواسياً:

-الآن أدركت سر معاناتك، يا عزيزي هناك سبيل واحد
للتخلّص من عذابك القميء يجب أن تعترف بجريمتك إلى
الشرطة، يا أستاذ ناجي لقد أخطأت، يا صديقي، حين قتلت أباك،
وأقمت علاقة غير شرعية مع أقرب النساء إليك، أمك!

الفصل الرابع والعشرون



«ذهبكم تراب، وقصوركم تراب، وزينتكم تراب، وملككم تراب في تراب، تلبسون تراب وتأكلون تراب وتنامون على تراب، عجباً لتراب تكبر وما تاب.»

في ليلة احتجب فيها القمر خلف السحب، كأنما أراد أن يكسو جدران العالم بالسواد، وقف سمير في شرفة العيادة، يتأمل الشارع الذي خلا من المارة تمامًا تذكر أباه، واستبدت ببدنه رجفة قويّة، ثم قرّر أن يغسل شجنه بالدموع، فأجهش بالبكاء.

كانت الأفكار في عقله كسيحة، ما تكاد تخطو حتّى تكبو وتكبّ على وجهها لرجل مثله يحترف الصمت والإنصات، ليس يسيرًا أن يصدق بالألم لقد اعتاد التلصّص على عقول الآخرين، ونسى أن يتصفّح طيّات عقله.



لقد كانت الحياة بالنسبة له حكاية متقنة مثل مكيدة، فسقط ضحية نفسه، التي ارتدت عدة أقنعة وأكثر من وجه تذكر كيف أنه تنكّر كثيرًا لأبيه، ولم يستطع أن يعيش في عين الإعصار، حين تمرّد أبوه وقرّر أن يلفظ حياة الكذب واختار حياة الدراويش. تساءل كيف استطاع أن يترك أباه هكذا، يعيش مثل صعلوك، ويموت مثل شريد؟ استقلّ سيارته دون أن يدري وجهته، ثم انطلقت السيارة تطوي الطريق على هدى مصباحيها المضيئين، ولم تتوقّف حتّى تراءى لعينه في الأفق خط البحر، والذي بدا له مثل حافة العالم. أدرك أخيرًا أنّه قد جاء إلى الأسكندرية، والتي اعتاد أن يلجأ إليها كلّما داهمه حزن ما، أو استبدت به مشقة العمل.

لفتت أنظاره بجسدها الممشوق وملامحها الأوروبية المنمّقة، والتي تناغمت بشكل سيميتري مع التصميم الإيطالي الفرنسي لمطعم «سانتا لوتشيا» في محطة الرمل كانت تجلس وحدها على طاولة تتسع لأربعة أشخاص، وتضع ساقًا فوق ساق في كبرياء أنثوي. لم يستطع أن يشيح بوجهه بعيدًا عنها، فقد أسره سحرها الذي راح يتسلّل داخله رويدًا، انقضّت عيناه على مواطن الفتنة في جسدها الميّاد، فقد ارتدت ثوبًا فضفاضًا شفّافًا، يكشف



من مناطق الغواية لديها أكثر ممَّا يخفي وحين أحسَّت بسليقة
الأنثى لديها أنَّ هنالك عينين نهمتين تنهشان في جسدها نهشًا،
رشقته بنظرة غضب وضيق مثل نظرة الميدوسا البديعة القاتلة.
ورغم أنَّه لم يتحوَّل إلى حجر، فقد أثر أن يشيح بوجهه بعيدًا.

تظاهر بأنَّه يجول ببصره في المكان، ويستكشف أسرارهِ
القديمة، والتي تنتمي إلى عهد اتَّسم بالرقى والذوق الرفيع، وفوق
شفتيه ابتسامة تَمَّ عن إعجاب بالمكان، وبمن فيه راح يتفرَّس في
الديكورات الخشبية التي زَيَّنت المكان، ويتأمَّل الدرج الخشبي
الذي يؤدي إلى الدور العلوي من المطعم، واللوحة الكلاسيكية
المعلَّقة في أعلى الدرج لامرأة جميلة تنظر بدلال وقد افترَّ ثغرها
عن ابتسامة ترحيب بالزوار.

راح يتنقَّل بعينه بين اللوحة وبين المرأة الأوروبية، كأنَّه يريد
أن يعقد مقارنة بينهما، رغم أنَّها فاقت في حسنها ما صنعتُهُ أنامل
الفنان، كانت ترسل بصرها بين الفينة والفينة إلى باب المطعم،
وتزفر في ضجر، فأدرك أنَّها تنتظر شخصًا ما أشعلت سيجارة،
وراحت تنفخ دخانها في توتُّر، وقد تجهمَّ وجهها الساطع بضوء
أبيض فبدا مثل فجر يغزوه الضباب.



مرّت دقائق بدت ثقال عليها، بينما كان سمير يستمرى الوقت، ويريدها ألا تغادر المكان جاء النادل بكأس عصير طازج، وانحنى بجزعه أمامها كأنه يتأهب لتقبيل يدها، ووضع الكأس أمامها، ثم مضى وهو يبتسم ابتهاجاً بهذا القرب الذي تمنى سمير أن يحظى به. نادى على النادل فجاء مسرعاً، كأنه أراد أن يغادر سمير المكان في أسرع وقت، رغم أنه من رواد المطعم الدائمين، فقد لاحظ عينيه المسمرتين على جسد المرأة الرّيان، ويبدو أن ذلك أصاب النادل بالغيرة، مال بجزعه أمام سمير على مضض، وراح يدوّن ما سوف يتناوله على الغداء وحين انتهى من تدوين مطلبه، بادره سمير دون مقدّمات قائلاً:

-من هذه المرأة؟

بدا الانزعاج على وجهه، وتردّد برهة قبل أن يهمس في اقتضاب:

-لا أعرف يا سيدي.

-هل هيّ من زبائن المطعم؟

-لا يا سيدي، ولكن وجهها يبدو مألوفاً، فقد رأيتها أكثر من مرة في صحبة آخرين.



رمقه سمير بنظرة استهجان، فقد أدرك أنه يحاول أن يشنيه
عن التفكير فيها، ويخبره بلباقته المعهودة أنها ليست امرأة متاحة.
ابتسم سمير في خبث مصطنع وقال:

-إذن فهَيَّ في انتظار أحد، أليس كذلك؟

ازداد تجهُّم النادل، وهزَّ كتفيه لأعلى، ولم يردَّ تيَقِّن سمير أنه
لا يرغب في الحديث عنها أكثر من ذلك، فأوماً برأسه أن يذهب
ليحضر الطعام.

لاحظ أنَّ المرأة كانت تراقبه أثناء حديثه مع النادل، فربَّما
أدركت أنهما كانا يتحدثان عنها، نظر إليها وابتسم في ودٍّ، فحدقت
في وجهه مدهوشة، ثمَّ أشاحت بوجهها كي تخفي ابتسامه أو شكت
أن ت برق فوق شففتيها رغماً عنها شعر بالغبطة والسرور، فربَّما راق
لها، ولم يعد ثقیل الروح عليها.

لم تدم فرحته سوى ثوانٍ معدودة، فقد أدركت اهتمامه
بها، وكأنَّها تحدس ما يدور بخلده، وقد لاحظت عينيه اللتين لم
تغمضا عنها لحظة، فوضعت حقيبة يدها الكبيرة فوق الطاولة
أمامها، اختفى وجهها وراء ستار وشعر سمير أنها قد سدَّت على
خياله كل المنافذ اشتاط غيظًا، فلم يرد أن يغيب وجهها عن عينيه،



ولكن لم يكن بيده حيلة دقق النظر في حقيبتها الأنيقة، واتسعت حدقتا عينيه، وفغر فاه في دهشة، فقد كانت من تصميم هيرمس «كيلبي» والتي يتجاوز ثمنها الثلاثين ألف دولار!

أدرك حينئذ أنها لابد أن تكون من سيّدات العائلات الراقية، وأن رصيدها من المال لا يقل عن رصيدها من الجمال، والذي لم ينقص قيد أنملة، فإن كانت تحمل حقبة «غريس كيلبي» أميرة موناكو، فلا بد أنها تمتلك من الثروة ما يجعلها تعيش مثلها، قرّر أن يقلع عن محاولاته للفت أنظارها دون جدوى، فأمسك بالكتاب الذي كان يحمله، وتظاهر بالقراءة فيه، وما زالت عيناه تبحثان عن ثغرة في سور برلين الذي صنّعه بحقيبتها النفيسة، والتي لولا انشغاله بصاحببتها الجميلة لتغزّل فيها، وفي تصميمها البديع جاءه النادل بالطعام، فوضع الكتاب جانباً، وشرع في تناوله.

مضت دقائق حين أمسكت المرأة بحقيبتها ووضعتها بجوارها، فكشفت للمرة الثانية عن وجهها الذي ازداد بريقاً، رغم القلق الذي ظهر جلياً في عينيها الزرقاوين بلون السماء، همس سمير في نفسه: يبدو أن الحسنات يزدن جمالاً كلما تعقدت الأمور من حولهن، مثل القمر الذي يزداد بريقاً ولمعاناً كلما أمتع الليل في الظلمة.



راحت تنظر في ساعة يدها بين الحين والآخر وتزفر في ضيق،
أشعلت سيجارة أخرى، ثم صوّبت بصرها نحو باب المطعم،
وظلّت تحدّق في كل من يدلف إليه بعينين تَوَاقَتَيْنِ. تساءل سمير
من يكون هذا الشخص الذي تنتظره بلهفة هكذا؟ طفح الكيل بها،
واشتاطت غضبًا والوقت يمرّ دون أن يأتي من تنتظره، فتحوّل وجهها
البرّاق إلى شمس مضرجة بدماء الغروب. أحسّ سمير برغبة عارمة
في التحدّث إليها، فربّما استطاع أن يهدئ من روعها، ويسري عنها.
استجمع كل ما يملك من شجاعة، وراح يراجع كل العبارات
المنمّقة في خزائن اللغة، وترك طاولته، واتّجه نحوها في محاولة
لم يكثرث لحساب المكسب والخسارة فيها، بينما جحظت عينا
النادل، وهو يرمقه بنظرة متسائلة، رفعت رأسها وتطلّعت في وجه
سمير بعينيهما الداكنتين المفعمتين بالدهشة والحيرة. انكمشت في
مقعدها حين اقترب منها، وحاول غاية وسعه ألا يبدو متطفلاً،
فبادرها قائلاً:

- مساء الخير.

نظرت في عينيه ولم تنطق بكلمة سادت سكينة مربية لثوان،
قبل أن يعيد عليها التحية:



- مساء الخير، يا سيدتي.

حين أَحَسَّتْ أَنَّ صَمْتَهَا لم يفلح في أن يلفظه بعيدًا، زَمَّتْ شفيتها، وقطبت حاجبيها، ثُمَّ خلعت صمتها وقالت:

- مساء الخير.

نظر سمير إلى حقيبتها، وتأكدَ أَنَّهَا حقًّا من ذلك النوع باهظ الثمن، وقدح زناد فكره وقد هجرته بغتة أحزانه وهمومه، ثُمَّ استأنف:

- يالها من صحبة جميلة، فلم تر عيني جمالًا مثل جمالها النادر، وشعرها الناعم وخدودها الأسيلة.

تبرَّمت وقد أدهشتها عبارته، فباغتته قائلة:

- عمَّا تتحدث؟ إِنَّهَا حقيبة لا أكثر.

- معذرة يا سيدتي، فقد كنت أتحدَّث إلى الحقيبة، لا عنها.

تطلَّعت في وجهه لبرهة، وبزغ ضوء ابتسامة فوق شفيتها حين أدركت مغزى عبارته والتي تحوَّلت بفعل جرأته لغزل صريح انتهز سمير الفرصة وأطلق لعبارات الملاطفة العنان:

- أنا لم أدرك قبل الآن كيف تبتسم الملائكة، أشكرك على منحي هذه الفرصة.



اتَّسَعَتْ ابْتِسَامَتُهَا قَلِيلًا، بَيْنَمَا كَانَتْ تَحَاوُلُ جَهْدَهَا أَنْ تَغَالِبَهَا
حَتَّى لَا تَبْدِيَ اسْتِحْسَانًا لِكَلِمَاتِهِ، فَوَادَتْ الْابْتِسَامَةَ عَلَى الْفُورِ،
وَتَظَاهَرَتْ بِالْغَضَبِ، وَقَالَتْ:

-هَذَا أَمْرٌ عَجِيبٌ، هَلْ تَعْرِفْنِي يَا سَيِّدِي؟

-لَا، وَلَكِنْ أَعْتَقِدُ أَنَّكَ مِنْ أَدْخَلْتَ صَيِّغَةَ الْمَبَالِغَةِ إِلَى اللُّغَةِ،
فَأَنْتِ الْأَجْمَلُ، وَالْأَرْقَى، وَالْأَبْدَعُ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟

لَانَتْ مَلَامَحَ وَجْهِهَا، وَانْقَشَعَتْ عَنْهُ سَحَابَةُ التَّجَهُُّمِ. أَطْرَقَتْ
بِرَأْسِهَا، وَحَاوَلَتْ أَنْ تَخْفِيَ بِيَدِهَا الضَّحِكَةَ الَّتِي طَفَتْ عَلَى سَطْحِ
شَفَتَيْهَا رَغْمًا عَنْهَا فَأَدْرَكَ سَمِيرٌ أَنَّهَا قَرَّرَتْ أَنْ تَمْنَحَهُ الْفُرْصَةَ أَخِيرًا
كِي يَعْبرَ إِلَيْهَا فَوْقَ جَسَرٍ مِنْ عِبَارَاتِ التَّوَدُّدِ. سَمَحَ لِنَفْسِهِ أَنْ يَجْلِسَ
قِبَالَتِهَا، وَسَطَ نَظَرَاتِ الدَّهْشَةِ عَلَى وَجْهِ النَّادِلِ، وَشَهَقَتْهَا الَّتِي
انْدَفَعَتْ مِنْ فَمِهَا حِينَ فَعَلَ ذَلِكَ قَرَّرَ أَلَّا يُعْطِيَهَا الْفُرْصَةَ لِتَفَكَّرَ فِيمَا
يَحْدُثُ، فَبَاغَتْهَا قَائِلًا:

-أَنَا لَمْ أَتَنَاوَلْ غَدَائِي بَعْدَ، فَقَدْ تَعَوَّدْتُ أَنْ أَتَنَاوَلَ بِصَحْبَةِ
الْأَصْدِقَاءِ، وَيَبْدُو أَنَّهُمْ لَنْ يَأْتُوا الْيَوْمَ، فَهَلْ تَشْفِقِينَ عَلَى مَعْدَتِي
الْخَاوِيَةِ، وَتُشَارِكِينِي الطَّعَامَ؟
-بِالطَّبْعِ لَا، فَأَنَا لَا أَعْرِفُكَ.



- وهل يعرف القمر كل الشعراء الذين يسامرونه حتّى بزوغ
الفجر؟ أنا لم أطلب سوى دقائق نتناول فيها الطعام سوياً، أرجوك
ألاً ترفضني.

- ولكنني في انتظار أصدقاء لي.

- سوف نتناول الطعام سوياً، وحين يأتي أصدقاؤك سوف
أغادر الطاولة على الفور.

راحت تنظر حولها، كأنّها تتأهب لطلب مساعدة أحدهم
على التخلص من سمير، بينما وقف النادل المتطفّل على أهبة
الاستعداد، نظر سمير في عينيها بودّ حار، وضمّ كفيه أمام وجهه
راجياً أن تقبل دعوته ويين إقبال وإحجام رضخت لرجائه،
وأومأت برأسها، فابتسم سمير ملء شذقيه، وزعق على النادل
الذي جاء مهرولاً بادره سمير قائلاً:

- هل يمكنك أن تأتي بطعامي إلى هنا، وأن تأتي بما ترغب فيه
السيدة من طعام؟

أبدت عدم رغبتها في طلب الطعام، وتحت ضغط وإصرار
من سمير وافقت وطلبت طعاماً خفيفاً، دوّن النادل طلبها، وهو
يكزّ أسنانه، جلسا يتناولان الطعام سوياً، ويتجاذبان أطراف



الحوار، وسمير يتأمل أناملها وهي تتناول طعامها، كأنّها تعزف على أصابع بيانو.

- أعرفك بنفسي، يا سيدتي أنا الحسين بن منصور.

- (ضاحكة) ماذا؟ يبدو أنك لست مصرياً على أية حال، لن أخبرك باسمي فأنا لا أعرفك، ولكنك تستطيع أن تقول أنني سيدة أعمال.

- هل أنتِ مصرية؟

- بالطبع، أنا إسكندرانية رغم ملامحي التي تبدو غريبة، فأبي مصري من المنشية ولكن أُمي إيطالية أريد أن أسألك، لماذا أردت أن تتحدّث إليّ؟ هل أبدو فريسة عزلاء، أم أنك ظننت أنني قنّاصة رجال؟

- لا يا سيدتي، لا هذا ولا ذاك. أقسم لك أنني أحسست برغبة في الحديث معك، فقد استبدّ بي الفضول حين رأيته تتأففين من الانتظار، وأردت فقط أن أأنس بك حتى يأتي من تنتظرينه.

- (مبتسمة) لماذا لم تقل من تنتظرينها؟

ابتسم سميّر لمزحتها الذكية، وقال:



-على آية حال، أنا من احتجت للحديث معك، ولن أطفّل عليك أكثر من ذلك.

أبرقت شفتها عن ابتسامة خجلى، فحاول سмир أن يدير دفة الحديث بعيداً عن شكوكها، وأضاف:

-حقيبتك جد بديعة، أليست من نوع هيرمس كيلي الفرنسية؟
-بلى، ولكن كيف عرفت هذا؟

-لقد رأيتها في مهرجان السينما الأخير في حوزة ممثلة فرنسية ذائعة الصيت، وعلمت أنّها باهظة الثمن.

-أتريد أن تراها عن كثب؟

-بالطبع، إن لم يكن لديك مانع.

ناولته حقيبتها بابتسامة رائقة، فراح يتأملها، ويتلمس جلدھا النادر، لاحظ أنّها خفيفة الوزن، فقال:

-إنّھا خفيفة جداً.

-إنّھا فارغة تماماً.

-(مدهوشاً) فارغة؟!!

-نعم، فأنا أحمل فيها ذكرياتي فقط.



ران الصمت لبرهة وسمير يحدّق في وجهها، ثمّ قال مستفسراً:

-أنا لا أفهم يا سيدي.

-هي باهظة الثمن لأنّها تحوي كل ما أملك من ذكريات،
والذكريات مثل اللآلئ، يا سيدي، خفيفة رغم قيمتها الكبيرة.

أسند سмир ذقنه في حيرة فوق راحة يديه، وراح يرمقها بنظرة
ارتياح، فاستطردت قائلة:

-هنا أحتفظ بمسقط رأسي في المنشية، وصور أصدقاء
الطفولة، ودميتي القطنية، وشجرة حديقة منزلنا، والبرتقال الذي
كان يسقط منها، وإذا فتحت هذا الجيب ستجد مدرستي الداخلية
في شارع النبي دانيال، وخلف هذه السوستة سوف تجد بيت جدي
في نابولي حين كنت أزوره في العطلة الصيفية.

كان سмир ينصت إليها فاعراً فاه، ولم ينس بيت شفة، ظنّ
أنّه قد أخطأ الظن بها، فقد بدا أنّه يتحدث إلى امرأة مختلّة عقلياً،
تماماً كمعظم زوّار عيادته رغم ذلك ظلّ يومئ برأسه، بينما تجوّل
بصره في المطعم باحثاً عن النادل الذي اختفى فجأة لم تعر المرأة
لامتعاض وجهه وتغير لونه اهتماماً، واستأنفت قائلة:

-كل إنسان لديه حقيقة ذكريات، وكلّما كانت ذات قيمة



وعزيزة عليه، كلّما ازداد ثمنها الذكريات هي ميراث العشق، يا سيدي، ويجب أن نحفظ بها في مكان يليق بها.

- (في دهشة) من أنت؟

- أنا؟ أنا امرأة تضمرك لك العشق، ألم أترك لك مفتاح قلبي تحت دواسة بابك قبل أن أغادرك؟
- أنا لا أفهم شيئاً.

- أنا من تمارس الحب معك منذ قرون، وما زالت عذراء.
توقّف سمير عن تناول طعامه، فقد شعر بغتة بتقلّصات في المعدة، وداهمته رغبة في التقيؤ والفرار، تعجّب كيف يمكن أن تكون امرأة مثلها بهذا الجمال المنقطع النظير، بينما تمتلك عقلاً غير سوي ورغم التوتر الذي انقضّ عليه شعر بالإشفاق عليها، فلم يحاول أن يستوقفها شعر بالأسى وهو يتفرّس في وجهها الملائكي، ويتحسّر على حسنها البديع، ويتعجّب لماذا لا يملك الإنسان أكثر من عقل، حتّى إذا ما فسد أحدهم، حلّ آخر محله؟

ظّل سمير يهز رأسه في حزن وكأنّه قد استسلم لسكرة حلم لا يستطيع أن يفيق منه، ثم باغتها مستفسراً:

- ما اسمك، يا سيدتي؟



-اسمي؟ هل يهَمُّكَ أن تعرف اسمي؟

-بالطبع.

-اسمي نيروز!

كمن أصابته قارعة ما، تراجع سمير في مقعده مثل طفل
مدعور، وراح يرشق المرأة بنظرات ذاهلة:

-ألا يعجبك الطعام يا سيدي؟

-ماذا؟

-أقول: ألا يعجبك الطعام؟ فقد رأيت أنَّك لم تقربه، وأظن
أنَّه قد برد أو يكاد.

تطلَّع سمير في وجه من يخاطبه، فوجد النادل يقف أمام
طاولته مبتسمًا، وهو يشير إلى صحن الطعام:

-ألا يعجبك طعام اليوم؟ أتريد أن أبدِّله لك، يا سيدي؟

مرَّت ثوان قبل أن يستفيق سمير من غفوته، ويكتشف أنَّه
مازال يجلس على طاولته، وقد تراصت أطباق الطعام أمامه، ولم
يمسسها بعد، فقد شرد ذهنه في خيالات بعيدة، حتَّى أنَّه لم يدرك ما
يحدث حوله. أرسل بصره إلى طاولة المرأة الأوروبية، فلم يجدها
نظر إلى النادل الذي وقف مشدوهاً أمامه، بينما يحاول سمير أن



يعني ما يحدث، فاستفسره:

- أين هي؟

- من؟

- المرأة الأوروبية التي كانت تجلس على تلك الطاولة.

رمقه النادل بنظرة حائرة، وحقق في وجهه كأنه يريد أن يتأكد
من قواه العقلية، ثم قال:

- لم تكن هناك امرأة على تلك الطاولة يا سيدي، فهذه الطاولة
محموزة للسيد راشد البنا وحرمه، ولم يصل بعد!

الفصل الأخير



«هَمَلْتُ بِالْقَلْبِ مَا لَا يَحْمِلُ الْبَدَنُ .. وَالْقَلْبُ
يَحْمِلُ مَا لَا تَحْمِلُ الْبُدُنُ، يَا لَيْتَنِي كُنْتُ أَدْنَى مِنْ
يَلُودِ بَكْم .. عَيْنًا لَا نَظَرَ كَمْ أُمَ لَيْتَنِي أَدْنَى ..»

بسليقة الصيَّاد الماهر، راح يتحسَّس جسد نيروز بأصابعه
الطويلة الجافة الجائعة ويغوص بجسده في ثنانيا جلدها، كانت
شفتاه النهمتان تعبثان بأسرارها من شعر رأسها إلى ما بين فخذيهما،
تأهَّب وانتصب فوقها وراح يخلع سرواله في عجلة ثم وثب فوقها
وتفوَّه بكلمات بذیئة، كانت تروق لها لحظة ممارسة الحب،
أَحَسَّتْ أَنَّ ثَمَّةَ شَيْءٍ سَاخِنٍ يَنْسَابُ دَاخِلَهَا وَبَعْدَ دَقَائِقٍ مَعْدُودَةٍ
شَعُرَتْ بِالْجَسَدِ الْمَمْدَّدِ فَوْقَهَا فِي حَالَةٍ تَشْنُّجٍ وَازْدَادَتِ الْوُثْبَاتُ
فَوْقَهَا وَمَرَّتْ لِحْظَاتٌ حِينَ شَعُرَتْ بِسَكِينَةٍ عَجِيبَةٍ دَبَّتْ فِي الْجَسَدِ
الَّذِي بَدَأَ وَكَأَنَّهُ يَلْفِظُ آخِرَ أَنْفَاسِهِ الْإِلَهَةِ فَوْقَ الْوَسَادَةِ الْمَتَّسَخَةِ



بالعرق ورائحة العطر العطنة، تصلَّب وجهها ونظرت حولها في الغرفة بينما غاص الجسد الممدد فوقها في سبات عميق!

كانت الحوائط قديمة، تتكاثر فيها الشروخ وكأنَّها امرأة عجوز، تحاول إخفاء شيخوختها خلف مساحيق رخيصة وفي أحد الأركان انتصب دولاب خشبي قديم، فُتح على مصراعيه، وكأنَّه يتقيَّأ روائح الملابس التي اختلطت فيها القذارة والتراب بدخان السجائر الذي عَشَّش على مصابيح ملوَّنة زادت من عتمة الغرفة.

وفوق إحدى الجدران تدلَّت لوحة رخيصة لامرأة عارية تمامًا تكشف بسخاء عمَّا بين فخذيهما، عاد الجسد الممدد إلى الحياة مرَّةً أخرى وتنحج قليلاً ثمَّ غادر جسدها دون قبلة وداع. ارتدى سرواله وقميصه بنفس السرعة التي خلعهما بها، ألقي ورقة نقدية بجوار يدها التي ارتخت في استسلام الفاتر والمقترن عنيد، ابتسم في وجهها ابتسامة الخجل من الوداع الفاتر والمقترن بوعد من الصعب الوفاء به، ردَّت الابتسامة بنظرة خرساء في عيون زجاجية ولم تنبس بينت شفة.

خرج الجسد منتشياً وإن لم يكن ممشوقاً منتصباً كما كان قبل الغزوة، أغلق الباب خلفه بسرعة وكأنَّه يريد أن يلقي في



أعماقه جرماً ارتكبه تحت تأثير مخدر. حملقت في الجدران لوهلة وراحت تتأمل الشروخ، كان كل شرخ يذكرها بتجربة مرّت بها كل شرخ أحدثه فارس لم يستطع أن يروّض جواده فامتطّاها.

ابتسمت ابتسامة ساخرة وهي تلتقط الورقة النقدية التي تنمّ عن كرم الفارس المغوار ولكن كيف يحتفل الفارس بهزيمته؟ كل الفرسان أسرى وعبيد في هذه الغرفة النصف مظلمة! تذكّرت أول غزوة، وتذكّرت نهر الدموع الذي تدفّق من عينيها يومئذ رغم انتصارها على فارس المعركة بعد أن سلبته كل ما يملك من مال وسلبها كل ما تملك من دموع!

لقد قام فرسان آخرون على مدار الأيام بردم هذا النهر لم يعد هناك في عينيها دموع، بل سخرية ومرارة ومشاعر جافة بالندم وبراءة تم اغتيالها بدم بارد، إنّها أول مهنة في التاريخ، وفي ساحات معاركها سقط الكثير جرحى وكل قتلاها كانوا أقوياء!

لم يفرّ وينجّ من قبضتها إلّا من حافظ على سيفه منتصباً خارج غمده، وكان جمالها هو سيفها حتّى وهو في الغمد فما أجمل المرأة العارية، والأجمل حين تتأهّب لخلع أو ارتداء ملابسها! ماذا عليها أن تفعل ومثلها لا يملك الخيار، طرقات فوق



الباب فُتِح الباب ثانيةً وظهر بين الضوء الساطع خارج الغرفة وبين الظلمة داخلها شبح فارس جديد، دلف إلى الغرفة دون أن تأذن له واقترب دون دعوة مسبقة وهي ترسم على وجهها بقايا الابتسامة التي لم يتمهّل الفارس السابق حتّى يحصل عليها كاملة، أسرع الفارس الجديد في خلع طربوشه الطويل وعباءته البيضاء، وكأنّه يخشى أن ينفد رصيد الأنفاس لديه قبل بداية المعركة أو في منتصفها. راح يتسلّق بعينه الساطعتين منحنيات جسدها العاري المنهك والمستسلم تمامًا، وهي تنظر في جدران الغرفة، كان هناك شرخٌ لم تنتبه إليه من قبل، غير أنّه كان مغطّى بخيوط عنكبوت قديمة وبقايا فرائسه من الحشرات.

طالبته أن يضيء المصباح كي ترى وجهه، فأوماً برأسه دون أن يتفوّه بالكلام، أضاء مصباحًا فقيرًا بجوار فراشها، ثمّ أدار لها ظهره، قطبت جبينها في دهشة حين رأت شيخًا في رداء صوفي برّاق، وتساءلت: هل هناك من الرجال من يخجل في حضرة فتاة ليل مثلها؟ أحسّت ببعض السكينة، فقد بدا أقلّ وحشيّة وجسارة ممن سبقوه من الغزاة، فبادرته قائلة:

-هل هناك رجل يخجل من رؤية فتاة مثلي؟



أجابها بصوت دافئ، يخرج من حنجرته مثل صوت شخص عالق بين الأنقاض، حادًا في البداية، ثم خافتًا، إلى أن يصمت تمامًا قال دون أن يلتفت إليها:

-لقد أتيتك حافي القدمين تحت المطر كي تشرب وحدتي كأسًا من نبيذ السماء المعتق فوق شفئك جئت كي أشرب من نخب عينيك حتّى الثمالة، يا نيروز.

- (في حيرة) أتعرف اسمي؟

-بالطبع، أنتِ الشجرة التي كنت أسكر تحتها، أنتِ الثمرة التي كنت أقضمها بشراهة، أنتِ الوردة التي ملأت يدي بالعطر، ثم تركتني وحيدًا، أنتِزع الشوك العالق براحة يدي.
- يبدو لي أنني أعرفك صوتك يبدو مألوفًا لي.

-نعم، يا حبيبتى، فأنا الوجه الذي نسيت خطوط يديك فوق سطحه كالتماثيل أتقنت من أجلك الانتظار، ومثلها أجدت الانهيار في صمت.

هبت نيروز واقفة، وتسمّرت خلفه في انتظار أن يستدير لترى وجهه، ولكنه لم يفعل، وضعت راحة يدها فوق كتفه دون أن تتطلع في وجهه، ثم قالت بصوت متهدج من فرط الأسى:



-لقد عرفتكَ! أنت هو، ذلك الشيخ!

-أنا الزجاج المصبَّب الذي ترين من خلاله روحك المعذبَّة،

أخبريني، يا حبيبتِي، ما الذي أتى بكِ إلى هنا؟

-(في أَسَى) لقد وثبت خارج القدر، فلم أعد أدركُ إلى أين

أذهب، وإلى من ألتفت صرت باهتة، كما لو كان شيء قد انطفأ

في داخلي للأبد، لماذا تركتني هكذا؟ لقد بحثت عنك في كل

مكان، ولم أجدك، لقد صرت مثل زهرة، مرَّت عليها الفصول ولم

تخضوضر. لماذا لا تنظر لي؟

-لأنَّني لا أستطيع أن أنظر في عينيك، فهي بالنسبة لي دفتر

أدوْن فيه يومياتي، ولكنَّني أخشى أن أطلَّع عليها.

-ولماذا تريد أن تبقيني في حيرتي هذه؟

-يا نيروز، لقد كان الحب بيننا معركة خسرتها سوياً، ولم

يعد أماننا سوى رسائل عشق تتبادلها كالأسرى!

-إذن، ماذا جاء بك الآن؟

-جئت كي أودِّع فيك الحياة، جئت كي أستودع العشق في

قلبي يديك، لقد هجعت النفس تحت ستار الليل الأخير، ولم يعد

في العمر سوى لحظات.



-قد تغدو اللحظات عمرًا، يا مولاي.

-هناك خيبات قد تؤرقنا حد الاحتضار، فلا نملك حينها
سوى الدعاء.

-لكنني أحبك ألا يكفيك حبي؟

-بلى، ولكن الحب والحزن توأمان، كلاهما يثيران في نفوسنا
رغبة في البكاء.

اقتربت نيروز من الشيخ، وأمسكت بكتفه، ودفعته ليستدير
ويلتفت إليها استدار الشيخ في تودة، وابتسم في تودد وتشوف.

جحظت عينا نيروز، وفغرت فاهها، حين رأت وجه سمير،
الطبيب النفسي، مدرجًا بالدماء، وأطلقت صرخة لاطمت جدران
الغرفة، حين فتح ذراعيه كأنه يريد احتضانها، فأبصرت في كفيه آثار
الصلب.

استيقظ سمير، الفتى الذي كاد أن يخطو إلى عقده الثاني، من
إغفائه الطويلة، وأرهف أذنيه لينصت إلى المذياع، وقد صدح
بصوت الشيخ المنشاوي، وهو يتلو ما تيسر من آيات القرآن، راح
يفرك عينيه في حيرة، وينظر يمنة ويسرة، كمن يتيقن مما يدور حوله،
جلس جدّه الشيخ داوود، الرجل الكهل، فوق سجادة الصلاة وقد



اختتم ركعته الأخيرة من صلاة العصر، ثم أمسك بمسبحته وراح يغمغم ويداعب حباتها بأصابعه، حاول سميع أن يقفز من حلم داهمه ولازمه لدقائق عديدة إلى واقعه الذي لا يقل ألمًا عما رآه في حلمه، فقال مخاطبًا جدّه.

- حرمًا يا جدّي.

- جمعًا إن شاء الله ربنا يفتح عليك، يا سميع يا ابني أراك تستمع إلى القرآن بأذان صاغية.

- أنا أعشق تلاوة المنشاوي، فله صوت يسري على النفس ويملؤها بالسكينة.

- الله، الله، نعم يا بني، هو كذلك. إذن لماذا لا تصلي، يا سميع؟ ألم يحن الوقت بعد؟

- أخفض صوتك يا جدّي، أرجوك. أبي يجلس في الشرفة. لا أريد أن أدخل في جدال معه في هذا الأمر مرة أخرى. أنت تعلم أننا دائمًا ما نختلف في هذه الأمور، ولا يرضيه أبدًا ما أقول.

- أبوك يريد لك الخير، فالصلاة يا بني عماد الدين، ولا يمكن أن يكتمل إيمان أحد بدون الصلاة.



مطَّ سَمِير شَفْتِيهِ، وامتعض، ولم ينبس بكلمة، فاقترب الجد منه، وربت على كتفه.

-أنا أدرك الحيرة التي تعيش فيها يا ولدي، فكلنا نمر بتلك الفترة، وكلنا يصيبنا الشكُّ والاضطراب، ولكن لا تدع هذا يبعدك عن طريق الصواب.

-وما هو الصواب يا جدي؟

تنهَّد الجد، وابتسم ابتسامة رقيقة، ثم اقتعد طرف الأريكة أمام سمير.

-يا بني، إنَّ عدد الآيات التي تحثُّ على التدبُّر والتفكير في القرآن تفوق عدد الآيات التي تتحدَّث عن العبادات والشرائع. هل تدرك مغزى هذا؟

لم يجب سمير، وقد أطرق برأسه، وراح يجول بناظريه ذات الشمال وذات اليمين، وكأنَّه لا يكثرث لما يقوله جده.

-هذا يعني أنَّ الله يريدنا أن نُعمل العقل في كل شيء، فلا تعارض بين العقل والإيمان.

-للأسف يا جدي، أبي يرى أنَّ التفكير مرادف للكفر.

-غير صحيح، ولكنه يرى أنَّ شطحات التفكير قد تأتي بنتيجة



عكسية، لم يكن من السهل عليه أن يعلم أن ابنه الوحيد، الذي
يتمنى له كل الخير لا يؤمن بوجود الله.

-ومن قال أنني لا أؤمن بوجود الله؟

-ألم تقل أنك تشك في أمور جوهرية في الدين؟

-بلى، ولكن ليس معنى هذا أنني لا أؤمن بوجود خالق لهذا
الكون.

تطلع الجد إلى وجه سمير مدهوشاً، وقطب جبينه، بينما رفع
سمير رأسه وحدث في سقف الغرفة لثوانٍ، قبل أن يستأنف قائلاً:

-أتعلم يا جدي؟ أنا لا أشك في وجود الله، ولكنني أعتقد أنه
قد خلق العالم، ثم أدار له ظهره.

رفع الجد حاجبيه في دهشة، وتأفف وتبرّم، وعقد الحزن
لسانه، ثم تمتم بالكلمات في طلب المغفرة، واستفسره عما يقصد،
فاعتدل سمير في جلسته، وكأنه يتأهب لترك الكرسي، ففغر جده
فاهه في دهشة نظر إلى جده، وافترّ فمه عن نصف ابتسامة آسيانة،
وتوجّه الهوينى إلى باب الغرفة، وقبل أن يجتازه، استدار ونظر إلى
جده، الذي ما زال يتابعه بعينين متسائلتين تملؤهما الشفقة، ثم
أردف وقد شابت نبرات صوته بحّة خجلى.



-يا جدِّي، أنا أشعر أنَّني مثل عظام نخرة، أحتاج إلى من
ينفخ في جسدي الحياة، وأحتاج أن يعلم الله أنَّني أبحث عنه في كل
لحظة، فلماذا يبقيني هكذا في حيرتي الآكلة؟

اغرورقت عينا الجدِّ بالدموع، وجعل يستغفر الله بصوت
مسموع، وقد أرسل بصره إلى سمير الذي أولاه ظهره وغادر
الغرفة، ودلف إلى شرفة غرفته يتابع حركة الراحين والغادين في
الشارع الذي تلاًلاً بالمصاييح، والزينة الورقية احتفالاً بقدوم شهر
رمضان، والجميع يتسابقون للعودة لمنازلهم قبل موعد الإفطار.

أمسك في يده رواية باللغة الإنجليزية بعنوان «النار الخالدة»
لويلز، ساعياً إلى الانفلات من قبضة هموم سرِّية كانت قد بدأت
تتحرَّش بعقله، وتجتثم على صدره مثل صخرة عملاقة دلف أبوه
إلى غرفته، ونظر في حق إلى الكتاب ورمقه بنظرة متسائلة، ثم قال:

-ماذا تقرأ؟

-إنَّها رواية يا أبي.

-رواية؟ أثناء الصيام؟ لا فائدة في إصلاحك أبداً، ألم يكن
من الأفضل أن تختتم جزءاً من القرآن؟ وما هذا الكتاب فوق
الوسادة؟



-إنَّه كتاب ديوان الحلاج.

-الكافر؟ من أعطاك هذا الكتاب؟

-لقد أقرضتني إيَّاه نيروز، جارتنا.

-نيروز، تلك الفتاة اللعوب؟! يبدو أنَّك لن ينصلح لك حال أبدًا.

نكس سمير رأسه في أسي، ولم يعقب، فأمسك الأب الرواية والديوان، وألقى بهما من الشرفة، نظر سمير في وجهه المتجهَّم، واتَّسعت حدقتا عينيه من الدهشة، مغالبًا زحف الغضب إلى نفسه، حدجه الأب بنظرة نارية ألجمته، ثمَّ غادر الغرفة وهو يتمتم بكلمات الغضب، مضت دقائق حين جاء جدّه، وجلس بجواره في الشرفة، وحاول أن يخفّف من وطأة الحزن الذي داهمه.

-لا تحزن يا سمير، فأبوك لا يعرف من اللّغة سوى صيغة الأمر، ولا تنسى أنّه ضابط.

-أنا لم أفعل ما يغضبه يا جدّي.

-أعلم يا بني، وكثيرًا ما حدّرتَه من معاملته لك، وعدم إدراكه لما يدور في ذهنك، إنَّه أكثرنا حزنًا عليك يا بني، ولكنه عنيّد، ولا يعنو أبدًا لأحزانه ولا يعترف بضعفه أمام نوائب الأيام. أتعلم يا سمير، أنت تذكّرني بنفسي حين كنت في مثل عمرك.



انفجرت أسارير سمير قليلاً، ونظر بلهفة إلى جدّه، الذي اتسعت ابتسامته وكأنّ أحداث الماضي قد طفت فوق سطح الذاكرة، فطفق يقول:

- لقد كان والدي متديناً جداً لدرجة التطرّف أحياناً، وقد افتتن بما تعارفنا على تسميته التصوّف والتشدد، رغم أنّ أمي، جدّة أبيك، كانت مسيحية، كما تعلم عشت لفترة طويلة ممزقاً بين تشدّد أبي وترفق أمي بي، فقد علّمتني أنّ الله يحب كل الناس، ويجب علينا أن نحب بعضنا بعضاً، وكانت تمتلك إحساساً رقيقاً بالجمال، فقد كانت راقصة باليه.

فغر سمير فاه، وتدلّت شفّته السفلى في دهشة، ثمّ قال:

- ماذا، راقصة باليه؟ لقد قال أبي أنّها كانت رسّامة.

- نعم، ولكنّها كانت في الأساس راقصة باليه أحبّها أبي حين رآها في الأوبرا، فقد كانت امرأة جميلة، ممشوقة القد، مكتملة الأنوثة سحره وجهها البديع، ورشاقتها وصوتها العذب ورغم أنّه كان من المسلمين المتشدّدين، لم يتردّد لحظة في التودّد إليها والزواج منها، رغم معارضة أهله، والقلق الذي أصاب أسرتها من تلك الزيجة، والحق يقال أنّه كان يعاملها بكل حب وباهتمام



منقطع النظر، المهم أنني جئت بعد عام واحد من الزواج، وكنت الطفل المدلل للعائلتين، وقد راعني حين بدأت أخطو إلى سنوات الصبا ما كنت أراه من اختلاف بين منازل العائلتين، ففي منازل عائلة أبي أشاهد الجميع يؤدون فروض الصلاة، وآيات القرآن تكسو الحوائط، وكثيراً ما كان أبي يصطحبني إلى المسجد معه لأداء الصلوات الخمس، بينما في منزل عائلة والدي كنت أرى صور المسيح والعدراء مريم فوق الجدران، وأسمع الترانيم التي كانت جدتي تستمع إليها في كل الأوقات، ولم أنس أبداً أول مرة اصطحبتني أُمِّي إلى الكنيسة في عيد القيامة لحضور القداس، وكنت مذعوراً، وتشبثت بذراعها طيلة الوقت، وهي تبسم وتحاول أن تهدئ من روعي ورغم تشدد أبي لم يتهرأ أُمِّي أبداً على ذلك، ولم يحاول أن يؤثر عليها في أمور دينها، وإن كانا يتجادلان في بعض الأحيان دون أن يحتدّ بينهما النقاش تعلّمت من أبي أصول الدين، وصرت أصغر شيخ في العائلة، فكنت أؤم أفراد العائلة أحياناً في الصلاة، بينما علّمتني أُمِّي حب الفن والناس.

ران الصمت لبرهة وشرّد ذهن الجد وكأنه يستدعي أحداث الماضي، وأبرقت عيناه بابتسامة متردّدة، بينما جلس سمير يحدّق في وجهه باهتمام حين طال الصمت قليلاً بادر سمير جدّه قائلاً:



- كم أردت أن أسألك عن تلك الأمور يا جدّي، فكيف استطعت أن تعيش في منزل يجمع الديانتين؟ ولماذا اتّجهت إلى ديانة الأب وليس الأم؟

- ربّما لأنّ أبي كان أكثر تشدّدًا من أمي، فلم تحاول أمي أن تشينني عمّا اختاره أبي لي، ولكنّها لم تدخر جهدًا في التحدّث معي عن ديانتها التي تعزّز بها وتمارسها بلا انقطاع، لقد تعلّمت من تجربتي يا سمير أنّ التقرب إلى الله لا يرتبط بديانة ما بقدر ما يرتبط بالرغبة المخلصة، الله لا يبعد أبدًا يا بني على مريد، إن فقدت الله في قلبك لا يمكن أن تجده، يا بني، مهما بحثت عنه. رغم الإيمان القوي الذي ملأ قلبيّ والديّ، راودتني الشكوك في مثل سنك، حين بدأت في التساؤل، والمقارنة بين الديانتين، والحيرة التي اكتفتني، وأنا أشاهد الطقوس المختلفة بين العائلتين، وكدت أفقد إيماني بوجود الله، حتّى أنّني قرّرت الانتحار.

شهق سمير مدهوشًا، واختلجت عيناه، فخرجت من فم جدّه ضحكة مبتورة، ثم استطرد.

- نعم يا بني، فقد أصابني نفس الفزع الذي قد يصيب مسافرًا في سفينة حين يختفي الشاطئ عن ناظريه. عندما تفقد اليقين لا



تجد معنى للحياة ذاتها، خاصة إن كنت من الساعين إلى المثالية، ولا تستطيع أن تتخلى عن قيمك، فقد يفقد أحدهم إيمانه رغبة منه في تلبية نوازع نفسه وشهواته، بينما يتعذب بالشك من يتغي وجه الحقيقة.

- أتعلم، يا جدّي، دائماً ما أخطب الله قائلاً: لماذا تركت أدلة وجودك ناقصة إلى هذا الحد؟ ألم يكن في وسعك أن تنير الطريق للجميع بشكل لا يحتمل الشك أو التأويل؟ ماذا يضرك لو ساعدت من هم مثلي، يتشكّكون في كل شيء حتّى في تفكيرهم؟ ألم تخلق أنت هذا العقل؟ فكيف تلوم من يحاول أن يشبع نهمه؟ أنا لا أتلدّد بشكوكي، ولا أجد متعة في التيه بين اللامعنى واللاجدوى، لا أحد يريد أن يظل فوق متن سفينة تجوب المحيطات دون يقين بالعودة إلى شطآن، مهما كانت الرحلة ممتعة، أنا لا أعتقد إلّا في أمر من اثنين، إمّا أن الإنسان هو من خلقك على صورته، وإمّا أنّك حين خلقت الإنسان على صورتك بالغت في تقدير إمكاناتك.

- لا تقل هذا، يا بني، فالله له حكمته في كل شيء، لقد صرّح الله لنا بكثير من أموره في القرآن، وعلينا أن نتفكر فيها.

- وماذا عن مسيحيتك؟



راح الجد يضحك لهذا التعبير حتّى سقطت مسبحته،
فالتقطها سمير وناولها له، وهو يبتسم لانفراجة أسارير جدّه، ثمّ
استوضحه عن سبب ضحكه، فاستطرد الجد:

-يا بني، أنا أعشق التعاليم المسيحية، وأهوى الأيقونات
واللوحات التي تصوّر المسيح، وأجد نفسي دائماً منجذباً للترانيم،
وكثيراً ما حضرت القدّاس مع أمي وأفراد عائلتها لا يوجد تعارض
يا بني.

قطب سمير حاجبيه في استياء وتجهّم وجهه قليلاً:

-كيف هذا يا جدي؟ هناك تعارض واضح بين الأديان
جميعاً، وكل ديانة تدّعي أنّها الديانة الصحيحة والوحيدة المقبولة
من الله، إلّا البهائية وبعض ديانات الشرق الأقصى كالتاوية في
الصين وديانة الكاوداي في فيتنام، كما يوجد في الديانة الواحدة عدّة
مِلل وطوائف ومذاهب، تتناحر فيما بينها حتّى الموت أحياناً، هل
تذكر الحروب بين السنة والشيعة، وبين الكاثوليك والبروتستانت
في أوروبا؟ لا يمكن أن يتفق اثنان، يعتقد كلّ منهما أنّ الله غاضب
على الآخر.

-لم تكن المشكلة أبداً في الدين يا بني بل في المتدينين.



-ولكن هناك نصوص في الكتب المقدسة تدعو إلى القتال،
والعداء للغير ونبذ الآخر.

-النصوص تحتمل التأويل يا بني.

-ولماذا يبعث الله بنصوص تحتمل التأويل حد القتال
والنزاع؟

لم يجب الجد، وساد الصمت لشوان، بينما لم يتوقف الجد
عن فرك حَبَّات مسبحته، وقد أشاح بوجهه جانباً، ثم قال.

-أنا لست مؤهلاً للرد على تساؤلاتك كلها يا سمير، ولكنني
أحاول أن أنقل إليك ما شعرت أنا به حين داهمني الشك، وعدّبتني
نفس التساؤلات.

-وهل معنى ذلك أنك قد وصلت لمرحلة اليقين الآن؟

-يا بني اليقين يأتي من الإيمان، وليس من الجدل والبحث
والدراسة، فهي لحظة تشعر فيها أن الله قد أنار لك بصيرتك، وأنت
لا ترى الأشياء بعقلك، بل بقلبك، فتشعر بالسكينة المطمئنة، ولا
يغزو قلبك الشك بعد ذلك.

-ولكنني لم أصل إلى هذا اليقين بعد، ومن حقي أن أتساءل،
فالرب الذي لا يحترم عقلاً صنعه بيده مدعاة للشك في وجوده.

-ولكن، يا بني، يجب أن تسمح له أن يدخل قلبك حتى يفعل
هذا بك، كما فعل بي، وإلا سوف يتحجر قلبك، ويصير مثل حائط
صلب لا ينفذ منه النور أو الصوت، العمر المديد لك يا سمير،
ولكن لا أحد يعلم الغيب.

ابتسم سمير، وأمسك بيد جدّه ورفعها إلى شفّتيه وقبّلها ثم
استأنف:

-العمر المديد لك يا جدّي العقل البشري يعدّبه الخوف من
المجهول يا جدّي، ولا يستطيع أن يتصوّر العدم، ويفزع كلّما تفكّر
في الموت والتلاشي ولذلك اخترع فكرة الخلود.

مطّ الجدّ شفّتيه امتعاضاً لما قاله سمير، وراح يهزّ رأسه يميناً
ويساراً وهو يقول:

-لا حول ولا قوة إلا بالله.

نادت الأم على سمير وجدّه ليأتيا إلى الطاولة لتناول الطعام،
فقد أزف الوقت واقترب آذان المغرب، ثمّ دلفت إلى غرفة الأب
لتوقظه، فوجدته جالساً في الفراش وممسكاً بالمصحف، اقتربت
منه وربّبت على كتفه برفق، فرفع عينيه وتطلّع إليها كانت عيناه
مغرورتين بالدموع، فجلست بجواره تستفسره:



-ألن تكف عن البكاء وحدك هكذا يا شاكر؟ أعلم ما تشعر به، ولكنّها إرادة الله، ويجب أن نتقبلها، وعليك أن تكف عن معاملته بتلك القسوة العجيبة، لقد تحوّل إشفافك وحزنك عليه إلى غضب منه، أنت تعلم أن سَمير يمرّ بفترة عصيبة، ويجب ألاّ نزيد من آلامه.

راح الأب يمسح بظهر يده الدموع في عينيه، ثمّ أغلق المصحف في يده، والتفت إليها وراح يزفر في أسي، ثمّ قال:
-لقد كانت محاولته للانتحار آخر ما توقعته، وهذا ما يصيبني بالفرع.

-اطمئن، فإنّ عينا لا تطرف لي في العناية به هيا يا حبيبي، فالإفطار على وشك البدء.

جلس الجميع أمام طاولة الطعام في انتظار مدفع الإفطار. تبادل سَمير وجدّه أطراف الحديث همسًا، بينما جلس الأب يتابع برنامجا دينيًا في التلفاز، والأم تعد الطعام مع الخادمة نرجس، وهي فتاة في مقتبل العمر، جاء بها بواب العمارة لتعمل عندهم وعندما فرغا من إعداد الطعام، اتجهت الفتاة إلى المطبخ لتناول الإفطار، بينما جلس أفراد الأسرة في صمت في انتظار المدفع والأذان



انطلق مدفع الإفطار، وتلاه آذان المغرب، فشرع الجميع في تناول المشروبات، ثم غادر الأب والجدة لإقامة الصلاة ثم العودة لتناول طعامهما انتهزت الأم تلك السانحة وراحت تقطع شرائح اللحم، وتلقمها لسمير، كأنه طفل عاجز عن تناول وجبته، وقد ابتسم مع كل قطعة، وتعالى ضحكاته:

- يا أمي، إنك تهديني مثل رضيع لقد كبرت.

- تناول هذه قبل أن يأتي أبوك، لقد ازددت نحافة يا حبيبي
خلال شهر رمضان.

اختتم الجد الصلاة، فالتفت إلى الأب الذي جلس القرفصاء وراح يسبح بأصابع يده:

- شاكر، أريد أن أتحدث إليك قليلاً.

- تفضل يا حاج داوود، كلّي آذان صاغية.

- إلى متى تقسو على نفسك هكذا؟

- ماذا تقصد، يا أبي؟

- أنت تدرك مقصدي، يا شاكر جيداً هوّن عليك يا بني، فلم يكن في مقدورك أن تمنع المكتوب، أراك تصبّ غضبك على نفسك، وتحاول أن تظهر صلابتك، وقدرتك على التحمل بأن



تقسو على سمير بدلاً من أن تحنو عليه، أعلم يا بني ما تشعر به، وكم يؤلمك أن تراه هكذا، ولكن يجب أن تسلم أمرك لصاحب الأمر.

لم يجب الأب، وظلّ ينصت إلى كلمات الجد وهو يجلس القرفصاء، ويعقد ذراعيه فوق ركبتيه انتصب الجد واقفاً، واقترب من الأب، وربت على كتفه، ثمّ انصرف.

جلس الأب في صمت لدقائق، وقد تشابكت أصابع يديه، وبدأ أنّه يعتصر شيئاً ما في راحتيه، ثمّ انكبّ على ركبتيه وأخفى رأسه بينهما، وأجهش بالبكاء.

خرج الأب والجد لأداء صلاة التراويح، وتركوا سمير مع أمه، التي جلست معه في الشرفة تعد له قدحاً من الشاي، وقطعاً من الكنافة والقطائف، بينما جلس سمير شارد الذهن، زائغ النظرات، لا يتناول شيئاً، يذرع الشارع بناظريه ذهاباً وإياباً، ويجترّ ذاكرة الحلم الطويل الذي داهمه، لقد أصابه ذلك الحلم عن الحلاج بالحيرة، لماذا الحلاج بالذات؟ هل لأنّه كان يقرأ في ديوانه لحظة أن غطّ في النوم، أم لأنّهما يتشابهان في أفكارهما المفخّخة؟

كان الجو حاراً، قائظاً، والهواء ساكناً ثقيلاً، والضوء الدسم الذي يأتي من المصابيح المعلقة في الشارع يضيء الشرفة ويزيد من



حرارة الجو، حاولت الأم أن تسري عن ابنها الذي تعلّقت نظراته بالأفق البعيد، وتقعّرت وجنتاه من ذبول:

-ألن تخرج في سهرة من سهرات رمضان التي تحبها، يا بني؟
اتسعت حدقتا الابن استغرابًا، ورمقها بنظرة استنكار ولوم،
فأطرقت برأسها، ثمّ أردفت:

-يجب أن تخرج يا بني، هذا ليس جيدًا يجب أن تقاوم الحزن
الذي خيّم على وجهك هكذا، إنها ليست نهاية العالم.
-هي كذلك بالنسبة لي يا أمي، هل تعرفين قصة الفلاح
والذئب يا أمي؟

قطبت الأم حاجبيها في تعجّب، فاستأنف:

-أنا أعيش مثل الفلاح الذي هاجمه ذئب جائع، فراح يلقمه
من طعامه حتّى لا يلتهمه، وهو يمنيّ النفس بأن يأتي من ينقذه، أو
أن يشبع الذئب فلا يلتهمه، فلا يأتي أحد لإنقاذه، ولا يشبع الذئب.
-لماذا هذا التشاؤم يا بني، ربنا موجود.

التفت إليها لفوره بنظرة حادة، وكأنّها أثارت حفيظته، فقال
بنبرة مكدودة وابتسامة ساخرة:

-ربّما، ولكنّه يترك القائد الأعلى لقوات الشر يعبث
بمصائرنا.



- أرجوك يا بني لا تتحدث هكذا، فأنت تقطع قلبي بتلك الكلمات.
- لا عليك يا أمي، فاليأس لا يحرمه شرع، ولا يجرمه قانون.
ثمّة خيبة أنكى من الموت، يا أمي.

- بعد الشر عنك من اليأس والخيبة، يا حبيبي، غداً سوف
تكون أفضل، وسوف تعود كما كنت دائماً.

التفت سمير، فرأى دمعتين كانتا تترجرجان في عينيّ أمه،
فتوقّف عن الكلام، وحاول أن يقترب منها، ثمّ احتضنها وقال:
- آسف يا أمي، أعلم أنني أقلب عليك الأوجاع.

- لا عليك، يا حبيبي يعلم الله كم أجأر بالدعاء كي ينبر الله
لك بصيرتك.

- قد يبرّر الإيمان كل شيء، يا أمي، بينما لا يوجد ما يبرّر
الإيمان! أرجوك، يا أمي، لا تحزني أبداً سوف أذهب إلى غرفتي
لأنام، وقد تطول إغفائي قليلاً، فلا تنزعجي أبداً.

في حيرة، تفرّست الأم في وجهه ملياً، ثمّ استوت ناهضة
استدارت خلفه، وراحت تمسح عينيها الدامعتين بيد، وتدفع
كرسيه المتحرّك باليد الأخرى.

النهاية

الكاتب في سطور



- « ممدوح محمد محمود دبور، مدرس لغة إنجليزية.
- « يعمل في مدرسة دولية ويكتب الرواية والقصة القصيرة والشعر والمقال.
- « سبق أن تم نشر روايته الأولى «أحزان بوذا» عن دار إنسان للنشر عام ٢٠١٨.
- « تم نشر قصصه القصيرة في مجموعة بعنوان «حكايات إنسان» عن دار إنسان للنشر عام ٢٠١٨.
- « فازت مجموعته القصصية «دائرة باتساع الجسد» بجائزة نجيب للقصة القصيرة عام ٢٠١٨.
- « تم نشر بعض أعماله القصصية في مجلة الهلال، والثقافة الجديدة، والعديد من المجلات الإلكترونية على صفحات التواصل الاجتماعي.





الفهرست

الإهداء	٣
الفصل الأول	٥
الفصل الثاني	١٥
الفصل الثالث	٢٧
الفصل الرابع	٣٩
الفصل الخامس	٤٩
الفصل السادس	٥٩
الفصل السابع	٧١
الفصل الثامن	٨٥
الفصل التاسع	٩٩
الفصل العاشر	١١١
الفصل الحادي عشر	١٢٥
الفصل الثاني عشر	١٣٧
الفصل الثالث عشر	١٤٩



١٦٣	الفصل الرابع عشر
١٧٥	الفصل الخامس عشر
١٨٧	الفصل السادس عشر
١٩٩	الفصل السابع عشر
٢١٩	الفصل الثامن عشر
٢٣٧	الفصل التاسع عشر
٢٤٩	الفصل العشرون
٢٦١	الفصل الحادى والعشرون
٢٧٥	الفصل الثانى والعشرون
٢٨٧	الفصل الثالث والعشرون
٣٠١	الفصل الرابع والعشرون
٣١٧	الفصل الأخير
٣٤١	الكاتب في سطور
٣٤٣	الفهرس